

الطبعة الرابعة

الإرهابي..؟

عبدالله ثابت



رواية

الساقي

عبدالله ثابت

الإرهابي.

رواية



المنهل

بيروت - لندن

تصميم الغلاف: ماريا شعيب
خطوط المتأوين: علي عاصي

أهدي كتابي إلى:

● أرواح القتلى العائين ..

تعبنا من العتمة .. اصفحوا هنا، ربما يعود الصباح

● الإنسان ..

ألق مظلتك، واخلع نعليك .. نعال نمشي تحت المطر

● نبضي الجديد،

أرضي التي جُبلت على راقحتها في ثياب أمي،

وطني، يا أقدس لثغو بقم صغيرتي ..

عش أبداً، ولتحرمني ملائكتك

الإرهاقي ٢٠

© دار الساقلي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى، دار للدي، ٢٠٠٦

الطبعة الرابعة، دار الساقلي، ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-680-6

دار الساقلي

بناية النور، شارع العربي، لمرمان، ص.ب: ١١٢/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

دواري هنا:

كتب هذا العمل بين ١٩٩٩ - ٢٠٠٥

هذا كتابٌ اجتهدتُ ألا أصنّفه. قصّدت منه أن تعرفوا زاهي الجبالي، هذا الذي كان احتمالاً أكيداً لتمام الـ ١٩ قاتلاً في سبتمبر أميركا، فهو الإرهابي الـ ٢٠. وكان احتمالاً أوثق لتمام قائمة الـ ٢٦، فهو الإرهابي الـ ٢٧ في السعودية، وحررت كثيراً في الطريقة التي أقدم بها هذين الاحتمالين، وأخيراً رأيت أن بمضي العمل هكذا عفواً، فسّحت له لزاهي، يتحدث عن نفسه، على طريقته، التي لا أستطيع!

عبد الله ثابت

مختلف

شبكة روايتي الثقافية

www.rewity.com

زاهي الجبالي

كتب زاهي الجبالي:

يلده . .

من أنا؟ وكيف صرت أنا أنا؟ ماذا أريد؟ وأين أقف؟ وإلى أين أتجه؟ وأني الأوقات والأمكنة حملتني وسافرت بي حتى هذه اللحظة، التي أشرع فيها في حفر ملامحي بإزميل من صدق على هذه الأوراق، التي لربما كان لها شأن ذات يوم؟
للمصدق وحده فهي تبدأ مني، وتنتهي إلي، وقد لا يكون لها من شأن عند أحدٍ غيري. سأكتفي باحتفالي بها، على طريقي عندما أرفع ريشة القلم عن آخر كلمةٍ بآخر سطر. وحدي سأشترى كعكةً صغيرةً وشموعاً وزجاجةً جميلةً محرمة. سأكوم أوراقها هذه على المقعد المقابل. وسأرفع صوت الموسيقى بالمقدار الذي يليق بتلك الساحة، ووحدي سأرقص وأشمل السجائر وأشرب الأقداح، وسأطلق حينها كل الشتائم التي أحفظها والتي لا أحفظها، وسأشدد كل القصائد التي أحفظها والتي لا أحفظها، سأفعل كل هذا وأكثر. . وأكثر. تماماً كذلك الذي يحتفل بعيد ميلاده، وحيداً في بلاو لا يعرف فيها أحداً، ولا يتكلم إلا اليسير من لغة أهلها.

المكان . .

أفكر: ترى لماذا يفكر كل الذين يكتبون شيئاً عن حياتهم أن يصفوا الأماكن التي درجوا عليها، وجالوا في أزقتها، واختلطت دمازهم بمائها وهوائها، وتداخلت طبيعتها معهم حتى شكلت نفوسهم بشكلها؟ إنهم يفعلون ذلك، تجاه أمكتتهم، لأن الإنسان انعكاسٌ لها، يحصل تفاصيلها، ويتشكل على طريقته . .

إذن . . لقد حدث كل ما بهذه الأوراق في مكانين، أولهما قرى، والثاني مدينتي، أيها، على أنهما لا يمكن أن تكونا مكانين مختلفين، بل مكاناً واحداً فقرى ومدينتي لا يفصل بينهما شيء، وهما على رأس هذه القمم الشاهقة، تقسمان مساحةً مختصرة ملونة بالخضرة والمياه، مزدانة بالغيم والضباب والبرد، لا يكاد يغيب عنهما المطر بضعة أيام حتى يعاود ترتيب ملامحهما من جديد .

لا يليق بأبها إلا أن تكون قرية مهما ملأوها بأعمدة الضوء والبنائات والشوارع الاسفلتية والمتاجر والأسواق . إنها قرية على طريقة المدن، مثل الفتاة الريفية التي ألبسوها ثياب المدينة إلا أنهم لن يستطيعوا تغيير جسدها الريفي . . وهكذا أكون جليلاً مرتين!

أحب أن تبدأ الأشياء بالأسئلة، وتنتهي بالأسئلة، وما بين هذا الحشد من علامات الاستفهام، في البدء والخاتمة، يليق بالمرء أن يقول إنه قد أنجز عملاً طيباً، لأن أسئلته تلك قد ولدت عالماً جديداً من الأسئلة الأعمق والأدق، فالدعنة على الإجابات وعلى كل الذين يجعلون إجاباتهم نهاياتنا!

ليس أن تسأل عن كأس: ما هي، كأن تسأل عن شخصي ما: من هو، ولا عن لغز في هذا الكون، ولا عن خلقي أو حقيقة أو، أو، أو، حتى لا تنتهي الأشياء!

حسناً . . سأبدأ من المكان والوقت، الرحم التي تتوالد منها الأقدار والقصص والحكايات المؤلمة، وتلك الأخرى الجميلة، وتلك الجميلة والقيحة في آن!

أحكى عن الناس هنا .

عن طباعهم ، ثقافتهم ، كيف يتكلمون . . وكيف هي الحياة عندهم . وأعلم أن الأمر لا يبدو غائراً ، فالحديث عن الناس انصاحاً يشبه القفز من مكان عال ، والقفز ساحتشذ إما أن يكون عملاً بهلوانياً ، يلم المتفرجون كلهم أقواهم ليصفروا تعجباً وإعجاباً ، وإما أن يكون ارتقاء على الصغر . لن يكون وقتها من معير طيب ، ولا من عجب ولا إعجاب !

المسيريون طيرون ولا يمكنهم أن يكونوا سبتين هكذا دونما سبب ، دون أن يضطروهم أحد إلى جنون غضبهم ، حادون متوترون على الدوام ، لا يبرح عنهم قلقهم ولا ارتباكهم . على قدر من الأنفة والكبرياء ، يبدو أحياناً مدحاً للصحك ، ففلان ظل سنين عدداً يروح ويغدو بالقرب مما يريد ويشتبه ، فيمنع عينه حتى عن رؤيته ، إذ يشعر أن في هذا انتظافاً لمكانه وقيته !

القسم التي يسكنونها عيائهم بمزاجية الريح والأشباح والحريرة والسؤال ، فهم شيء من ربح ، وشيء من سؤال ، وشيء من حيرة ، وهم متحرقون كشمسها ، شفافون كضبابها ، قاسون كصفيحها ، مخيفون كغيمها . كانت الطبيعة إذا ثارت وحربدت ما بينهم بالأمطار والصواعق والمواصف تمازحوا في ما بينهم «نشهد أن مطر ربي صيري» !

الكلمة التي تسمى كبرياء أحدهم مبرر كافٍ عنده ليقترف القتل ، فابن هذا المكان يعيش ليزهر ، ويزهر فحسب ، وبأي شيء ، وهذا الذي يقتل للكلمة ، هو ذاته الذي تهزمه كلمة أخرى ، فيبكي ويعود مهتوك النفس والوجدان ! هنا لا تطيح رؤوسهم

السيوف ولا البنادق كما تطيح رؤوسهم وقلوبهم كلمة من حبيب خان أو تنكرا

إحساسهم تجاه العار إحساس عفيف جداً ، عفيف حد أن يقدم الواحد منهم على التخلص من حياته ، إذا ما لحق به عار ماء ، والعار هنا يطال أشياء ، لكثرتها لا تنتهي ، فمس الوجه ، مثلاً ، كارثة لا يمكن أن تمر هكذا دونما دم ، وإذا ما اشتبك اثنان هنا فإن كلاً منهما يفكر كيف يصل إلى وجه الآخر ليخلصه أو يترك به أثراً يكون علامة انتصاره عليه وهزمه للأبد ، فإذا ما فعل أحدهما ذلك فإنه لا يد من قتل ، إما أن يقتل المخلوش نفسه ، وإما أن يقتل ذاك الذي هزمه ، ما وجد إلى ذلك سبلاً .

ولا تنف الأحاديث عن هذه المراكات ، وعما وقع فيه فلان ، وعما زلت فيه قدم الآخر ، وأحدهم مشيت قصته في القرى الجنوبية كلها . قتل نفسه لأن بطنه غلبه ، فأخرج الريح وسمع الناس من حوله الصوت ، فما كان منه إلا أن استل خنجره وطمعن نفسه !

هذا يعني أنهم على نزوع قبلي ، فخاراتهم وحروبهم ومعاركهم لا نهاية لها ، وأبداً أسرة لا قتل بها في معاركنا فإنها أسرة وضيفة في أعراقهم ، وأبداً من يأخذ من أبناء القبيلة يعدونه متاً بالقبيلة كلها ، يستوجب تغريم خصومهم أو حربهم !

يعيون هنا ، وتبدأ كل حكايات الحب إما من نبع الماء ، وإما من المرعى وإما حتى من لقاء عفوي ما بين بيوت الطين ، أو خلف صخرة ضخم أو حائط أو بستان ، والحب عندهم شيء لا يتحدثون عنه إلا في شعرهم ، الذي يتبعون لأجله الأعراس ،

فيأتون ليتناشدوا حكاياتهم وآلامهم وفقدتهم وحرمانهم ممن يحبون، ولربما عرض بعضهم بمن يحولون بينه وبين فتاته، فما أن يفهم المقصود حتى يهب المعنيون إلى خارجهم أو يتادقهم!

إنهم على هذا القدر الضخم من العاطفة، هم المصدقون الصادقون، ولو أن أصحاب الدعوات، الذين لم ينجحوا، جاؤوا إلى هذه القمم فأعلنوا بها آراءهم وخلصاتهم لوجدوا رجالاً يذلون لهم الحياة هكذا عفو الخاطر، دونما مبالاة أو اكتراث لفتنة أو مبة!

المسيرون مولعون بالطرب، مفتونون بالفناء والرفق، وأي قرية من قراهم لا شاعر فيها فهي قرية بالسة ناقصة، لأن الشاعر في القبيلة كلها موضع التقدير والاحترام من الجميع، والمحتاذون في الزوجات والمناسبات أكثر الرجال شهرة وحضوراً، والناس هنا يحفظون القصائد الطويلة، لاسيما قصائد الحب والحرب!

فالمسيرون أيضاً مزروعون في حقل من الشيم والقيم فهم كل ما يمكن تخيله من الفروسية والنبل والرجولة! كرام، أجل هم كذلك، كرام حد الضحك، حد أن يعيش أحدهم طول حياته، بائساً محتاجاً لأنه أدمن الضيوف. أدمن هذه الولائم التي يعجبه أن يقف على رؤوس أضيافه، وهم على الطعام، ثم يستحلفهم بالله ألا يكفوا أيديهم عنه ونفوسهم تشتهي!

لهم قوانينهم التي لا يتنازلون عنها في حياتهم... يأتي على هرمها أن المال موجود في هذه الحياة ليصون الوجه، فكل ما يمكن أن يفندي به المرء هنا كبريائه وقيمته ومكانته من مال أو حتى بنين فإنه لا يتردد في أن يبلله لتبقى له صورته، التي يعجبه

أن يسمع كلام الناس عنها وهم يرددون «إن فلان دها آل فلان إلى وليمة لم تسمع بها هذه القرى ولا هذه الأودية!» وإن فلاناً أتى على كل ما يملك ليفندي به حمى نفسه وآله!، فإذا ما حل بالقرية ضيف أت من قرية أخرى جمع كل من في القرية ما يستطيعونه ليعفوا أهل البيت المضيف، هؤلاء يأتون بالسمن، وأولئك بالدقيق، وهكذا... فالضيف عندهم ليس أبداً ضيف بيت واحد، إنه ضيف المكان كله، ثم يتباهون ويتفاخرون بما يقدمونه له، حتى إذا عاد إلى أهله وناسه حدثهم عن كرم أهل هذه البقعة، وأنهم لا يجاريهم أحداً!

يحدث أكبر من هذا حين يتزوج أحد من قرية أخرى، فينجزر التمشطير، الذي يبقى حديث الناس لشهور فيما يأتي بعده من الزمن. تذيب الخراف، وتقدم الصحاف من الخبز والسمن والمسل، ويتبادلون الهدايا الثمينة، ويغالبون فاقتهم ليكون لكبرياتهم حظها ونصيبها من منافع الشراء في القرى المجاورة!

الناس هنا في الجنوب أكثر الناس ترابطاً وألفة، وأكثرهم خصاماً ونفرة، ففي جنوبنا إذا اختصموا فلا يلتقون حتى الموت، ومتى اختلفوا لا يفترقون حتى الموت. إنهم بلا توسط في المشاعر!

إذا رحبوا بأحد قالوا «مرحباً ألف، مرحباً مليون، مرحباً سول، مرحباً تراحيب المطر».

القفراء بحبون الأرقام الكبيرة والخيالات الضخمة، والجنوبيون يستقدمونها حين يحبرون عن فرحتهم بصحبي من بحبونه، فآلف مرحباً، ومرة مليون، ومرة مرحباً بعدد القفترات،

التي تكون السيل منها، ومرةً مرحباً كالترحيب بالمطر!
وهم يتكلمون بعضهم إلى بعض تسمعهم بشكل عفوي
يرددون:

«الله يطمني عنك»، أي: لتصني الطعنات دونك، ولتعملني
الله ببلائه لأفديك... ويقولون: «الله يجعلني أخذ ضيمك» وهي
كسابقتها، أي أن يمكثي الله لأفدي عنك ضيمك ووجعك!

ويقولون: «الله يجعلك ذا بدليتي في امقبر» والمسيرون
يستبدلون «أل» التعريف بـ«ام»، ويعنون بالعبارة السابقة أن: من
يحب يدهو الله أن تكون نهايته في هذه الحياة مختومة بحبيبه،
فمن ينزل امراً ما إلى قبره فيكون حتماً آخر من يلمسه، فينتهل
المحب بكل رقة أن يكون آخر من يلمسه ذلك الحبيب!

ويقولون: «بي عنك» هي في حبة عيني» وهي عبارة مشابهة
لعبارتي القداء السابقة، فأي شيء يصاب به الإنسان هنا يسمع من
محييه من يتودد إليه بأن يدهو أن تلم هذه النازلة به، وأن يقتديها
هنا ولو بعينه التي هي أغلى ما لديه!

ويقولون: «أنا فداك» وهي كسابقاتها من العبارات، ويقولون:
«ديت على وجهي» والديب عندهم هو المشي، وغاية التلطف ما
بين الناس هنا أن يرددوا كهذه العبارة، حين يسألون بعضهم شيئاً،
أو يكونون في سرٍ نقصصهم وحكاياتهم، فيسمنون لو تكون
صفحات وجوههم موطن أقدام من يحبون... إلخ

أنكون رقة كهذه هي حديث البسطاء والعموم بعضهم مع
بعض... على أنهم لا يتكلمون ذلك، بل إنها لتجري في دمائهم
وأحاديثهم، بشكل تلقائي، لا يتنبهون له، ويصيفهم بهذا القداء

الكبير، وهذه الرقة واللطافة العذبة، فيكونون ما بينهم على كل هذا
الوصال والإخلاص والقداء والمحبة!

والجنوبيون مغالون في حبهم، مغالون في غضبهم، فالذي
يحب إلى درجة أن يجعل من وجهه موطن قلمي من يحب يثور
حتى القتل والفتك، فمع كل تلك العبارات الرقيقة تراهم في
الوقت نفسه يصيون أشنع العبارات وأقساها، فيودعون من يمضي
بمثل «الله لا يرفه» اختطفته العقاريت. تلقاه المنايا!
وتسمعهم في غضبهم يقولون: «الله يكر سافك».

يا إلهي، ما أعنف هذه الدهوة، إنها الدعاء على معني بها أن
يحرم المشي، ويكر سافه!
ويقولون: «الله يقصم عودك»، وتعني سؤال الله أن يأتي على
جذع هذا المقصود بها... فيقصه!

ويقولون: «جعل لك مرض لا يبرأ» ويدعو بها من غضب
على أحد أن يثله الله بمرض لا يبرأ منه!

والجن من صميم الشتيمة هنا، فحياتهم في هذه الجبال ملأى
بالأساطير عن الجن وعن شرورهم وأفعالهم، فأسطورة «السعلاة»
تلك الجنية الأنثى، التي تخطف عتاة الرجال، وتلبس بهم
فيعودون مجانين ومعتوهين، وثمة أيضاً «السبعة» وهم سبعة من
الجن يدهون للانتقام ممن يعتدي، أو من هو مملوء بالفنل على
أحد فيدهونهم ليقتلوا له فيقولون: «سبعة شلوك»!

ويقولون: «صوا دمك»...
وهم الجن عموماً أو السبعة الذين يخصهم الناس هنا
بالتهمة!

ويقولون: «أخذوا عقلك» أي فلتخطف الجن عقل هذا الذي يحيط به شوم هذه الدعوة. . الخ
إذن فهكذا هي الطباع هنا. . إما رقيقة إلى درجة الفداء وتمنيه
للآخرين، وإما حادة وحسنة إلى درجة السحق والإهلاك. نفوس
كالأرض التي تسكنها!

ولأن الجنوبيين على هذا الحد من التوتر، والتضاد، والقلق،
والإقبال في الحب حدّ الفداء، والإدبار في البغض حدّ استدعاء
الطبيعة والجان على من بغضبهم، فإنه يهرع منهم اثنان للمغارات
الموحشة في قمة الجبل، إما هارباً بقلبه إلى هذه القمم يشتكي
للضباب والريح والبرد والأشباح، فيرجع من ثمة وقد ملأته
الطبيعة، شحته بالمزيد من شجته فيعود مرتجفاً: زملوني زملوني!
وأما هاربٌ من قلبه، يريد أن يكون جباراً في الأرض وما
يريد أن يكون من المصلحين!

ما وجدت أحداً عاش في تضاريسنا الوعرة واستطاع أن
ينخلص من طفولته. الطفل الذي يملأ البيت إشراقاً وعذوبة
وبرادة، هو الطفل ذاته الذي يوقف الجميع بصراخه وشناتمه
ونحيه، هكذا هم أهل هذه البقعة!

ومن بين هذه المراهبا المتضادة كلها ولد قاموس الناس،
وتكوّنت قلوبهم، فمن قبل مجيئهم إلى الحياة يسمعون، وهم ما
زالوا في أرحام أمهاتهم، «الله يطعمني هناك»، ويسمعون «الله
يقصم عودك»!

أعترف، نيابةً عنهم، بتطرفهم الشعوري، فلا أحد في هذا
العالم لا يمكنه أن يتحسّس تمايير قلوبهم منه، فمن أحبوه يدرك

تماماً أنهم أحبوه، لكنه لا يستطيع أن يعرف عن موقعه داخل هذا
الحب شيئاً إلى الأبد. . ومن لا يحبونه يعرف فوراً أنهم لا
يحبونه، ثم لا يستطيع أن يعرف عن موقعه بداخل هذا اللا حب
شيئاً إلى الأبد!

وبعد كيف ستكون حياتهم، حياة أناس يتأمر عليهم الفقر
والكبرياء، الحب والعار، الطيبة والنقمة، اللين والقسوة، الربح
والنسيب، الجبل والوادي، المعصاير والصفور، الكرامة والمغامرة،
تأمر عليهم كل الأضداد في اليوم والليلة مرات ومرات!

كلهم رعاة، وكلهم مزارعون، وكلهم ينون بيوتهم الطينية
بأيديهم، ومن لا يبشني بيته بيده فهو عندهم محلّ الامتihan
والانتقاص. يقولون: «الله يفضح فلان ما يضمّ الرجل ما دام
حي»، يعني: فليلعن الله الفضيحة بفلان الذي لا يستطيع أن
يكون رجلاً ما دام حياً!

يومهم كله يمشونه، إما في الحقل، وإما عند البئر وإما في
المرعى، ثم يعودون كل مغرب، جياحاً ظامئين، يمشون الأرخفة
بالسمن، ثم يدهنون وجوههم يبقاهم شكراً للنسمة، وما إن يرتاحوا
لبعض الوقت حتى يهب الفتيان منهم، على وجه الخصوص،
يطاردون الأهراس والمناسبات، يسهرون ويرقصون ويغنون حتى
ينتصف الليل، ثم يعودون يخلدون إلى النوم، ولا تكاد تفصح
الشمس عن ضوئها حتى يتقاذوا إلى حطولهم وأعمالهم من جديد!

الجنوب المسلم كان شافعي المذهب، مليئاً بأسر العلم،
ولعل الجمالية التي تسكن الجنوبيين لا يمكن أن تتناغم مع غير

قلت كلاماً مختصراً عن المكان الذي عشت فيه، وعن الناس الذين وبيت بينهم، وعن الرمس الذي سقي - والآن سألج في حديث طويل عن نفسي، ألا يحلر للمرء أحياناً أن يتحدث عن نفسه حتى لو لم يرق هذا بعض الناس!

هي رجة تشبه التدخين في مكان عام - هناك من تحرصه هذه الرائحة فيخرج سيجارته أيضاً ويبدأ في حرق الوقت بها، وهناك من يروح مع هذا المشهد في ذكريات لا حد لها، وثمة من يشتم هذا المدخن في نفسه واصفاً به أو أي شيء على أنه، وبعض كل الروائع الخاصة في هذا العالم!

شخصياً، لا ادخر لكسي لا أمتنع عن أية سيجارة، يقدمها لي صديق أحبه، وربما ليس لي أصدقاء، لكسي لا أمتنع عن صديق نفقته لي سيجارة ماء، وهنلي أن التدخين ظاهرة إنسانية طيبة، يمكن تبريرها من ملياري وجه، على اعتبار أن نصف من في هذا العالم يقرهونه بطرائق متعذرة، ولكل واحد منهم ميرره الذي ربما لا يكون لغيره!

إدني فلاني أحب الحديث عن نفسي الآن، على هذه الطريقة، طريقة التدخين في مكان عام، وهذا يعني أنني سأحب كل الذين

المدحوب الشامي، المتسامح مع العلون ويقف إليها، ولا يتشدد في مسائل المرأة، وموق هذا فقد كانت كتب السحر، لاسيما شمس المعارف والجمر، مما يشكل ثقافة الناس ومعرفتهم ويمدوهم بالمحارف والأساطير - بهم الجوبيون من الكتابة أنها السحر، فحين يقولون إن فلاناً يكتب، أي إنه يستطيع أن يسحر الآخرين - ولعل حكايات بعض المعارف بهذه الكتب في قرانا هي التي تسيطر على عقول الناس وأحاديثهم!

يقولون إن الحكيم فلاان يستطيع أن ينظر إلى الأبقار نظرة واحدة فقط، فتثور على صاحبها وتهرب منه لتمشي خلف هذا الساحر، وأن الساحر فلاان يجمد الطيور في السماء، فلا هي تطير ولا هي تسقط، وفي قريتنا كان الساحر الأكبر رجلاً يدعى «سوقة»، وكان الناس حين يحصبون على بعضهم يدعون على بعضهم به فيقول أحدهم للآخر «الله يهلك سوقة» - قيل أن أحد العلاحين من قريتنا كان يحرق حقله وعائده الثور فأخذ يهرسه بعصاه، ويقول «امش، الله يهلك سوقة»، فلم تعرب شمس ذلك اليوم إلا وقد احتطبه سوقة وديحه وقسم لصاحب الثور من لحم ثوره، ساغراً منه، قائلاً «كل من لحم ثورك الذي دعوتني إليه»!

بشبهوسي أو يتذكرون من خلالي شيئاً، وسأعمر لكل الذين
يلصقوني ملء صدورهم!

سؤال صغير / كبير: ترى أية حياة كنا نعيشها قبل ميلادنا!

المكرة القديمة تعجبني... وإن لم تكن حقيقة أو كانت هروشة
شرقية فإنها تروقني. نحن نحب أشياء بسيطة وواحدة فلتكن هذه
أحدها ألا يحب الصغار رمي أسنانهم باتجاه الشمس، ظناً منهم
أنها ستمسحهم في ما بعد أسناناً جميلة ومضينة، ثم يكبرون فيعرفون
كم هي هذه المكرة بسيطة ومضحكة. وكم هي أيضاً واحدة!

حسباً، لقد كنا في مكان ما وفي عالم ما، وهذه الحياة التي
نحن بها خطوة في وحلوة مجهولة!

من يتذكر شيئاً عن رحم أمه، حين كان الكون كل الكون
بالسبة إلى هذا الجبس هو هذا الكيس الصغير، وماذا لو كانت
السقطة بعد الموت نقلة إلى عالم جديد، وهل ستكون هذه
الأعمار، التي نعيشها شيئاً منسياً ومجهولاً حياً، كما هي أعمارنا
بأرحام أمهاتنا تبدو لنا شيئاً مجهولاً ومنسياً الآن!

أجسادنا تتكوّن من هذا الشيء المادي، عبر اتسجام اتسب،
وهذا يعني أن كل فرد من نتيجة سبب موجود قبله، إذن عالجاة /
الروح، التي تسري بهذه الأجساد نتيجة مماثلة لسبب موجود من
دي قبل، فمن أين جاءت هذه الحياة / الروح، وهل هي نتاج
اتسجام بين اثنين أيضاً؟

ولأنني هنا أتحدث عن نفسي، فسأخمن من أين جاءت
حياتي. أعتقد أنها كانت بداخل رجلٍ وسيم، عاش هنا على هذه

الحريطة ومات أثناء نومه، لا بد أنه كان شخصاً مهماً وحنناً كان
أعظم من في زمنه ذلك، بالطبع لقد كان عاشقاً مجنوناً، ولا بد أن
فتاته كانت جميلة وصبورة. أجزم أن هذه الحياة بي كانت لرجل
كثير الاحتجاج والتذمر والقلق. كان وحيداً ومهاجراً دائماً، ولا
إحبال أنه أدرك شيئاً واحداً! ولا أدري أي انطباع يمسني أن أقوله
عن رجل كهذا، لكنني أؤمن أنني لو التقيته فسأشتمه وأحبه،
سأعمره وألعمه، سأقول له شعراً كثيراً، وأشد شعر رأسه، لا بد أنه
كان ذا شعرٍ طويل!

هل عندك شك أنك أغلى وأحلى لمرأٍ في الدنيا...

أما أنا فلدي شكوك كثيرة جداً، لا سيما تجاه الأوراق والأثير
وما لا يرى. هل عندك شك، أهدبة شرقية أحبها ولا أحبها،
كانت الراححة في شاشة التماز في إحدى العضايات، وكانت أمي
إلى جواردي، جالسين باصبة هذه العرفة المحصورة، وعلى العود
فتشت من «الريسمات» وصوته نحو اللغار، وأحدث أرفع الصوت
ولردد بعض الكلام مع العراقي الأنيق، كاظم الساهر...

أترسم مع الموسيقى التي لا أفهم من تركيبها الكثير، بالرغم
من أنني درست ثمان حصص عند صديقي المصري، أتعلّم
المقامات الموسيقية، لكنني لم أكن طالباً ملتزماً كما يجب، ولنا
فقد حبلق في مرة وقال: «أنت تستطيع أن تفعل كل شيء إلا أن
تكون طالباً». هذا ما لا تجبده يا راهي! صديقي المصري

مات، ولروحه المهد أن أتعلّم الموسيقى على طريقته يوماً ما!

كنت أتابع كاظم...

كاظم، هذا الرجل الذي تحبه كل النساء ونكرهه كل النساء
 البعض في هذه الأرض يشبه الأيام، وكاظم يشبه يوم
 الخميس، يوم الأهراس والوفيات
 أنا أحب الاثنين والأربعاء أكثر، إنهما يومان لا تفاد بالعلاقات
 والخلد والموسيقى والبحور والحرية!

حين بدأت ترقص، حافية القدمين، وجرتني أمي، التي
 تعرضت كغيرها لهذا الاعتساف الذي يظلمه هداية وحيراء، والدتي
 التي بدأت على حذاءات الرعاة والدعوى وأصوات الطيور والأغصان
 والطبيعة في جبالها في الحبوب نابت الآن تنوي عصفها إذا سمعت
 الموسيقى وراحت الرقص..

مهرني أمي «حبرها عني، الله لا يستحي منها، ترقص قدام
 الرجال» كتمت الصوت تماماً، ثم التفت إلى أمي وقلت «كنتم
 ترقصون معاً، رجلاً وساء يا أمي» ثم إنهم يسمون «هل عندك
 شئ أنت أعلى وأحلى امرأة في الدنيا؟ هل عندك شئ، يا أمي،
 أنت أحلام على الأقل في شبابه؟»، وكأي أنثى، لا يحترق
 الرمز روحها، وإن عبت بسلامتها طوال سيمون سنة، تسكت
 والدتي!

رأيت في عينيها حسرة على مشاهد تطوف بذاكرتها. حتماً
 إنها مشاهد لا يعرفها إلا هذا الجيلين المحلي. بالتجديد، جيبها،
 ويعفوية بالغة زهرت أمي، كأنما هي تشتم الدهر، وتريد أن تصرخ
 أنها كانت أحلى امرأة في الدنيا!

الشيخة مهمة جداً، لماذا لو أن الله لم يخلق الشتائم..
 الكثير سيموتون كمداء، هنا مؤكداً

تأملت ملامح والدتي، وقتشت معها من كل الحكايات
 القديمة، التي تدور في محيطها الآن، فتحسست في شرونها
 أقاصيص وأعيان، ولاحت على حذفتها ثيابها العسيرة الأنيقة،
 ذلك الثوب الأسود، ذو الخطوط المدقة، يتعكس ويأخذ وجهها
 وأطرافها، أكاد أنظر إليها، فتأني في العشر، حافية القدمين في
 زواج إحدى بنات قريتنا الصغيرة!

الآن، يا أماء، تليسين الأقمشة الجديدة، وتلويين الشيب
 الذي يعلو رأسك بالحاء، والسمون سنة تتمدد في تفاصيلك،
 ونفمك التي لا يهمها غيري تبصق على كل شيء، ألا تنأى لهدى
 السبر، يا أمي، ما كان ضررها لو بقيت أعلى امرأة في الدنيا
 حين كانوا كلهم يتحدثون أن فلاناً من أبناء القرية سيخرجك،
 وكلهم يقصون القصص عن كمالك، كيف ستمنعينه كله في ليلة
 واحدة لهذا الشاب القوي الخفيف، أبي!

يحدث أن يحب المرأة الأشياء أكثر من أولئك الذين
 يملكونها، ويحدث أن يمتش أحداً عن المكان الذي استقبله في
 هذه الدنيا، فلا يجد سوى كومة من الجدران الحجرية المتهتكة!

تقول أمي أنني ولدت قبيل العصر بلحظات. كانت ليلة
 الاثنين، وتروي أمي أنها كانت ليلة ماطرة وعصية جداً، فقبل
 غروب الشمس هربت الأغنام، التي كانت كل ما يملكه والدي،
 وضياها يمي ضياح ماله كله. هرع والدي وإخواني الكبار وعر
 من رجال القرية، يتناثرون في شحاب هذه الجبال، يبحثون عن
 الأغنام تحت هذا المطر، والتي لا بد أنها اختبأت في مكان ما
 هاربة من السماء، وفي منتصف تلك الليلة يعود والدي والرجال

معه بعد أن عثروا عليها إدد فلا بد أن يقدم لهم والذي هشاة، هو من أعراف الناس ها، ومن قوائم النحلة والكرم، وهكذا فإن على أمي وأختي الكبرى أن يقوموا بإعداد هذا العشاء، ونحن أمي الطلق وهي تقف على السور، فتصرخ وتصرخ، وعلى المور تستدعي القابلة، وتسهر مع والدتي تساعدها على إخراجي من أحشائها طوال الليل، وامتنعت من الخروج حتى تحسنت أحر لحظات هذه الليلة..

ولدت فجر يوم الاثنين ٦ مارس ١٩٧٣ وصرخ جميع الحاضرين، يا لهذا الطفل الذي تملأ مقدمة رأسه خرة بيضاء كانت خصلة شعر بيضاء بالناصبة وبقيّة شعر الرأس سوداء، وعلى المور تهادسوا: «لا بد أن هذه المرأة رأت جيّاً أثناء الحمل شيب الصغار لا يأتي إلا من الخوف»، «لقد أفرعها ضوء البرق في أيامنا الماطرة!»

الرضع لا يمشون لعائنا البليدة هذه، فلا يمشهم فرحنا، ولا استنكارنا، ولا سخطنا، ولا احتجاجنا، ولا فاك، ولا أي شيء مما يستقبلهم به ولا أفري ما إذا كنت أفهم من ملامحهم حينئذ أنهم مشدوهون بطول الرعب، هذا الذي جاء في هذه البليدة العصبية ويشعر أيضا، ولعلّ بعضهم شتمني لشدة ما عانت والدتي يومئذ ذلك كله، وربما وصفتني بأوصاف لا يجيد حللتها غير سكان هذه القرى، ربما قالوا «ستوه عبد السكون» والسكون عدلهم نسي الجس حقا أذكر أن أبي كان إذا غضب مني، فإنه لا يدعوني إلا بـ «أبا عبد السكون!».

نروي والدتي أنه ما كادت تلامس هامتي الأرض حتى تبتس

المجر، وأحد يجري أحي الأكبر في القرية يفتش عن الحكيم، الذي يطوف بالبيوت التي تحتل بمقدم طفل جديد، يحيرهم كيف يعش هذا الآتي، وأي مصير ينتظره وربما أشار عليهم باسمه جاء هذا العريب الأطوار، وعود رؤيته ليأي مسح على شعري الأبيض وتشم، ثم أحلني إليه، وهو لا يأخذ طفلاً إليه، كما يقولون عنه، ثم قال: قسموه زاهي...».

زاهي... أحب اسمي... ولا أجه. أجه لأنه فجر تمردي كله على من أراد لي النعية، ولأنه لازمني كل هذه السنين حتى ألقته، وأجه لأنه شمة لا يفهمها غيري، وربما لا أفهمها حتى أنا، ولا أجه لأنه لم يكن لي فيه من قرار ولا اختيار ما أصعب أن يعقد المراء حياراته، ولو كان لي من الأمر شيء لسميت الأطفال القادمين للحياة كلهم باسم واحد، وحين يبلغ أحدهم السابعة يختار هو اسمه الذي يريده... ألا يكفيه من هت هذه الفوضى أن جاء خوفا أن يقال له: «أجي! بك!».

أفكر دوماً ماذا لو كان لي أن أختار اسمي فعادا سيكون! حقا لا أفري، فربما سميت نفسي بـ «أنا». أو لعلي اسمي بـ «وطني» أو زاهي... أخيراً ها هو اسمي، وها أنا أنا!

هت الستين الأوليين من حمري في القرية، في بيتنا الطيبي الصغير جداً كنت صابع الذكور، وناسح الأولاد، وفي الأسرة كلها كنت الحادي عشر، وهذه أرقام تعجبي، على الأقل على طريقة التعجب وادعاءات السحرة والمزافين، وقبل هذا وفلك وأنا أحب موقعي، أحبي وأحب كل ما أمثله ويمثلي، أحب كل ما هو خاص بي، ولا يشاركني فيه أحداً

هذه هي الفردانية، التي تولد في نفس الإنسان من أول لحظة يصرح باكياً حين يشدو اللحاف الذي يلقوه به لأنه له، جرة منه، من حياته، من وجدانه، من كلمته الكلمة عبد الإنسان مرآة للحياة

تكرر أمي دوماً أنني كنت طفلاً عادياً كثير الصمت!

وهنا في الجنوب يحافون من الطعن الذي لا يتكلم، يحضنون أن سرّاً كبيراً ينفذ وراءه، ويضطره إلى الصمت، ويدهون دائماً كلما استخرجهم صمته، إما على سبيل التندر، وإما على سبيل الدعاء بحق، فيقولون «الله يعطينا خير» ويكفيها سرّاً!

وبعد مضي العاصي ترك أهلي القرية لينتقلوا إلى المدينة، كغيرهم ممن فتحت لهم أبواب الرق، واستطاعوا أن يشتوا بيوتاً

في المدينة، على أن أبداً التي لن تتنازل عن قرويتها مهما بُعِثت الأوراق النقدية في شوارعها، وأكثر ما يمكن أن يلحوه بها أنها حافلة متوسطة ما بين القرى والمدن، فلا هي ريف كامل ولا هي مدينة كاملة. قريتنا ومدنتها لم تكن إحداهما تبعد عن الأخرى أكثر من ثلاثة كيلومترات، وهكذا صرنا سكنى بيتاً جديداً، وبقي ساكني القرية ينظرون إلينا نظرتهم إلى الأثرياء من أبناء المدن

وعندما في الجنوب يسمون القرية بالوطن، ولا يعنون بهذا الدولة أو الإقليم الأكبر وإنما يحسون به قراهم الصغيرة يقولون «كنت في الوطن، أتيت من الوطن، داهبٌ إلى الوطن، التقيت أهل الوطن إلح»

بيتٌ من اللبسات الأسمنتية، أبيض اللون، من أربع غرف ومطبخ وحمام، ما زال متصبياً حتى وقت كتابتي هذه هو شعبي جداً بمعايير وقتنا هذا، بادحٌ في الأذعة والشراء، بمعايير ذلك الوقت أي قبل ثمان وعشرين سنة، وكان بيت هذا ضمن بضعة بيوت، فقد كان مجموع سكان فاك الحي لا يتجاوز الست أسر، لكنها جميعاً كانت تمثل العائلة الواحدة، فقد كان يسهم من التواصل والحب والألفة ما يجعل بيوتهم مفتوحة لبعضها على بعض طوال الوقت.

والذي أول من استطاع شراء التلفزيون، ذي اللون الأسود والأبيض، وكان دمول الحي كنه به يشبه دمول الناس حين يسمعون الحكايات وغرافاتهم، وكأنما هو آتٍ من عالم الميب.

يحذثهم عن الحيوانات التي لم يروها

مظر الرجال والنساء كل ليلة، وهم يجلسون متحلفين

يتوسطهم هذا التلعار، وهم على درجة من الإنصات والانبهار تجعل الجميع يتسابقون كل معرب بعد انتهائهم من أعمالهم إلى مسرعا لمشاهدوا هذا الجهاز السحري كانوا يأكلون الحبر المعجون بالسم والسكر، ويشربون الشاي الأحمر، مشدوين بالمسلة البدوية «وضحي وين عجلا»، ويستمعون مع أغنيات سميرة توفيق، وأم كنشوم وفابرة أحمد، وعبدالحليم حافظ، وسعدون جابر وعبرور وغيرهم من حياتنا أيامها

في تلك الفترة، أي أواخر السبعينات، تدبني أخي الأكبر تدينا حاداً جداً متأثراً بالمتطرفين، الواقعين من بلدان مجاورة، وكذلك تأثر بعمله في المدارس القرآنية مع مجموعة من المماليك، الذين استطاعوا أن يضمنوا إليهم فحمل فكرهم، ونحس لهم كان أخي محرم كل ما يدور بالمسرح، فنشبت الماجررات، لاسيما بينه وبين الذين يلوه من إخواني، الذين كانوا يتحربون ضد ومن الطرائف التي ما زالت تتحرك في ذاكرة أسرتي يوم كانوا يتعاقبون إلى «المطور» أي مولد الكهرباء، فيقومون بتشغيله كي يتابعوا التلفزيون فيعطي أخي الأكبر، ويخرج ليظمن هذا المحرم، ثم يعودون فيشعلونه ليعود فيظمنه، ويمضي الليل كله على هذه الحال، وكثيراً ما تصل الأمور إلى درجة الاشتباك بالأيدي والمشجرات المبيدة، التي توقظ أبي أبي الذي يقرر دائماً أن يضرب الجميع، فوالدي الجبلي لا يحدد من يعتدي عليه إذا غضب!

كانت تلك الفترة، التي تدبني بها أخي الأكبر، نهاية للتجمع

الذي قام به المتطرف الشهير بالجزيرة العربية، جهيمان وأتباعه كانوا يدورون بالناس يعطونهم ويأخذون بأيديهم، محتجين على الفساد الأخلاقي برأيهم، الذي تبدت مظاهره في أغنيات التلفزيون والساء الظاهرات به وغير ذلك، وانتهت باحتلالهم الحرم المكي كان عددهم من ذلك الثورة على النظام السعودي، الذي يعتقدون فساد، وأن عليهم تطهير البلاد من هذه الحكومة الكافرة برعهم، إلا أن الدولة استطاعت إخمادهم والمثك بهم داخل الحرم، والفيض على جهيمان وعدد من أتباعه وأعدائهم إثر ذلك!

كاد أخي الأكبر، الذي استعدته أجهزة الدولة حينئذ، أن يحبس حياته إذ كان متهماً باشتراكه إليهم، لكنه دعا فلم يكن هناك من الدلائل ما يؤكد تورطه في أية أعمال تديني، حدث حد كله ابتداء من أواخر السبعينات حتى القضاء عليهم سنة ١٩٧٩م لا يمكن لأهلي أن يسوا يوم طرق أحد رجال المباحث الباب، واستدعى أخي ليذهب معه. تقول أبي أبي من فتح الباب، وأنه على الأمور طلب أخي كانت ليلة اليم، فقد كان الجميع على ما يشبه اليقين أنهم لن يروا ولدهم مرة أخرى! من حياتنا أيامها..

بيشنا الشعبي الصغير فاك شهد الكثير من القصص والحكايات، أكبرها خلوداً، في فكرة الأسرة، حادثة احتراقه، احتراق البيت، الذي مرق والدي نفسه لبيبه، بسبب خطأ صغير جداً هكذا هم الجوريون يعملون ما لا يعمل ولا يطيقه غيرهم، ثم يخسرون كل ما ملوه بأخطاء لا يرتكبها لسذاجتها غيرهم! كان من المقرر يومئذ أن يستضيف منزلاً فاك بعض رجال

القرية، من المقربين إلى أبي، وبالعمل فقد استعر كل من بالمرل لإعداد اللازم، ولأن أحد إخواني لا يعرف ما معنى أبوية عمر، فقد قرّبها من الموقف، بل ألصقها به، وبعد وقت، وبعمل الحرارة التي تعرضت لها الأبوية، كان طبيعياً أن تصجر وتحرق البيت كله. احترق البيت، وبجا كل من فيه، فقد كانوا جميعاً لحسن الحظ مع والدتي بالفناء يساعدونها على تنظيف الممرش وغسلها وتجميعها، وهكذا وفي لحظة تحول البيت إلى فحمة، وحسرت الأسرة كل ما شئت لتحصيله!

كان عمري حينئذ لا يتجاوز الخمس سنين، لكسي لأذكر ذمعات أبي الذي لا يبكي أبداً، كان واقعاً يظفر إلى البيت المتصحم، الذي يتصاعد كمناد مع الدخان منه. كان يظفر إليه وهو يلثم صغاره وروجه إليه وكأنما هو يشبع كل حياته، التي ماتت قسراً في لحظة. لقد كانت كارثة حقيقية، تعني أن علي والدي أن يعود إلى الصغر الذي بدأ منه، وبالعمل فقد أخرج إخواني ما سلم من الأمتعة، وما أمكن حمله ليعود إلى بيتنا في القرية. وفي هذه اللحظة تملأ الأصوات ما بين والدي وجاراً ناصر بن محمد كان جاراً يحلف بالطلاق ألا يعود إلى القرية، وأن ستغل جميعاً إلى الحياة معه ومع أسرته في بيتهم في الحي نفسه حتى يستصلح البيت من جديد، وأبي بدافع الكبرياء يقسم ألا ينام هذه الليلة إلا في بيت بالقرية!

يجتمع الجيران كلهم على والدي، يتناقضونه ويحملون مناهه وأطفاله كي يدخلوا كل شيء إلى بيت جارنا، ويقاوضونه على الحب الذي يبشرونهم، أنه لو لم يستجيب لما يدهونه إليه فإنه

سيحسهم للأبد، وللحظة احترق البيت، وفي لحظة أخرى صرنا ضيقاً على جارنا!

استغرق ترميم البيت شهرين، شارك كل الجيران بالحي في هذا العمل، وهذا ما يمكن أن يعتبره والدي أشجع من أن يموت كل أطفاله وهو ينظر إليهم، شيع عبد المصيري أن يكون عاجزاً، أن يذلل القدر فيحتاج إلى الآخرين، أن تصطره الحياه إلى أن يحس استقلاله!

المصيري... لا تشبه اللقمة التي يأكلها من غير كفة، بل يجرع يأكلها أكثر وأكثر، والمصيري لا يذقه اللعاب الذي ليس له، بل يبرد بالتحامه أكثر وأكثر، والمصيري لا ينام في غير فرائسه، بل يستبد به الأرق أكثر وأكثر، والمصيري تعطبه حاجته إلى الآخرين! هكذا كان أبي وكانت أسرته تنألم، لكنها تحملت كل شيء، حتى لا يبعد الجيران تهديدهم بحق الحب، الذي لا يمكن للمصيري أن يحس بهيره، وأن يكون له حياة طعمها عنده بدوره!

أول ما يبيع الطفل في حير العائمة من عمره عليه أن يتعلم
السرول إلى الحقل، والمشاركة في الحصاد، وحفظ أناشيد الررع
والحرث... «أربعة شلوا الجميل، والجميل ما شلهم»، «يا شمس يا
غاربة روعي لي قليل» إلخ، وعلى الطفل هنا أن يرحى العم
من سنه الأولى، وعليه أيضاً أن يتعلم حلبها، والدعة التي يأمرها
ويسهرها والأصوات التي يهرجها بها مع شروق الشمس،
والأصوات التي يجدها بها مع غروبها..

حدايات المسيرين عذبة جداً، لا يروحون إلى شيء إلا وهي
معهم، وهم يبنرون مرارهم، وهم يرحون أصابعهم، حتى وهم
يتألمون من مرضي أو حزن، أو يطربون لفرح أو حب!

يتوجب علي أن أقوم كل صباح لأصلي العجر مع والدي،
ولا تكاد أمي تلف لي وغيب خبز في محرم صغير حتى يقترب
الشروق لأخرج إلى الأعمام، أفتح لها باب الحظيرة وأنجه بها إلى
الحبل، وهناك أبقى ولها حتى الظهيرة، حتى يجشي أحد إخوتي
بالعداء، وأبقى طوال النهار هناك مع الأعمام في الحبل، أطاردها
وأهرها ألا تروح إلى حقول أحد، وسيكون بانتظاري عقاب شديد
ما لو حدث قبل أن تعمر الشمس ويدنو الغروب..

رهي الأعمام مسؤولية الإخوة الثلاثة الصغار، ولكل واحد
مهم يومه الذي عليه أن يلتزم تأديته كما يجب، وفي اليومين
الذين لا يذهب فيهما للرهي عليه أن يشارك إخوته الكبار في سقي
الأشجار، والذهاب إلى المررعة أو الأبقار، أو الوقوف لمساعدة
والدي أو والدتي على أي عمل من الأعمال هكذا لا يمكن أن
يمر يوم دون عمل كان والدي يهضب عضباً شديداً، ربما يهض
إلى الصرب، إذا ما بقي أحداً نائماً في الصباح، أو خرج للعمل
أو للفاء الناس وهو لا يلبس الحزام على خصره، فكيف لو تأخر
أحدنا عن أداء واجبه، أو قال له والدي شيئاً ولم يمثل له!

من أمثالنا في حير «لا تشفى مع من شفى..» يلتفك ما لقي
ووالدي، الذي عاش الشقاء بكل ألوانه، يريد أن يحمي أسرته مما
لعبه، فيصب عليهم كل هذه الأوامر والنواهي وكل هذه القسوة
إنه يكرر علينا شفاط بطريق أخرى ويدافع آخر!

في السادسة من عمري، وقبل ولوجي المدرسة بشهور،
كانت بانتظاري قصة، في منتهى الطرافة والألم، سأحكيها كما
وقعت

في قرانا لا يُحس أحد إلا بعد أن يبلغ السن الذي يمي فيه ما
يصله أهله به، ليشر بفحة كونه رجلاً، وما عليه أن يكونه من
المحولة والبطولة، فهو كلما تحفل الأكم كان هذا مؤدماً بأن رجلاً
عظيماً يداعله!

خرجت صباحاً مع الأعمام كالعادة، دون أن أعلم أي مصير
يتظرني، وقبل الظهر يأتي أخي ليقول إن «والدي يريدك وإن
عليك أن تذهب إليه الآن فهو بانتظارك»، وبقي أخي مع الأعمام

وانطلقت أنا عائداً إلى البيت، استجابة لما يريد أبي، وعود
وصولي التفاني أكبر إخواتي قائلاً: «استعد للبحثان...». فرحت
وخفت، فرحت لما سمعته من هذا البحثان، وكيف أتى سأصير
بطلاً ورجلاً كاملاً هذا اليوم، وخفت لما سمعته من الألم،
وللحق فقد كان حلمي أكبر من فرحتي، فلدت بإحدى العرف
واختفيت في رطوبة منها!

لم يمض الكثير من الوقت إلا ومرتفع صوت والذي ينادي
باسمي بندا عالياً، ويدخل أخي الغرفة ويخرجني منها، يأتي بي
إلى والدي، يشدني من يدي قائلاً: «لا تخف...» أختاف وأنت
ستصير اليوم رجلاً كبيراً!!

أذكر كيف مددوني على الأرض وخلعوا سروالي، وبدأ أبي
بحشي، الذي لم أحتمل ألمه، فصرخت بكل ما بي من قدرة،
وساعة انتهى أبي من لف الشاش عليّ أسرع إلى الدقية وصوبها
إلى الأعلى وأخذ يطلق النار، الطلقة نلو الأخرى، معلماً احتضاره
بي!

لا أنسى كيف كانت نساء القرية والأقارب والمحبي يأتين
لرأباني، ويضمسن طويلاً، ويصغر بعض المال في يدي أو في
ملايبي أو تحت فراشي، ويداعبي أصرت رجلاً وهذا تتزوج
إحدانا!!

شأن آخر .

انتهى والذي من بناء بيت جديد، مجاور لبيتنا الشعبي هذا،
وعلى الفور انتقلنا فرحين به، كانت تلك الفترة بداية لثراء والدي،

وكان بيتنا الجديد هذا بالنسبة إلى جيراننا وأفراد قريت يبدو ميلاً
فاخرة، وفي هذا البيت الجديد تقاسم إخواني العرف، وعليّ أنا أن
أكون مع الأخوين اللذين يكراني في العرفة معها لم يكونا
يحببان استنباههما من وجودي، الذي يأتي عني حساب
حضورهينهما لقد كنت وحيداً وحيداً، لأنني وحدي من كان
خارج الشائبة المذكورة ما بين البين والبيات، فإخواني الذكور
اتناب اتناب اتناب، وأنا السابغ وحدي، ثم البيات اتناب أكبر مي
واتناب أصغر مي، لكن وجودهم في البيت دائماً جعلني أقرب
إليه، وأكثر احتكاكاً بهم من الذكور، وكان والدي ووالدتي
يشتماني لمجالستي البنات، لكن لم يكن هناك من خيلوا، فقد كان
كل اثنين من الذكور يرمضان وجودي معهما، حتى لا أطلع عني
أسرارهما، وأنني صممتُ للقدر الذي جعل طموتني بين البيات،
وصبني بهم ويرتفعن وعظمهن وحبهن للجمال!

وحفني هذه تحمل حكايا في منتهي الألم، وحتى هذه
اللحظة أتذكرها وأشعر بنقمة على الرمن كله، مرة قرر والدي أن
يذهب لزيارة الحرم المكي للعمرة، وأراد أن يكون بصحبته اتناب
فقط من أساته، كان أخوي اللذين يكراني مباشرة، فلا أنسى
يومها توسلاتي ويكاثي وأمي وصراحي لبأخدي معهما، لقد كان
حلماً ضخماً أن أسافر مع والدي وإخواني كل هذه المسافة،
وحلماً ضخماً أن أرى الكعبة لكن دموعي وكل ما فعلته، وكل
توسلات أمي، ثم يكن ذلك شافعاً لي عند أبي ليفيل اصطحابي،
محتجاً بأنني ما دلت صغيراً وأنه يحشى أن أصيب في رحام الناس
في الحرم صعدت إلى سطح البيت وأخذت أتابع السيارة، التي

ثقل أبي وأخوتي حتى عابت، وأنا أبكي بكاء شديداً مرلت وأغلقت علي باب إحدى الغرف، وبقيت أنوح وأشم أبي وأخوتي وسمي الصغيرة كان أخي بطرق الباب بشدة حتى فتحت له، دخل علي وعبرني لأنني براهه أبكي دلالاً، وأنني لست رجلاً لهذا!

ليس الخوف شراً كاملاً، لكنه مهما يكن نافعاً فيظل كبيراً وقبيحاً، وسيلفح بالإنسان إلى مرافق لا نهاية لها، بداية يصير الأمن حائلاً، ثم ينتهي الحائف فأتكأ وهكذا، وأول ما يمتك الحائف منك بنفسه!

كان مما يرعبي ويضحك أهلي اليوم، أحل النوم، فالطفل الذي يحاف مما حوله، حتى يبول كل ليلة في فراشه، يهرب من النوم ويصارع ليالي طويلة، حتى لا ينظر إليه الآخرون بالسخرية والانقاص!

يوماً بكيت بكاء طويلاً قبل النوم، فأنا أحتاج إلى النوم كما أحتاج إلى الشمس، وأخاف أن أسلم له فأبول، وحيث لم أكون سوى مكتبة شهيد لإخواني ليومين أو ثلاثة، مع الضرب الذي ينتظري، وغير الشتائم والكلمات الجارحة، وفي الوقت الذي أصارع النوم والألم والبكاء، وليتند كان أخوي الأكبران يضحكان مما أنا فيه من حال. بعد مرور وقت من الليل، لم يبق سوى مستيقظاً، ثم عالبي اليوم فعلي، وبالطبع وبعد كل هذا السهر استبظت على شائيم أبي، وقرصها لمعدي بشدة، وعلى ضحكات إخواني فخرجت من البيت وجلست هناك خلف السور أبكي!

جاء ذلك اليوم خالي لزيارتنا، فاشتكت إليه أمي ما تعانيه من إفسادي لبطانيات النوم باستمرار، واتفقت معه على أن يحل هو المسألة، فاستدعاني وأجلسني أمامه، ثم أخرج من جيبه سكيناً حادة وقال لي

- اخلع سروالك..

- لماذا؟

- سأخلصك من المشكلة وسأقطع هذا الذي تبول منه وستعيش بدونك.

- لن تفعل هذا.

- بل سأفعل، وسيقول الناس كلهم حينئذ إن ولد آل فلان ليس رجلاً!

تراجعت للوراء ثم شتمت خالي، بل لعت بأهلي صوتي وهريت، وكنت أسبح أمجادهم بالضحك، وتمثيلهم أن أحدهم سيلحق بي وأنه سيحديني إلى خالي ليخذي وعي..

تضاعفت هذه المشكلة ثم ثلاثت بمرور الوقت، ولم يبق منها سوى نثر إخواني علي إذا ما فتشوا عن الضحك، وأخذوا يتذكر ما مضى من ذكريات عليهم وعلي بالذات! من هذه الذكريات..

كنت أحب المسلسل الكرتوني «جزيرة الكرم» وكنت أتابعه كل يوم مدتهشة، وأتأمل هذه السمينة، وهذا البحر، الذي لم أراه من قبل فأهملو المرتفعات بممرور أمواتهم حين يرون البحر،

يتعاملون معه كما يعاملون السماء الزرقاء، ويقولون إن هذا البحر
سماة قديمة سالت يوماً، وتركت مكانها وحلت بالأرض!

باسمل حيناً بئر عميقة جداً، كان يقف الحي كل الحي منها
ورعه، وكانت تراودني وأخي، الذي يكرمني، فكرة السؤل إلى
هذه البئر. . ودأت يوم فعلناها، ومرت إلى البئر واقتربنا من حافة
الماء، وكنا نرمي قطع الملبس الصغيرة، ونحببها فوارب تمخر هذا
البحر الكبير، الذي يرميه بالحجارة متحرك ليشكل أمواجاً تبعث
بقطع الملبس الصغيرة إحدى القطع تبدو قرية مي، فعددت يدي
لسحبها، فدارت وسقطت في الماء، دون أن أكون يوماً ما قد
تعلمت السباحة، أو حتى نزلت إلى حوض ماء صغير. بقيت
أخبط بيدي داخل الماء، فأصعد حباً وأعط حباً، وكان أخي
يصيح غير شاعر ويسادي بهستيرياً وعصاخ، ويمد يده ويقول
«اطلع، اطلع، اطلع» وفي واحدة من محاولاتي لتحريك يدي
داخل الماء أمسك أخي بيدي وأخذ يشدني. كان يشد إحدى يدي
بيده، ويشد شعر رأسي بالأخرى، حتى أخرجني، وعدنا إلى
البيت. كنت مبللاً وبكياً وخائفاً!

الموت العجم والميل والشعب لم تخلق لأول وهلة بأشكالها
هذه، ولا بخرائزها هذه، حتماً لقد حملت صبعة الإطلس الذي
تكونت بداحله، كما هو الإنسان، لا يستطيع أن يكون نتيجة أخرى
غير مجموع ما عاشه، ومز به من أول يوم بحياته حتى آخر لحظته
من لحظاتها!

أسرتي التي تكونت من أبي لم يبق من عائلته سوى اثنين، هو
وعنته أخت والده، وأمي فانة القرية وحسابها، وإخواني الذين
لا يشبه أحد منهم الآخر، رغم ما بينهم من الشائيات التي لم
تسلمني فقد كنت كل الأوقات رهين الشعور بالوحدة العالمة،
وموق هذا كنت أصغر الذكور، وهذا يعني الكثير من التجامل في
عرف جنونا!

أبي .

حين يتحدث أحد ما عن والده فإنه يروقه أن يجعل منه بطلاً
عظيماً، وهذا كل الآباء جاءوا وكنهم بكوا، وكلهم باصلوا،
وكلهم جاز عليهم الوقت، وكلهم لم ير الرمان منهم جميع
الآباء لهم حكايات تبدو في أعين صغارهم أساطير كبرى، كل هذا
وأكثر ما يمكن أن يقوله أي امرئ عن والده، وأنا منهم أحب أن

أتحدث عن أبي على سبيل أنه بطل، وأنه كان من الأولى أن يكون عنواناً مهماً في أي كتاب تاريخ ستدرسه الأجيال في ما بعد، وللحق فإن ما يقوله الناس في غير عن والذي لا يقل عما أذكر شيئاً منه هنا!

أقول أيضاً يمكن أن يكون هناك من يروقه أن يشتم والده، وأن يراه قبيحاً وجاملاً ومجرماً، ولا بأس فالآباء ليسوا آلهة، ولا يمكن أن يكونوا أكثر من بشر، باستطاعتهم، كغيرهم، أن يكونوا ظالمين وبشمين!

سأقول إن أبي لم يكن عادياً ما معنى أن لا يكون شخصاً ما عادياً؟

هذا يعني عدي أنه الذي لا يشبه أحداً، لا يشبه الآخرين في غيره، ولا في شره، فهو سبج مستقل بذاته وإن تقاطع في أشياء صغيرة يمكن أن يتقاطع فيها أي اثنين..

المهاتما كانت له قدمان، وجاري الذي لا يعرف أن في الوجود مخلوقاً نادراً مثل بابلو كوريليو له قدمان أيضاً!

أبي الذي لا يشبه أحداً لم يعرف أباه، بل لم يكن له في هذه المجرة صلة قرابة بأحد سوى حمته، أخت والده، باحتصار كان والذي «مقطوعاً من شجرة»، فحياته إذن ستكون مريجاً من الينم والعقر والتشرد والضيق

آبازما في هذه الجبال قسوة، أجل، لكنهم يتجهجون غالباً في حمايتنا فهم يتناولون الحياة على أنها حرب لا مد فيها من جمجمة ضخمة، ومتنصر أضخم، إنهم يحتفدون أن البطولة أن يموت المرء وهو ينزف دماً، والجبناء فقط هم الذين يموتون داخل بيوتهم!

هو أبي.. ما زلنا نتحدث طويلاً ولشهور عن ذلك الموقف، الذي استطاع فيه أحداً أن يتبرع به ابتسامة، ويتفق باستمرار على أن أبي لا يصلح إلا أن يكون رعيماً لأنه لا يقبل العيب والصرار أبي عاد إلى المنزل، متعير حتى أشكال جلساته، ومستوقف كل ألعابنا البدائية، ومستحضر كل الأصوات!

حين بلغ والذي العاشرة كان عليه أن يعيش وحيداً بموت والده، وبهذا فقد وجد كل المراتب التي يمكن أن يعيش يتيم في هذا العالم، سحقه الفقر والبرد والتشرد والناس.. يحكي لنا عن العسوة التي مضته «توسلت إلى امرأة في القرية أن تعطيني ما أكله، فرقت لي، ودخلت محبرها، وأخرجت لي حبة صميرة وقالت لا تحب أحداً بهذا وابحث عن معجها لك.. فرفضت بها فرحاً مسروراً إلى حمتي، دعا الله عهد، وطلبت إليها أن تحبر لي هذه المعجينة، فأخذتها مني وعادت سريعاً، وهي يدها نمرّة حشنتها بالقليل الأسود.. وقالت: «تناول هذه دشما يتوي المعجبي غيراً» فأكنتها ولم أكن أعلم بما فيها من حشو.. فالتهب فمي، وظلمت أنكي طويلاً، وهي تقول ما دمت لا تستطيع أن تأكل الحبر فساأله أنا حتى لا يصد!

لم يترك والذي عملاً لم يغمس يديه فيه حتى تنزف دماً، دعى الإبل والعنم والأبقار، وحمل أجيراً بحمل الصخر وبحرث ويلز وحصد.. يقول: فوالله لا أعلم بيتاً في قريتنا ما حملت عند أهله أجيراً، وما أن اليوم سيدهم وأثرهم! حقاً أصبح والذي بعد عاقته وعوره وصعاباته وكفاحه شيخ القرية الأول وسيدها، وأكثر أهلها ثراء، ولأنه عاش هذه الرحلة فقد كان وما

والذي يعرف حجم ما فعله وما تتحملته من المسؤولية فيكبرها ويحيطها بكل رجولته وشقته ولا يسميها إلا «أمناء» . .
ولأمي قاموسها، الذي لا يجيده غيرها في كل حالاتها، فهي حين تقبل أو تدبر أو حين تفرح أو تعصب فلها كلماتها وعباراتها، التي يرددنها الناس بعدها، وتبقى كلماتها حين تمدح أو تشتم أحداً تسميةً وقرينةً لا تنفك عن هذا الشخص أبداً المشقات تبتكر لنا قواميسا الخاصة، فما نتعلمه من الخوف أصعاب ما نتعلمه من الأمر، والدمعة نقول كلاماً كثيراً عن الحياة، لا تجيده الابتسامة، والجوع يشرح ويشرح، ولأن أمي بكت وجاءت وشقيت فقد كانت لها رايستها التي تتحدث منها ونظر من خلالها إلى كل شيء.

والذي يعرف حجم ما فعله وما تتحملته من المسؤولية فيكبرها ويحيطها بكل رجولته وشقته ولا يسميها إلا «أمناء» . .
ولأمي قاموسها، الذي لا يجيده غيرها في كل حالاتها، فهي حين تقبل أو تدبر أو حين تفرح أو تعصب فلها كلماتها وعباراتها، التي يرددنها الناس بعدها، وتبقى كلماتها حين تمدح أو تشتم أحداً تسميةً وقرينةً لا تنفك عن هذا الشخص أبداً المشقات تبتكر لنا قواميسا الخاصة، فما نتعلمه من الخوف أصعاب ما نتعلمه من الأمر، والدمعة نقول كلاماً كثيراً عن الحياة، لا تجيده الابتسامة، والجوع يشرح ويشرح، ولأن أمي بكت وجاءت وشقيت فقد كانت لها رايستها التي تتحدث منها ونظر من خلالها إلى كل شيء.

أما أمي فلم تكن في القرية كلها من نصائبها، وما زالت تتحدث حتى اليوم برهق من تعرض والدي لمحاولات القتل، لأنه استطاع أن يحفظها من بين فتيان القرية، ولأنها روجة هذا الشقي فقد تحملت من المسؤوليات والشقاء والمذاب والأكم، ما لا يطيقه سواها، فقد بدأت معه من الصغر، ففي اليوم الذي تزوجته كانت تشعر عن ساعديها وتقرب له اللسان والطين اللارب ليرفع جدران البيت الذي سيؤويهما، وكذلك فقد كان يسافر ويعيب عن البيت الشهر والشهرين والثلاثة وتتنوى رعاية الأطفال والكبد لإطعامهم وتربيتهم وحمايتهم، لا تشكي ولا تعتر عن عملها هذا، وكان

والذي يعرف حجم ما فعله وما تتحملته من المسؤولية فيكبرها ويحيطها بكل رجولته وشقته ولا يسميها إلا «أمناء» . .

ولأمي قاموسها، الذي لا يجيده غيرها في كل حالاتها، فهي حين تقبل أو تدبر أو حين تفرح أو تعصب فلها كلماتها وعباراتها، التي يرددنها الناس بعدها، وتبقى كلماتها حين تمدح أو تشتم أحداً تسميةً وقرينةً لا تنفك عن هذا الشخص أبداً المشقات تبتكر لنا قواميسا الخاصة، فما نتعلمه من الخوف أصعاب ما نتعلمه من الأمر، والدمعة نقول كلاماً كثيراً عن الحياة، لا تجيده الابتسامة، والجوع يشرح ويشرح، ولأن أمي بكت وجاءت وشقيت فقد كانت لها رايستها التي تتحدث منها ونظر من خلالها إلى كل شيء.

أبي وأمي قدري أن اتحلق شيئاً ما بينهما، أو متطرفاً في حائتيهما، فشيء ما سيأتي إلى الحياة، يمكن أن يكون جباراً، ويمكن أن يكون حنوناً، ويمكن أن يكون شيئاً بينهما ويمكن أن يكون كليهما يتطوّر ساقول إن شخصاً هكذا هذا أنواء سيكون أشبه بيبي بسيط جداً لكن بوائه من فولاد، فهو أصعب الناس، وهو أسهل الناس!

أيضاً لا أظن أنني سأكون أفضل حالاً مني الآن لو كان أبي دائماً وأمي كليهما تروا سأكون أنا رغباً عن كل شيء . . نحن في البيت نحلق، ثم تجيء اللحظة التي يكون بوسعنا فيها أن نحلق أنفسنا على طريقتنا التي نخترها من جديد!

مجتمعنا الجنوبي كان جميلاً ميالاً للموسيقى، وحكايات الحب به لا تنتهي، لقد عاش الناس هنا حياةً شديدةً ورقيةً وفطرية، رغم بدائيتها كان هذا قبل أن يأتي عرف آخر، حرّم كل شيء وجعله عاراً!

أجدادنا تزوجوا عن حب، وآباؤنا الذين عاشوا قبل خمسين سنة، على الأقل هنا في عسير، انفروا أمهاتنا وانفقوا على الزواج واختار بعضهم بعضاً، على العكس مما يحدث الآن وأكثرهم ما زال على حين إلى تلك الأيام التي يسمون صحتها بـ«صحة النفا»!

إذن لا يمكن للشباب أن يلتقي أية امرأة إلا سراً، ولا يستطيع اختيار التي تقاسمه عشرات السنين أسرته تزوجه وتفعل كل شيء بباطة عناء!

نشأت أنا في بدايات هذا الاعتساف وحفته، فكانت المرأة محببةً تماماً من عالم الذكر، والذكر ممبٍ من حياة الأنثى، وإذا وجدت علاقة ما بين رجل وامرأة فإنها ستكون على سبيل التحمي والمعامرة، وكثيرون عندما يعتبرون افتتاح بيوت الآخرين وعيش

معامرات الحب مع سائهم بطولاً ومحولة، أما إذا اقترب أحد من دله فإنه لا يتورع عن القتل!

«حسن»، أحد أبناء قريتنا المجاورة، المضي للكثير من الفتيات وجامعهن وسهر معهن، وتعرض للكثير من المواقف، وذات يوم وجد حسن شاباً مع أخته، مهرج إلى البندقية وأخذ يلاحق هذا الشاب حتى أدركه ثم أفرعها في جوفه، ولولا أن البست احتضت من عيبه يومئذ لكان قتلها أيضاً، وبالطبع فإن حسن انتظر رماً المصاص سيفل حسن بالسيف أمام الناس جميعاً، والناس يتحدثون عن بطولته وأنه رجل عظيم جداً، وما زالوا يلعنون ذلك المقتول أما الفتاة فتعذب بالصرب والإهانات كل يوم، وأخيراً اقترح أحدهم أن يرسلها والدها إلى أخيها هناك في جدة، ثم لا يراها بعد تلك اللحظة!

سيكون الذكر جلداً للنساء من أهله، سيكون رقيقاً فظيماً لن يسمح لهن ولو بالنظر إلى غير مواضع أقدامهن، وسيكون هدواً نجاة كل من يقترب منهن وسيعتبر هذا لو حدث اعتداء على شره!

إن أكبر لص في على أي طفل أو صبي أو شاب أن يكون جميلاً، لأنه سيتعرض للتحرشات والإساءات، وسيعامله الكثير من حوله على أنه الأذى التي يطاردونها بعرائزهم، ولأنني كنت وسيماً فسيحدث هذا أيضاً مع أبناء الحي، مع الكبار منهم، ويتضح هذا الأمر بداخلي حتى يصير الخروج من المنزل شيئاً مرعاً، ولأنني الصغير الوحيد، فقد كان من المستحيل أن أشكو ما يهينني إلى إخوتي، الذين لا يتورعون عن تحويين أي شيء إلى

سحرية، ومستحيل أن أشكو أحداً إلى والدي الذي سيهرسي قبل أن يهب لحميتي. إذن فقد كان علي أن أهرب، أعتزل، أمشي في البيت أكثر الأوقات، أصبر، أحرص، أبكي، وأن أكون وحدي فوق ما أطيق. كل هذا لأحاط على كوني وجلاً

لم تكن لي من سلوة أكثر من الحجرة إلى أصامي وقططي أحببت الأحسام والقطط حتى كان إخواني يعيروني بالقطط ويسموني بها أتعلو بها وأشتكي إليها ما يحبسي وأبكي معها طويلاً. حتى اليوم كنت أقاسمها ياء، فنام معي قطتان أو ثلاث في فراشي، وفور اكتشاف أمي هذا، فإنها تعصب عصباً شديداً وتطرد القطط وتشتمي!

الإنسان يهرب إلى الحيوان إذا فقد أخاه الإنسان، الأثرياء يحبون الكلاب والحيول والعقراء، والأطفال يحبون المطط والطيور.

الأثرياء يحبون الكلاب والحيول، إثر صدمتهم في الوداء الذي يمحنون عنه، لا يجدونه في أحد من بني جسد، فيطربونه عند هذه الحيوانات، والأطفال والعقراء يفتشون عن يحرر هليهم، ويغني لهم فالقطط تدعى أنواعهم ونام في أحضانهم وتلف على رقابهم، والطيور تغني لهم أهلياً طويلاً

لي ذكريات كثيرة قليلة مع واحدة من بنات الحي، بت جارياً، كان اسمها سدوى وكانت جميلة ومسحمة محبي ومع طباعي هي ذكريات كثيرة لأنني عشت مع هذه الممعة طوال ثماني سنين من طمولتي ما كنا نترق، حتى صرت وإياها قصة تثير

استعروا أهلي وأهلها حيناً، وحيناً تثير ضحكهم وتكاثفهم، وهي قليلة لأنه لا يوجد في طمولتي فتاة غيرها، فالعلاء الشرمسون والعادات الجديدة العادمة أقنعت الناس بأن يكبلوا سامهم بهذه الأقمشة السوداء، حتى الصغيرات منهن، وليس خرياً أن ترى فتاة في العاشرة من عمرها، وهي تعطي وجهها ولا تحتلط بالأطفال، ولا تستطيع اللعب إلا مع البنات مثلها بداخل البيت، حيث لا يراهن أحداً

سلوى فقط من بقيت تلعب وتجلس وتشتكي وتمش طمولتها معي، فمد استيقظ لو أعود من رعي الأختام لا بد أن أذهب إليها، أو تجيء إلي. كما تمثل تمثيلاً برياً جميلاً كنت أمثل دور الأب، وتمثل في دور الأم أخرج من العزل وأعود إليه بعد خمس دقائق، وتمثل أنها تنادي أباهم «تعالوا جاء أبوكم من السر» تعالوا قبلوا رأسه ويديه ثم تلتقي وتحتضني وأحتضنها على طريقة المسلسلات. لا أنسى الهكاه الذي يكيته حينما روجها أهلها، على صغر سنها، رجلاً في الأربعين من عمرها، كانت في الرابعة عشرة، وأرضعتها أنها على أن تتزوج بهذا الرجل، وفي كل مكان يصادف الإنسان يمكنك أن ترى طمعة بجوار رجل مسن، لن تكون دائماً ابنته، بل ربما كانت زوجته هذه كارثة لم يتخلص الناس ها منها تماماً، فما زالوا يتعاملون مع النساء كمرص محتلة للشراء يحدث أحياناً أن الذي يدفع أكثر يحصل على الفتاة التي يريدونها، مهما كان كبيراً ومهما كانت صغيرة، ومهما نكت ونألمت لهذا

لقد باتت سلوى اليوم محطمة تماماً، فتاة في الثلاثين من

في ١٩٧٩ بزغ أول لحكاية طويلة .

ست سنوات من عمري تعني أنه حان وقت الدراسة، ذلك المكان الذي طالما غاظني به أخوأي اللدان يكبراني مباشرة «اليوم لعبا اليوم لهوا» اليوم قال لما المعلم كذا وكذا عدداً صححت ورسوم، وقبل أن ينتهي الصيف وبدأ العام الجديد، وفي يوم من الأيام، بحثت والدي وأكبر إخواني ذكرت أن أخي هذا كان متديباً لدرجة مؤذية، وكادت حياته تنتهي تماماً لو أنه ثبت تورطه في أي من أعمال احتلال الحرم المكي!

أبي يريد أن يضمني إلى أخوي الاثنين في المدرسة معها، على مبدأ أن الأعداء يصحب كسرهما إذا صدرت معاً كانت مدرسة حكومية عادية كغيرها من المدارس، وكان أخي المتدين يهتز بكل ما يطبقه أن بأحدني معه إلى المدرسة القرآنية، فقد كان يعمل معلماً فيها، وقدم كل الحجج والمبررات لتسجيلي فيها، «يحمي القرآن كاملاً»، «وأنه معه» أخيه وأشرف على تعليمه من قريب، «في هذه المدرسة يحطونه مالا كل شهر»..

لكن لم يكن من اليسير أن يقنع والدي بحجج أخي هذا الذي تسبب بمتاعب كثيرة له، وكان يحيمه أن يصبح هذا الطفل

عمراً، مطلقاً، بائسة، حرة، نكره الرجال جميعاً، ربما نكرهني أنا أيضاً!

في حسيير يقولون: «من تقرصه الأفعى يحرق من بعوضة» والبت التي قرصتها أمها وحيث بها الأقدار متحالف حتى من صديق طفولتها الذي ما ران حتى اليوم يسأل عنها ويتألم لأحبها كثيراً!

مكتبة روضة عصي أمهات

www.rew.tv.com

الصغير مثل أخيه، أن يصير متديباً مؤدباً، مما كان من أحيي إلا أن اختلى بي وأحد يرفغي في هذه المدرسة «رامي» المدرسة القرآنية تصم بها الجنة، فيها مستحفظ القرآن، وتصير شيخاً كبيراً، يحبك الناس ويطلبون إليك أن تدعو لهم .. هي المدرسة الكثير من الألعاب والمرح والمسا، وسيكون معك الكثير من المال لتشتري به ما تشاء، ألا ترى بقية إحوتك لا يحصلون على أي مال من مدارسهم!»، «سأعطيك كل ما تريد لو طلبت إلى أبي أن تكون في هذه المدرسة»

كان كل شيء مغرياً، وامتلات نفسي بالأحلام فدخلت هذه المدرسة فبكت، وولولت، وصحت، وجادلت ليوافق أبي على أن أدرس بالمدرسة القرآنية، وبعد محاولات كثيرة استسلم أبي ليكالي وصراغي ..

يسطيع المسيرون أن يتجاهلوا كل شيء، لكنهم يتراجعون في كل مرة أمام دموع الصغار وبكائهم، والذي لا يتأثر بالأطفال لا يصح أبداً أن يكون إنساناً!

يقال عندما في حير أن النمر لا يتهرب من للأطعم ولا للنساء السر عندما مثال الشجاعة والقررة والى، أما الدب فهو الذي لا يتورع عن فعل كل شيء، ولا يعبه أن تكون عريته طفلاً أو امرأة أو رجلاً أو دجاجة!

أول أيام الدراسة ..

المحظة الأولى التي ألج بها المدرسة في خوف، وبني ترقب، وبني مرح، لكنني ما كدت أنضم إلى مجموع طلاب صلي

حتى بدأت أسمع التهديد والوعيد، كان المعلمون الدسبون يصرخون ويويحون الصغار: «لمش لفصلك»، «ما الذي أغرك»، «فعب صديقك وأحضر يد علان العصا» حتى دخل صديق أولي معلمي ولمجرد جلوسه أخذ يتهندنا بالوان العقاب إن نحن لم نمثل لأوامره ونواهي!

في الفضة .. يدخل مدير المدرسة، ذلك الرجل المتوحش، المقصف ليري طعلاً شامياً يلبس البطلان موضح صرخة أسكتت جميع الطلاب قد بلطعل فتعال هاء مجاءه الطفل بكاد يمشي عليه من الخوف، ثم قال له «أين هو الثوب الذي يشارك؟ لم تأتي بهذا البطلان الذي لا يليه الرجال!؟»

حاول الطفل أن يشرح دوماً جدوى أنه هالده ترواً من بلاده، وأنه لا يعرف أنه لا بد أن يلبس الثوب، وأنه لم يذهب والده بعد إلى السوق ليشتري ثوباً له ضربه المدير أشد في كل جسده جلده بيشاعة كان يمسكه من فروة رأسه، ثم يرمعه بعيداً وشمالاً ويقول له «مستكون رجلاً رصماً حك لا تلبس لباس الكاهنين هنا»

لا أنسى أبداً بكاء الطفل وعلعه واستجاده، ولا أنسى أنني حين نوازي المدير من أحييا عريت إلى قصبي واحتبات تحت إحدى الطاولات مدحوراً أن يدخل علينا هذا المدير فيعمل بي ما فعله بالطفل الشامي لقد كانت صدمة عيمة كانت كل كدمات أخني من اللعب والمرح وطريق الجنة والسعادة تتحول إلى أشياح صعيقة، لها ألياب حادة تنظر إلي وتقهقه!

ومر الوقت ومرت السنة الأولى، وعلمت أنني ناشب في دائرة

من الخوف والعلب والألم، ولأن الطفل مخلوق شعاف، لا يمكنه إلا أن يكون مباشراً وصادقاً حتى يضطره الآخرون من حوله إلى الهرب والكذب وأن يكون شيئاً آخر، غير ما هو في أصله وداحله، كان لا بد أن أكون شخصاً آخر عيوني وأن أعرب إلى داحلي، وهكذا بدأت حكاية التمثيل والتصنع والظهور على طريقة غير تلك التي هي أنا. حدث هذا لأسى كنت أحب الفراشات، وهي حصة الرسم اعتبرت بإحداها لأرسمها هبوت على يدي عصا المعلم، وحين سحبت يدي من شدة الألم، صرخ بي: «إن رسم دوات الأرواح حرام». أمرني أن أرسم المسحود والكعبة والقدس التي كنت أحبها وهو فقط من مرع حبها من قلبي يومئذ، عرستها والرهبة واليكاء والمضب والحرر وأشياء كثيرة تصطرع بي!

وحدث هذا لأنني كنت في مسجد المفروسة، ألفت قطعاً صغيرة من المسهل، وأنصعها بقمي، فجاءني أحد المعلمين إليّ ليجلسني بمص الحيرران على يدي، وبعد أن ينتهي من كل جلسة أتوسل إليه أن يتوقف، وأعلمه أنني لن أعود إلى فعل هذا فلا يستجيب!

وحدث هذا لأنني كنت في تلك السنوات الانتقالية أرى من الممارسات ما فجسي، مثلاً كان اردحام الطلاب على مداحل المعصون ومحارجها وعلى مائدة المقصف مريباً، فقد كان كل هؤلاء يتلاصقون حتى إنني قررت آخر الأمر ألا أدخل المقصف إلا آخر الطلاب، وألا أخرج منه إلا آخرهم، وألا أشتري إبطاراً من مائدة المقصف!

أذكر أنني حاولت التمثيل على والدي بأنني أعاني من بطي،

وإنني مريض جداً، وما كان بي من شيء، ولم يكن بي سوى أنني لم أحفظ الواجب المصحف من القرآن، وكنت أعرف أن جلدأ وحشياً بانتظاري فحاولت ابتكار أي عذر للغياب، وبالمعل وافق والدي على ألا أذهب إلى المدرسة اليوم، لكنني لعرط مرحي ودهولي بموافقة والدي لم أستطع البقاء في فراشي، وبعد لحظات قصيرة دعاني والدي وأمرني بلبس ثيابي وحمل حقيتي ليوصيني إلى المدرسة، فبكيت وبكيت لكن لم يكن ثمة من فرار، فأبى لا يتراجع حتى لو احترق العالم كله!

كان المطيع أن والدي، حين يلما المدرسة، طلب إلى مديرها أن يضربني لأسى قلت إنني مريض كلباً، فسألني المدير عن سبب هذا، وحدثت بمسي بالصدق، الذي ريمت شمع لي، فيرون أنني كهرت عن كذبتي بالصدق، وقتت على المور: «فعلت هذا، لأنني لم أستطع حفظ القرآن، وخشيت أن يضربني الأستاذ» حينئذ همز والدي مدير المدرسة، واستأذن ومضى!

ساعة يرى أحد ما مؤامرة تدبر ضده هكذا في العلن، ولإلح صعره وصحه لا يملك غير النظر والانتظار فإن داخله يتهاوى يتساقط قل أن يسه من تأمر عليه لا أعقب من أن يتداهي البيان من داخله!

أوقفني المدير في نهاية طرفته ساعتين، ساعتين من القهر والعداب المعسي، خصوصاً وهو يسحب الحيررانة، تلك العصا الملعوفة، ويضعها على طرف مكتبه، ثم يجثو إليّ من وقتي لأحر بنظراتي تمشي في جسدي كالكهرباء. قام آخر الأمر قائلاً: «افتح يديك» وضربني بعصاه تلك على كمي اليمى، ثم كمي

اليسرى على التوالي، وحين انتهى صبري، ولم أعد قادراً على احتمال أي جدة، رخصت مذ يدي لحيرراتي، فأحد يضربي على ساكر جسدي، ضربي حتى جثوت على الأرض، حتى تمددت عليها، ولو لا أن بعض المعلمين في الغرفة تحركت رحمتهم عني فقاموا بمصعوبه من مواصلة تعذيبني ما كان ليكف عن تلك الشاة!

لبت الثياب القصيرة، وهذلت الشماغ على صدغي، ولم يكن السراك يمارق فمي، وتعلمت كلماتهم ودعواتهم الخاصة، لكنني كنت كائناً آخر في داخلي، أحب الأعيان والصور والرسم واللعب، ولا أستطيعها ولا أتمكن منها أجل كنت أصلي وأب والسرائك فمي، لكنني لم أكن على وضوء، وكنت أصلي وأجلس في المسجد، لكنني كنت أكرهم!

من الممكن أن يقبل الكبار الحديثة يمكن أن يحتملونها وأن يعتبروا أن الدنيا هكذا مجموعة من الأمواه، وأكثرها اتساعاً هو الذي يلثمهم ما فوه، لكن الطفل لا يستوعب الحد أدنى، ولا يمكنه أن يواجه الحدة بغير البكاء، يعبر أن يحسن في الروايات ويدس رأسه في أي محبا، لأنه لم يكن عارفاً من قبل أن في الدنيا كذباً وخداعاً وخيبة أمل!

كنت أقضي يومي على هذه الشاة أستيقظ مرعاً كل صبح على صرير والذي، الذي يبادي لصلاة الصبح كان يدعو والذي بصرخة واحدة لهب جميعاً وبصطف ورائه، وطالما عرفت حفاً أليماً لأنني تأخرت من ركعة من الصلاة، أو عاتني الصلاة كلها،

ومع لحظات الصباح الأولى أنهيأ للذهاب إلى المدرسة، وأكمل ما بقي من الواجبات، التي لم أكملها والحفظ الذي لم أنته، وهي محبتي صورة مدير المدرسة البشة والمدرسين القسا!

يمضي الوقت الشاق في المدرسة، حصص القرآن وما فيها من الرعب، وحصص الدين والمساءلات، حتى تأتي ساعة العرع الوحيدة في اليوم وهي ساعة خروجي من ذلك المعتقل وعودتي إلى البيت. وفي البيت أقضي الوقت، حتى يحين العصر، في إنحار بعض الواجبات وحفظ القرآن، لأنه يتوجب علي أن أخرج مع أعملي لرحلتها بعد أن تؤدي صلاة العصر!

كثيراً ما كنت أمر ببعيماتي أمام أباء الحي، وهم يلعبون الكرة ويجولون بدراجاتهم الصغيرة، فتتعالى صيحاتهم «الرامي الرامي» كنت أمرض عنهم برمو مصططح، لكن مداعلي جرحاً عميقاً، إذ لم أكن مثل هؤلاء، أنعم باللعب والمرح، حتى إذا ما خلوت بأعاصي محميت على بعضها لأصربها وأنتمها، وأحتلها سبب حرمانني، ثم أبكي بكاء حاراً!

عادة ما يكون المصحف معي، لأحفظ الجزة اليومية المرحن منه، والذي يترمي أن أقضي وقتاً واسعاً لفراسته وإتمام حفظه وتحسينه، لأنجو من الخيروانة في الغد، والوقت الوحيد الذي يمكنني فيه النهو واللعب ومشاهدة التلفاز هو بعد عودتي من دعي الأهم، أي بعد غروب الشمس، ولم يكن ذلك الوقت ليستم طويلاً، فبعد أن أصلي العشاء مع إخوتي والدي أنكب على الدروس والقرآن!

مرات كثيرة تلك التي يأتي لي فيها إلى الغرفة، التي تجمعني

وأخوتي الذين يكبراني، لأسمعه ما حفظته من القرآن قبل أن أنام، كنت أبكي بحرارة، لأن أخوتي ينامون بطمأنينة، ويصيحون على ما أعيشه من الرعب، وموق هذا يحدث أحياناً أن يهرسي والدي، لأنني بكيت كالنساء، أو لأنني لم أحفظ القرآن كما يجب!

تنتهي سنوات الدراسة الابتدائية، كانت ست سنوات من أطلع ما يمكن وكان والدي يريد أن أكمل المرحلة التي تليها في المدرسة معها، فقد أعجبه حفظي لهذا الكم من القرآن، وافتح أنه المكان الذي سيحفظني، لكنني تعاصرت أمامه بأكبر مرة، وصارخاً مرة أخرى، وشائماً، ومحتجاً، ومهدداً بالهروب مستعلاً انتقال عمل أخي المتدين إلى مدينة أخرى، ضامناً أنه لن يكرهني على البقاء بهذا المكان، وتدخلت والدتي أيضاً لإقناع أبي، وبعد لأي كبير وافق علي أن أدرس المرحلة المتوسطة في إحدى المدارس الحكومية العادية، متهماً إياي بأنني لست من أهل الحيرة، وأنه عاضب مني لأنني أترك كتاب الله والصالحين، وأطلب الدراسة عند غيرهم، لكن ذلك لم يكن ليمنحني لي شتاً، فأني عذاب وأي رعب سيكون أهون علي من السنين العارطات، والآن وقد حانت الفرصة للمعكاك من هذا الأسر على أتراجع، معها كانت التهديدات والمحاسن، صاهلت وأحيراً حوت ما أريده

سنوات المرحلة الأولى والثانية من طفولتي كانتا حلقاً ضيقاً من الممرعات والآلام، وأنا الطفل الذي تحاصره المحاوف من والده وإخوته وأقاربه وأسائه حبه، وأنا الطفل الذي ألتفت به

حالات الرعب حبال المدرسة القرآنية ومن فيها، تلك المدرسة التي مثلت خيبة الأمل الأولى وهذان الشئ بأية وجود من سماء أو أرض!

علي أن أقول إن أشياء كثيرة شكلتني في هذا البدء، وأشياء كثيرة تشكلت بداخلي، عائلته لم يكن في تصوري الطفولي حيث يحدد الأطفال، ولم يكن غير متوحش مستقم يده مملوءة بالجمر والكلايت والسياط، وهي اللحظة التي يموت الأطفال في سبلتهم وسيضحك طويلاً على تعذيبهم في يده الكبيرة، كما يقولون لنا عنه يوماً!

القضية العبيدة التي واجهتها نصياً وجسدياً جعلتني أكره كل ما يتصل بالسماء، وأتذكر مرة أن والدي والمدرسة أكرهاني على صيام رمضان، وحين كان يهرسي الجوع والمطر كنت أخرج من البيت، ويدخل ثيابي شيء من طعام وماء، فإذا تواريت عن الأعرس أكلت وشربت، وغالباً ما كنت أنظر إلى الأعلى وأمسس أنني أكره كل ما هو فوق هذا ما تركوه من الله بداخلي والجأوي إلى التصح والتشيل، ويات أكبر أهداني بداخلي هو ما كان يجب أن يكون أحب شيء إلي!

لا بد أن أقول إنه وسط ذلك الحشد من المحاوف التي هشتها تلك الأيام إلا أن تلك المدرسة قدمت لي جيلاً واحداً وهو أنني امتلكت فصاحة مقبولة، وياتت لعتي منجورة لأكثر إخوتي، فهذا حتمي جداً لطفل حفظ نصف القرآن وكتبه أبهاً مراراً وتكراراً، حتى إنني ما كنت لأخطئ في قراءة شيء، وكان عدي من سلامة اللسان ما هأنسي من البدء لأكون لعوباً، ولأهمهم ولألمح في ما

أقرأه وأسمعه من الكلام ما لا يلمحه إلا أنا ممن هم في سبي أو حتى أكبر مني بقليل!

مما خلق في ذاكرتي من عالمي الصغير حزني البالغ، ووجدتي التي كانت أكبر من أن يحتم وطأتها عليّ دخول أحتي إلى عالمي، فأنا أعرف أنه لا قيمة للرجل إلا بين الرجال حينئذ المرأة التي كانوا لا يذكرون اسمها في حديثهم، وإذا ما ورد حديث عن امرأة ما اعتد بعضهم لبعض وللرجل من هذه القدرة، فيقولون مثلاً في سياق حديثهم عن شأن ما يخص امرأة ما «فلانة» . أكرمكم الله! ولم تكن أحتي لتخرجني من السبي وحزني ووجدتي، فأنا أشعر أنه لا مكان لي كرجل عند أحد، وعليّ حينها أن أتعزّذ ألا يكون معي أحد، وأن أكون أنا فقط!

ومن عالمي ذلك برومي إلى الجماليات، التي كنت أحدث نفسي أنه لا يعرفها ولا يفهمها أحد مثلي، فأنا فقط من يبكي إذا رأى مشهد عافي في التلفاز، وأنا من يدرس رأسه في المراش كل ليلة يعلم أنه «ريمي» الذي يهاجر مع كلابه من مكان إلى مكان في السلسل الكرتوني، وأحلم كثيراً «أسي» «هدان» الذي يضم «ليا» ويخلصها من الأشرار في مسلسل كرتوني آخر، وما أكثر ما كان يشد عليّ أخواني لأنني يبكي وأنا أتابع سلسلة أو فيلماً أو رسوماً متحركة، على أنه كان من النادر حقاً أن نتاح لي فرصة متابعة التلفزيون!

ومنه... قصتي الطويلة الطويلة مع بنت جارنا، تلك القصة

العلاي نالجب العموي والبحث والمقد والشوق واللهو والضحك، والعلاي أيضاً بتضاحك أهلي وأهلها علينا حقاً بعد كانت شبتاً جميلاً في طفولتي، ما دلت أبداً بتذكره حتى لحظتي هذه، ما دلت أتم بمصيرها رغم أنها لم تعد في قلبي أكثر من أنها صديقة التحب والطعونة الأولى، ولا أنسى علمي حين قالوا إن أهلها رزحوها، وهي لما تبلغ الرابعة عشرة من عمرها بعد، بكم لعنهم، وكم شتمتها لأنها استسلمت لهم!

مستشفى رزق السبي المستشفيات

www.rewaty.com

في نهاية ١٩٨٤ أتممت الدراسة الابتدائية القرآنية، وفي صيف تلك السنة قبل والذي على مضض أن أنتقل في السنة التي تليها إلى مدرسة أخرى في الحي، فقصيت أكثر الإحارات الصعبة في طعولتي متعة وفرحاً، وعطف والذي عليّ مرة أخرى هاشمري لي دراجة صغيرة أسوة بالبقية من أبناء الحي، فقد رأيي معهم غير مرة وهم عليّ دراجاتهم وأنا أتابعهم يحررون!

الشيخ أن تلتك الدراجة لم تحش معي أكثر من ثلاثة أيام، حيث تسلل أحد أبناء الحي إلى ماء بيتنا وسرقها وحتى يريد في في لم يسرقها ليستعملها، بل ليحطها ضلعاً ضلعاً وحين اكتشفت هذا صرته حتى كدت أقتله كنت أهرف أن والذي سيضربني ضرباً أكثر عنفاً لآسي ضيعت مالي، ومن يضيع ماله في مطلق العسيري ليس جديراً بالحياة، إنه جديرٌ بالشتم والسحرة فقط!

الس كل الس تمر بهم لحظات يشمر الواحد منهم خلالها بأنه موجودة في هذه الحياة لتألم، وأن عليه أن يتيسر أنه مهياً للشقاء لا غيراً

هكذا وسرعاً يمر الصيف، وتحق السنة الدراسية ١٩٨٥

والنحق بمدرسة جديدة، ومن يومي الأول بها فرحت أنه لا ضرب بها ولا عصي ولا حفظ للقرآن، أنه لا رعب ولا محاب، وأن عمراً جليداً يفتح صدره لي كنت أشعر أنني خرجت من كابوس طويل، وأن وقت التلذذ بالأيام واللعب والحرية أعلن نفسه.. وهذا كنه انتقال ترك بداخلي صدمة عيفة جداً، صدمة جعلتني أتمرد على أهلي، حتى لا يحظر بيالهم من جديد أن يعيدوني إلى تنكم الحياة الممرعة السابقة، بالرغم من أني بقيت على دعائتي الأعمام وبعض المحرمات من اللعب لقد كنت أتلذذ بهذه الحياة الجديدة، تماماً كالذي يقتصر من الأيام ما اختلست منه من سعادته!

وأيضاً أتذكر تلك الأيام هوسي بكرة القدم، فكانت هي كل شيء، كل شيء داخل المدرسة وبعدها، وحتى مع أعمامي كنت أصطحب الكرة، فأصحم حذم في حياتي حيث أن أكون لاعب كرة مشهوراً في نادي الهلال الرياضي، عارفاً في خيال بعيد أرى فيه صورتي بالصحف، وأرى الأهداف التي أسجلها وهي تعاد في التلفزيون لقد كنت أدعو بكل صدق ويكاه أن يجعلني الله أشهر وأغنى وأسعد من في هذا الوجود!

بتلك المدرسة أحببت المعلمين، وأحببت الدراسة، وتأملت كثيراً حتى صرت حديث المدرسة، لاسيما بعد ذلك اليوم الكبير، ذلك اليوم الذي يستدعي مدرس مادة العلوم ويقول لي "إن مشرفاً علمياً جاء من الرياض لزيارة المنطقة ليرى الطلاب المتميزين على مستوى المنطقة" وأنه سيدهوه ليراني أن فقط في هذه المدرسة، وعليّ أن أستعد بذلك وألا أخله وبالفعل جاء هذا المشرف، وأذكر جيداً كيف أنه كان ينف بالعصل فيسأل

وسأله، ولا أحد يرفع يده للإجابة سواي، وكيف استدعاني وطلب إلي أن أحضر والدي بالمعد، وسألني عما إذا كنت أريد الذهاب معه إلى الرياض! عرضت لأن أبي رفض، لكن سعادتي وتبهي بذلك الموقف لم يكن ليعدله شيء، وكنت أسمع والدي أيامها يقول إن ابني هذا أكثر إخوته ذكوة ومركة!

سما بقي في الذاكرة أبي عشت أيامها كل أشكال العبث والفوضى، وتمردت على أسرتي، لدرجة أنهم ألقوا بالأعواد إلى البيت إلا في أوقات متأخرة، يكون قد دب الليل حجبها، وألمت بدوري صرب والدي ليدي، ولم يكن هذا ليسعني من تكرار ما أريده من العبث!

وقعت يوماً على ناصية الشارع وبيني حلبة معدنية، والسيارات تمر واحدة تلو الأخرى، ومرت سيارته كان بداخلها ذلك الرجل الملتحي الضخم، الذي يشبه مدير المدرسة القديمة، وكانت اللفة التي يجلس إلى حوارها مفتوحة، فلم أشعر بنفسي إلا وأن أسد هذه العلة بكل قوتي لتصيب الرجل وهو بداخل سيارته، فتوقف على الفور واستدار بسيارته يطاردني، لكسي تمكنت من الهرب، وتمكن هو من معرفة من أكون ومن هو والدي عبر وشايات أساء الحي الدين رأوا المشهد، واستوقفهم يسألهم من اسمي وبيني جاء إلى أبي واشتكى إليه ما فعلته به، وأقسم له أبي أن يضربني ضرباً أليماً وعدم له الاعتذرات الطويلة، فانصرف الرجل وهو على درجة كبيرة من الغضب وبالطبع فقد نعد والدي قسمه، وضربني حتى شعرت بالدوار وشارب الإغماء، ككل مرة!

ومن الذكريات أيضاً أنه كان لأخي الأكبر مكتبة ضخمة، استطعت الوصول إليها وسرقت منها كتاب ألف ليلة وليلة. ومن هلك ابتداءً ولقي بالقراءة، والذي انطعت بعده إلى أعانا كريمني وقصص الأنبياء وقراءة آية قصة تقع بين يدي!

وبالرغم من أن المدارس جميعاً كانت في بدايات تعرضها لموجة التدريس إلا أنها كانت أحف وطأة مما كان يحدث في المدارس القرابية من إكراه جميع الصغار على التدريس وبسنتهم القسوة!

إذن وبعد وقت من هذا التحرر من الرعب والخوف كانت قد تكونت بداخلي الكثير من النفاض، وهذه نتيجة حتمية لما ترددت بداخلي من العالَمين المتضيقين عالم الرهبانية والمصا والمحاو والكراهية، ثم عالم الحرية واللهو! لقد كنت بقاتص لا تنتهي، فأنا العابد حياً والعاسق حياً آخر، وأنا السالك والمجاهر، والطيب والمعتدي، والعاقل والسافل، والمصيط والمشي، وكل ضيق كنت أنهما في وقت واحد هذا ما انعكس على تعاملتي مع الحياة واقعاً وشعوراً!

من ناصياتي أنني مرة دبرت للسقوط على متجر بالحي لأنثني بدعائي، ولم يكن بي من حاجة إلى شيء، ولم يكن أكثر من استجابة لما في نفسي!

الحكاية انتظرت حتى اقترب موعد صلاة العصر فدخلت بين مجموعة من الداخلين للتبضع إلى المتجر، ولأن المحال التجارية يجب إفعالها وقت الصلاة، فقد احترت هذا الوقت بالذات، أي ما قبل الصلاة، ثم تسلفت إلى واحدة من التلاجات

الكبيرة بالمتجر وجلست خلفها، وبالفعل ثم بعض بعض الوقت حتى خرج كل من بالمكان، وأكمل المتجر للصلاة، وبقيت أنا وحدي، فتسللت إلى حراثة المال وفتحتها، وأحدثت فيها ما يتسع له جيب ثوبي الصغير، ثم عدت إلى مكاني خلف السلاحيه، ولم يمض بعض الوقت مجدداً حتى انتهت الصلاة، وفتح المحل وعاد الناس للتبضع، وحين تكاثروا قمت لأخرج وهي بي قطعة حلوى دفعت قيمتها ضاحكاً، ومضيت كأن شيئ لم يكن. وفي طريقي راجعاً إلى البيت الصغير شحادة مستاً بطبيب مسي ريداً واحداً ليشتري به رقيب حبر، فيتحرك بداخلي الماسك الراهب القديم وأخرجت كل ما سرقته من المال وتصدقت به عليه، لأشعر بسعادة لا حد لها!

لقد كنت أيضاً الصبي الذي يتروم بالقرآن، يرثله بأعذب ما لا يجيده أحد في سبي، وكنت الصبي ذاته الذي يشتم المؤذن حين يرفع صوته بالأذان، أو إمام الحي حين يقرأ في الصلوات الجهرية. وكنت أنا الذي يئسني لأنه رأى فعة ذهبتها مباركة، أو رأى فراخ حبيبين في سلسلة تلمريونية، وكنت أنا أيضاً الذي يحبه أن يحال على والده أو أحد إخوته الكبار، يحسن من أكرم ثيابهم المال وينهب ليشتري به ما يريده من الشوكولا والحدوى. وكنت أنا الذي يدخل في مصاريب هيبعة مع أبناء الحي، لأنهم سحروا من ملامح طفلي ما، وكنت أيضاً ذلك الذي يرمي الناس بالحجارة من وراء ستار!

وسرعاً، انتهت أيامي بتلك المفوضة الضده، التي استمرت ثلاث سنوات، كانت الانعتاق بعد الكنت والمرح بعد الصبق

والعبث بعد الحصار، والحرية بعد المعتقل، لقد كانتا مرحلتين متنافستين في كل شيء، ولا يوجد بينهما سوى أنهما كانتا تصطرعان بدخول نفس واحدة. هذا ما خلطته تلك المرحلتان المتنافستان بي في ذلك الوقت، ولا أدري هل كان هذا ممكناً أم مؤلماً أم مضحكاً! كل ما أهرقه أنني تعبت تعباً لم يتعبه طفل ممن أعرفهم في البلده، ثم عشت حيث لم يعيشه صبي ممن أعرفهم بعد ذلك!

حين يقوم الزمن من مكانه، فيأخذنا إلى غيبٍ حديد، ويترك
أشياءنا خلفه، فإن حداقاً كبيراً ينتصب فينا، لأننا نعرف لحظتنا
من قيمة أشياء ما لم نعرفه في أي لحظة منها!

ساعة تقف في المطار لودع أحداً ما فإن عواطف كثيرة،
وأشواقاً كثيرة تتحرك لهذا المسافر، مهما كان شخصاً عادياً بالنسبة
إليها، قبل سفره ذلك، وحين يسافر نحن فإننا نكتشف كثيرين،
تدق بعوسهم بالحب لنا، ما كنا نعرف عن حبهم ذلك شيئاً، وكنا
الحال مع مراحل أعمارنا التي نعرف أنها إذا تحطمت الرمس لا
تعود!

أوشك الحزن أن يطر قلبني على مغادرتي مدرسة الحرية
والسعادة والعبث، تلك التي قضيت بها ثلاث سنين، هي ما يمكن
أعبارها من همري، ويا له من مشهدٍ محنتٍ من مشهدي الذي
كنت أبكي به ليرق قلب أبي لي فيخرجني من المدرسة القرائية!
كنت أبكي رغبةً في الحياة وهروباً من الموت، وبكيت بعد
المدرسة الجديدة على الحياة وحوماً ألا يكون بانتظاري إلا رحمتُ
جلدي!

هني إدن أن التحق بالمدرسة الثانوية لأكثر انصباطاً بأبها،

كما يريد أبي، وامتلئت له على العور لأن أخوتي تحرّجوا فيها توتاً
ومدحها كثيراً، فعملت ولتينا السنة الدراسية ١٩٨٨ ولأفتح هذه
المدرسة وهذه الحكاية الجديدة بشخصيتي المتناقضة والملاهي
بالمضادات، ولم يكدهمضي الأسبوع الأول حتى صرت أشهر
التلاميذ الجدد في المدرسة، غير مشاكساتي ولعبي واستعراضاتي
التي تملئها عليّ هذه النفس المزدوجة بي، ثم إني كنت أواخر
بهذه الحصة البيضاء من شعري فأكثفها دوماً، وأحب أن يتحدثوا
عنها، طلاباً ومعلمين!

على الجانب الآخر هناك، حيث أسرتني عاد الجحيم المرير
بداخلها بلوكسي وإخوتي ووالدي يرون أنني أمر في هذه السن
بأحط مراحل المراهقة، ولذا فإني لا بد من فمحي ومرافقتي
وحمايتي حيناً ووردي حيناً آخر لا بد أن يحموني، فثمة في باطن
وعينهم ما يحلي عليهم أنه ما دام أبهم على قدر كبير من الوسامه
والروح المشقة فإني معزّض لانتهاكاتٍ جسدية في هذا الواقع
الذكوري!

أحد أساء الجيران حاول أن يعتدي صراحةً عليّ، راشيتك
وليه في شجارٍ عنيف وتمكنت من إسقاطه رغم أنه يكبرني، ثم
تركته وغرت محمل حجراً ورماني به فشق رأسي، وهذا عودتي
إلى البيت لم أحرز على أن أخبر والدي وإخوتي عن سبب هذه
الدماء برأسي، واحتملت كل الشائم والانتهاكات حتى لا يقع في
مصر أحدهم أن أسهم ليس رجلاً وأن أحداً ما عامله كمحيط
لشهوته، وغير هذا ومثله الكثير!

لقد كنت رغبتي في الهرب من جحيم أسرتي، ولو أن أحداً

استطاع إقناعي بالفرار إلى مكانٍ أثق به لمعلب، لكنه لم يكن أمامي من خياراتٍ سوى أن أنهي معظم الوقت مع الأعمام أو مع الكرة أو لاصطاع أي عبدٍ للمحروج ومن ثم التآخر قدر ما يمكنني من العودة إلى البيت الذي أعلم أنه لا ينتظري فيه سوى سبل الشتائم، وربما الصرب، على أنني لم أكن أذهب إلى أي مكانٍ أكثر من أنني أصعد إلى أعلى فمٍ بالحى تطلّ على الشارع، أبقي هناك أراقب السيارات وأهدأ وأأمل الناس بفتحها!

فرحتي بالمدرسة، هذا العالم الجديد الأكبر حبسها بالنسبة لي، أنستي الكثير مما أهانيه، ولم أكن أعلم أن ولوجي بنابة تلك المدرسة يبدآن باقتراب ميلاد حكايةٍ ضخمةٍ جداً في حياتي، أسهمت أشياء عديدة بتحويل موعدها، مما كانت سوى بضعة أسابيع حتى كنت محط أنظار جماعةٍ أشطّ ذهية بالمدرسة، كان يطلق عليها جماعة التوبة، وكان معظم المنتمين من الطلاب والمؤثرين ودوي الطافات العدة في إظهارها، ويشرف عليها معلمون متبنون، تبدو عليهم سمات الرهد وتعلو الهية ملاصحتهم..

كلموا واحداً من الطلاب من مسؤوليهم مهمة أن يسحبني إلى أنشطتهم وأن يري بي بأي شيء لآتيهم ولو لمرة واحدة فقط! كان اسمه سعيد، وكنت أعرفه منذ أيام المدرسة الابتدائية، لقد كان لبقاً وذكياً، وكانت شخصيته تعجبي، رغم كل ما يحيط بصرفاته من العراية، وكان من الطلاب الدارسين الذين يمتلكون سياراتٍ في سنٍ مبكرةٍ كهذه، وهذه صفة مغرقة بالنسبة لي!

حدثني يوماً أنه يود أن يعتنقني بأمرٍ خاص وأن المدرسة ليست مكاناً مناسباً، وسألني إذا كان يمكن أن يلتقي عصفراً أو

ليلاً، وعلى الفور تحيلتني كواحدٍ من إخوتي الكبار، لي صديقٌ باتيني بسيارته ونفخرج معاً للتنزه والعشاء والسهرة، فوافقت مباشرةً وأخبرته أنني سأنتظره مغرب هذا اليوم، وحدثت له الوقت والمكان الذي يناسبني أن أكون معه فيه، وبالمعل كنت لحظة غروب الشمس أمشي إلى أسفل الحى لأجده ينتظري هناك، وبني فرحةً وتكسّر لا حدّ لهما!

مضينا معاً، وجئنا بالسيارة كثيراً وطبعكنا وصرخنا، وبالرغم من هيئة صاحبي سعيد الدبية إلا أنه لم يكن ليتردد في فعل شيءٍ من هذا الصحت والصرح معي لينتد اشترى عشاءً بسيطاً، واتجه إلى حديقةٍ صغيرة بقمة الجبل، وتناول طعامنا هناك، إنها أول مرة أركب سيارةٍ بشره واللهم والسهرة والصحت مع واحدٍ من أصحابي، حقاً لقد كان كل شيءٍ مستعاً وأسراً في ذلك اللقاء، وفي طريق العودة متجهين نحو بيتي أخذ يحدثني سعيد عن الأمر الذي يربطني بصديقه، يذكر أن رمضان اقترب وأنه لم يبق سوى بضعة أيام على حلوله، وأن جماعة التوبة تنظم دورةً في كرة القدم وأنه بحث أن أشرك في هذه الدورة الرياضية، فأنا بحسب تعبيره لينتد أفضل الطلاب الجدد موهبةً وتميزاً في لعب كرة القدم، وذكر لي أن هذه ليست رغبته فقط، بل إنه ينقل تحيات المعلم المهيب الشيخ حميد ودعوته إليّ للمشاركة في هذه الدورة الرياضية، التي تنظمها الجماعة في ليالي رمضان بالمدرسة!

فرحت بهذا كثيراً، وخضت منه كثيراً، لكن كل شيءٍ كان يدعمني لأقول له إنني سأكون معكم بكل فرح، كان هروبي من جحيم أهلي يجعلني مستعماً لأكون بأي مكانٍ إلا أن أكون بداخل

البيت الذي يعاملني كمراهق يجب أن تحاصر كل أعماله، أو كمن
وسيم يجب أن يراقب حتى لا ينتهك أحد حسنه، وفي الحالات
كثيرة أخرى نفسي للثبات والصبر وربما الصبر أيضاً. إذن
واقفت وسأتمرد على أهلي لأكون مع تلك الجماعة شاكراً أم أبوا!

مضت الأيام ببطء، وجاء رمضان

براع كبير حدث بيبي وبس أهلي ووالدي تحديداً ليوافق على
انضمامي إلى أنشطة هذه الجماعة في ليالي رمضان، وانتهى هذا
السراع بقبوله غاضباً قائماً قائماً إياي بأنني عاصي، وأني لا
أستجيب إلا لما أمر به أنا، وأني لا أحترم وليه!

ومن أول ليلة برمضان كنت أصطف مع عدد كبير من الطلاب
في ساحة المدرسة، ليحدثنا الشيخ حميد عن برنامج الجماعة
طوال ليالي رمضان، وقوانين العاء بها واحترامها، وأن وجود أي
ما هنا يجب ألا يكون لمجرد لعب الكرة فقط، فهناك محاضرات
وسدوات ودروس علم وحملات وعظمية وتذكير بالله وصلاة
وعبادات كثيرة، وعلياً أن يلتزم حضور كل شيء وسيكون للدورة
الرياضية وقتها من كل ليلة!

بعد صلاة التراويح من كل يوم، أي قراءة التامة والنصف ليلاً
يكون الطلاب والمعلمون، المشرفون على الجماعة، قد حضروا
إلى المدرسة، لتبدأ حينئذ جلسات الشاي التي تتخللها الطرائف
والأشعار الحماسية والمواقف وغير ذلك، ثم يتها الجميع لندخل
إلى مسجد المدرسة للاستماع إلى محاضرة يؤذيها أحد
المستضامين من الدعاة من خارج المدرسة، وغالباً ما تكون من
العذاب والنار والموت، ويضج المسجد كل ليلة بالكاء والاستعانة

سأله من الجمعيم والشفاء وقبل نهاية الوقت بساعة تبدأ
المباريات الرياضية، لتجري كل ليلة مباراتان بين فريقين، ويبقى
الجميع للمشاهدة والتشجيع، الذي يجب ألا يكون إلا بواسطة
الكبير (الده أكبر)، والويل لمن يصمت أو يصغر، لأنه سيكون
مشتبهاً إنذاك بالكفار!

على عجل مرت ليالي رمضان، وكان فريقنا ينتصر كل ليلة
وكنت ألعب بكل حماسة وإقبال وأحرر الأهداف وأقمس في
اللعب، حتى بلغ فريق المباراة النهائية في أواخر ليالي رمضان،
وأخيراً أحررنا البطولة وفاز فريقنا بالدورة الرياضية..

كانت المفاجأة تلك الليلة التي مرنا فيها أن المعلم، الشيخ
حميد، كان يقرأ اسم أفضل لاعب فيادي باسمي، ثم يقرأ اسم
أكثر اللاعبين تسجيلاً للأهداف فيادي باسمي، وأعود إلى البيت
ومعي ثلاثة انتصارات، وفريقنا بطل الدورة وأنا أفضل لاعب
والهداف أيضاً. فأي فرحة في هذا العالم يومئذ لن تكون كفرحتي
بعد أن فيه من الشوات، وصرت بعدها أهد ثواني الليل ليبدأ اليوم
الجديد حتى أراهم وألقبهم وأجلس معهم في المدرسة وأخرجها،
في نهار رمضان وفي ليله!

انتهت الأنشطة، وسيكون ختامها رحلة جماعية للجماعة إلى
مكة لأداء العمرة، وعلى من يريد الذهاب أن يأتي بموافقة والده،
ووالدي يستحيل أن يوافق، فصمت كل ما يمكن صمته لإقناعه
بذلك، لكنه أخيراً أقسم لي إنني لن أذهب وإنني لو خالفت أمره
فسيجي في إحدى غرف المنزل، وإنني لن أرى نور الشمس بعد
ذلك!

قد نحصل في الحرمين مما نحبه على أشياء أكثر جدوى مما مكسبها لو وجدنا ما نشتهي، يحدث أن يحرم أحدنا من ركوب سيارة ليكتشف أن هذه السيارة بمجرد عيائها تهشمت بسبب عيبها، فيعود يشكر الحرمين الذي أكسبه حياته!

مضت الجماعة إلى مكة، ونقطع قلبي لأنني لم أكن معهم، وشتت والدي في عسي كثيراً، ولعبت كل الأسر والبيوت التي تحقق سعادة آبائنا باسم الأبوة والعائنة، ولولا أن الشيخ حميد قبل أن يمضي همس بأذني أنه ستكون هناك رحلات كثيرة، وأسي سأكون معهم دائماً وأن حرمانني من مشاركتهم في هذه الرحلة اختار من الله، لبرى هل أنا أحب الصالحين حقاً؟ وهل سأتركهم لأنني لم أتمكن من الذهاب معهم؟

بدأ الفصل الدراسي الجديد الذي انتظرته بعارح الصبر لأنني الجماعة وأفرادها من جديد، ورغم أنه لم تظهر عليّ علامات التدين بعد إلا أنني كنت لا أرافقهم في المدرسة وخارجها، وأشاركهم في كل الأنشطة، ولا أغيب عن حضور شيء مما يفعلونه ليلاً أو نهاراً، وعلى أسرني أن يدفع نفس حرمانني من تلك الرحلة بأنني لن أكون إلا مع هذه الجماعة كل الوقت إن أمكن!

كانت للجماعة أنشطتها اليومية كل صباح داخل المدرسة، فهناك درس لا يتجاوز الربع ساعة بوقت الإقذار، وهناك صلاة الضحى والجلوس معاً وجو الإحاء والحب، الذي لا يعدل لدته شيء، وفي يوم الأربعاء من كل أسبوع نشاط يوم كامل، لا يخرج من المدرسة إلا في العاشرة ليلاً، يتخلل برنامج ذلك اليوم اللعب والمحاضرات والأناشيد الحماسية والإخوانية والمواظب الباكية من

الجنة والدار والشهادة والموت وحسن الخاتمة للصالحين، وسوء النهايات للعصاة!

في يوم من أيام الأنشطة مع هذه الجماعة تقرر أن يخرج جميعاً للعب الكرة في ملعب خارج أسوار المدرسة، يشاركه البعض من الإحرة الكبار، وفي ذلك اليوم تعرفت إلى واحدٍ منهم يدعى يحيى. لقد كان أكبر مني بست سنين على الأقل، وكنت أحس أنه لم يأت إلا ليبرسي أنا بالذات، وشعرت معه بالاسهام والمودة البالغة، فرحبت به وبادلته الطافة. كان يحرص على أن تكون بيبي وبني ثنائية حتى في لعب الكرة يومئذ، وبعد انتهاء اللعب عرض عليّ أن يرحلني هو إلى منزلي بسيارته الخاصة فقبلت، وفي السيارة أخبرني أنه يحب أن يكون صديقين دائماً وأنه، بفضل لو ينفي باستمرار، وأن تأتي إلى أنشطة الجماعة معاً ويمضي معاً. لقد كنت أشعر أن كل شيء في ذلك الوقت يمنح لي صوره، وأني معها لأكون أسعد مخلوق في هذا العالم!

وبالمعل كان يحيى يأتيني يومياً وكنت ألتقيه باستمرار، وأذهب وإياه أرفاقاً طويلة بجول بالسيارة يستمع إلى القرآن، وربما يكب معاً، وربما جلسا خارج المدينة فوق تل أو رابية، يحدثني عن الآخرة وأنه يحلم لو التقيا هناك في الجنة، ولو أننا نكون في ذلك العالم صديقين حميمين كما نحن الآن في هذه الحياة الدنيا الرخيصة والمريفة واليالة، والتي لا يهتم بها إلا العصاة والكافرون، أما الحياة الحقيقية فهي هناك. هناك فقط!

صت نهاية السنة الأولى على وجودي في هذه المدرسة وكذلك انضمامي إلى هذه الجماعة، التي أعلنت أنها تعترم بعد

نهاية الاحتمالات القيام برحلة خلوية تستمر خمسة أيام، وعلى من يريد أن ينضم إلى هذا المحيم أن يسجل اسمه وأن يأتي بموافقته والده، وهكذا لن يقف بوجهي أحد هذه المرة لأشارك الجماعة في رحلتها .

هدت إلى البيت وقلت لوالدي بكل جرأة سأشارك في هذه الرحلة فقلت أو لم تقبل، وأقسمت له إنه إذا لم يأذن لي أن أكون مع هؤلاء الصالحين سأهرب من البيت، ولن يراني ما دام حيًا، فسكت والدي ولم يجيبني بكلمة واحدة، وحتى يكون موقعي صامياً، فقد رُوِّرت توجيحه على خطاب الرحلة، وشاركت في هذا المحيم حتى دون أن أقول لأي من أهلي كلمة توديع . . المهم أنني فعلت ما أردت، وذهبت إلى المحيم مع الشيخ حميد، وصديقي يحيى وبقية أفراد الجماعة!

بدأت فقد شاركت في الرحلة مصراً على دخول هذا العالم رهماً من الجميع، فبعض الأبواب صنعت للكسر، لا للفتح! ما كلما نستقر في المكان المعد حتى دخلت جزر المحيم، وشعرت أنني أمتلك القلب بحدائقها، فهناك الحب والإحسان غير المشروط والنصحيات والإرشاد والحشوع وقيام الليل الروحاني وقرءة القرآن والعلم، ولحق فقد كان بدء هذا المجتمع صموجاً بشوائب مثيرة، فيحدث أن يتضام الناس ويلتصق تماماً تحت غطاء الحب في الله!

لم يكن عندما يقف من الأرمن، يقف في إحدى «الملوات» التي احتيرت لتكون مقر المحيم الذي سيستمر أربعة أيام أو أقل أو أكثر من ذلك، وبصحبنا عدد لا يقل عن السبعة من أبناء الجامعة الذين لا علاقة لهم بالمدرسة، وإنما جاؤوا للإشراف على دعوة الطلاب الصغار وإدخالهم إلى ما هم فيه من فكر وعمل، وكان وجودهم في هذا المحيم بتسيير مع المعلمين المشرمين عليه! صباحاً يتعاون الجميع على نصب «الحيام الأربع»، يتصدرها «المرادق الكبير»، لتأخذ الشكل الحساس تاركاً ساحة كبيرة ما بين الحيام الأربع والمرادق وفور الانتهاء من ذلك يتنادي قائد المحيم،

والفلامي بحماسة إلى هذا العالم الجديد الجميل شاركت في المباراة بكل حماسة وإقبال، إذ كنت ما أزال أعيش بشوة الذنب الرمضاني، وما هي إلا البداية حتى قيل حمي الوطيس وبادى المشرف الرياضي «تذكروا» رحم الله امرأاً أرانا من معسفة قوة». وفي واحد من الاحتكاكات سقطت مجدلاً على الأرض وتمزق ثوبي، وبالطبع لا بد أن أسمع «اعشوشوا» فإن السعم لا تدوم! ما كنا يلعب بغير الثياب، فارتداء الملابس الرياضية من حوارم المرونة، ومبطلات الصلاة، وفي ذلك شبهة بأهل السوق والمصبان من لاعبي الكرة ولغيرهم. ولأنني خرجت من المنزل كاسراً أمر الوالدين فلم يكن عدي ملابس أخرى غير تلك التي تمرقت، وبألمعاجمة، ساضطر إلى ترك المخيم وأعود إلى البيت لكن بحسب إعطاني ثوباً من ثيابه، ليألف قلبي، وسجل له عندي هذا بضءاً

لست ثوبه وكنت ولله في طولي متسلو، ولأول مرة أرى ميسي بثوب السنة، عني رأيهم، عما كان يتجاوز منتصف الساق، وتهمل وجه يحيى غرضاً فقد أهد الله عفتي وما دوماً بثوبه من البار، لأن الثوب الذي يتجاوز المقيس يفتح أبواب جهنم على لابس، وأحسست يومئذ أنني ارتدي جلدأ جديداً وأنني أتموزن لأكون شيئاً آخر غير ما أنا هو قبل ذلك الوقت، فلم يكن ما ارتديته مجرد ثوب مستعاراً

غربت الشمس، وارتفع الصوت مؤذناً بصلاة مغرب ذلك اليوم، ووقعت في الصف بشخصيتي، ثوبي الجديد قبل إقامة الصلاة بهمس في أدبي يحيى، الذي يقف بجواري، يقول

أنت تصلي حاسر الرأس، وهذا ما لا ينبغي أن تفعله بين يدي الله، فلا تخرم مروءتك والبس الشماغ، ثم يرفع يديه إلى السماء ويسائل الله لي الهداية بكل حصوع، وأن أستمع إليه متأثراً بما يبدو من حبه لي وصدقه معي، وشعرت يومئذ بلغة كبيرة للصلاة والخشوع والعبادة

تؤدي صلاة المغرب، ثم يجلس الجميع أمام تلك الستارة، التي يراد مما ورامها أن يكون مسرحاً، لتقدم مجموعة أخرى من الطلاب حملاً ثقافياً ساهراً الشيد الحماسي اشبهاه إلى المعالي، وشيد ابن مسلمين الله واحداً، ثم مشهد كوميدى تدور أحداثه حول مراقبات الشباب المعافلين ولعب البلوت والترول بالأغاني، والمشهد الأخير مشهد الحبيب والنوح (فيمنع السناد على شاب أعرج من صحبة جماعة التوعية، واصطحب غيرهم، ثم يفعل السناد على صوت حادث سيارة عيب (بستخدام المسجل) ويفتح السار من جديد، لكن هذه المرة على مشهد الجذرة المسجاة أمام الجميع، محتلين نهاية الواقفين بطريقهم، ويعلو صوت المسجل بسورة أقاف، ثم يقف ذلك شيد روحاني مؤثراً) نحتظد بصح المحيم بالصراخ والكاء، ويقف أمير الرحلة بعد المشهد متحدثاً عن الحيات، والعقارب، والبار، وسوء الحاتمة

نرى ما الذي يملكه مراقق في السادسة عشرة من عمره، يرى مشهد السكرات والموت، تحتلظ مع عتب المشهد وإرهايه الآيات والحبيب يا الله، كم يكبت تلك الليلة التي أذكر أنني وقتئذ ارتعيت لائلاً يحيى مرتعباً هلعاً

بعد صلاة العشاء تناول الجميع العشاء المتفشف، وعاد الأفراد إلى أسرهم ليبحثوا قليلاً من الجو الإحتوائي الحزين، وفي العاشرة يؤمر الجميع بالحلود إلى مرشهم، ثم يستدعي مسؤول الحراسة ثلاثة طلاب من كل أسرة، وشكل مجموعات الرباط والحراسة لثقتاسم ساعات الليل بالتساوي ويوصيهم، إذ يحجب وقت كل مجموعة، أن يشغلوا ليلهم بالرباط والساوب على قيام الليل وبعد يوم الجميع يقوم أمير الرحلة باستدعاء ستة نفر من الأشداء الأقوياء بقباه أحد الجامعيين، وتعد خطة الهجوم الليلي على المحيم، وبالتسيق مع مشرف الحراسة يخرج هؤلاء البحر إلى فلاة قريبة حتى يحين وقت الهجوم عند الساعة الثانية ليلاً

يحطط المهاجمون المرأة وينقسمون إلى ثلاث طلائع تدعم الحراس من ثلاث جهات، طواحدة تشمل الحراس بالعراك، والأخرى تأخذ بعض الفنائم، والثالثة تحطط أسيراً، ثم تكون العودة إلى المقر الذي انطلقوا منه، حيث توجد سيارة بضمون فيها الفنائم والأسير، ثم يطلقون هاربين، وهكذا تعد الخطة الهجومية بري جهادي، ويكون ما كان ويحدث الصدام والعراك والأسر، وغالباً ما تحدث إصابات شديدة جراء الانهماك في جو المرو والمعرفة، وتستمر الليلة حتى يستيفظ المحيم من جديد لليوم التالي كان قائد المحيم بأمر بإعاطا كل ليلة قبيل الفجر لحبيها بالقيام والوتر، فنصلي ركيعاب فافنة، ثم مجلس متقاربين ملتصين بعضنا ببعض، مقاوم برودة الشعر بههمة الأيات القرآنية والدعاء ثم يؤمر أحد الصفار، من ذوي الأصوات الجميلة، يرفع أذان العجر، ويقف على صخرة قريبة مناء، ويصيح بالأذان ثم

يخطف الجميع للصلاة العدة، صلاة العجر هكنا كانت أجواء المحيم، حتى آخر لحظة من والتي هي أنساها وأجملها في الموسم وأبقاها في الذاكرة نتهي الرحلة في جوً يئس من الوداع المصبي، إذ عرق الجمع في العاقات المحضبة بالدموع حتى جاء الروح، ووقت كانت الشمس تعيب وكيما سيارات الكبار من المشاركين في المحيم فأقبلن إلى بيوتنا!

كنت مع يحيى، وطول طريق العودة كان يحدثني عن الصدع بالحق!

وقبل ولوج المدينة قال لي إنه يريد زيارة صديق عزيز عليه، واتجه بالسيارة إلى مكانٍ مقفرٍ موحش إنها المقبرة والأموات! ماذا موديل ٨٢، ويملكها يحيى وأنا، تتوسط المقبرة، وكل غمقات قلبي إلا يظن يحيى مصاحبها، لكنه فعل، ومدّ يده إلى المسجل ورفع الصوت، (شريط هادم اللذات يتحدث عن رحلة العذاب ما بعد الموت)، المنحدث يصرخ "وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد"، يبكي يحيى، والريح الباردة يمت كل أشيائها لتضطرم بالموافد الرجائية وتحدث صميراً محيماً وفي حلقة الظلام يرمي لي بالهبوط، ثم يومى، . إذن لا خياراً قربان توأمان، مضطربان لما يسكنهما أحده قال لي: «اهبط، واضطجع، وبك، وحف ما استطعت، فإله لا يجمع على عبده خومى.. هنا تؤول، وهنا تصير، وترى مقعدك من النار، فأبك، وخف ما استطعت!». .

نزلت وكنت في حالة تشبه حالة ما قبل النوبة العصبية أو التشنج، بينما يقرأ هو سورة «فأف» ويصبح بالبكاء، ولم بعد من

هناك إلا وأنا أريد أن يدلي يحيى على أي شيء أفعله لأنحو من النار ومن هذا الرعب . أريد أن يرشدني إلى ما يخلصني من عذاب الله هذا، فقبور الأموات، وظلمة الليل، والنحيب والصراخ، كانت تجتمع على قلبي لتصنع مني ما يشاؤون!

رجعت إلى البيت مملوء الصلوات باليقين... وكأني من العاطلين وحالهم في الجنة والناس من حوله يتظرون فصل الحساب!

أواه كم كرهت عائلتي وبيتي، الذي يمتلئ بالمسويات والمعاصي كما كان مشرعو المحيم يصنعون أمثاله من البيوت. لقد كان مملوءاً بالفساد من تغارٍ وصورٍ وأصوات الأعاني، وغيرها!

فصيت تلك البيئة الثقيلة مع أهلي وفي اليوم التالي وعود استبقاطي فرغت إلى يحيى لأشرح له الابتلاء الذي أعيشه، وحجم العربة التي اجتاحتني في بيت أهلي. كان لا بد أن يحدثهم عن كل ما يدور في حيواتي، لأن المزمع بلا إخوانه سيكون صعباً ومعرضاً لتدريج والفضلال. هكذا كما ملقي بين أيديهم حتى أسرار أمهاتنا وأخواتنا، لتلا يؤتي الدين من قبل!

ما يحمل عبي يحيى بالرأي، بعد أن راح يقدم ويؤخر، ويهزل ويحوقل، ثم يبتهل ويدعو على الغالبيين من اليهود والصاري والمصاة والماسفين وأهلي، وكنت أؤمن معه بصليقي وانقطاع، ووجهي بالإنكار قدر ما أستطيع. بيدي أو بلساني أو بقلبي، ثم أخرج عليهم ومنهم معارفاً دار العشق والعصيان والكفر هذه!

رجعت إلى بيتي لأطبق الحق الذي علمه المحيم ويحيى والجميع هناك، الحق الذي يرمي بالعالم كله في النار إلا يحيى أتذكر كيف صرخت في وجه والدي «أنت لا تشكر ممة الله

عليك أبداً أخرج هذا التلعاز فانت تغش أسرتك، ومن مات وهو خاشع لرحمته فقد حرم الله عليه الجنة!... ثم صرخت بأبي «والله إنك ستألي بين يدي الله عن هذه الكافر التي تربس أبنائك عليها!»

كنت أتذكر وقتئذ وصية يحيى: «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد» وأذكر شرحه لي مبدأ المعاصلة، معاصلة الكافرين والعصاة. كان علمي أن الحق إنما يظهره الله على أكسبنا، فلهذا الناس إلى صراط الله الكريم، فمن قتلوا ولا ذنبهم لا يستحقون الحياة، وكراهيتهم قربة إلى الله!

أقسمي أن أحيي الأكبر، الذي تنكر للحق والحبر، وانتكص بعد أحداث الحرم، ماجراً، حدائلي، علماني، وكل وصية معاده التكبير. أما بقية إخوتي فهم من المعصاة المصاهرة العاسقين، الذين لا شك في كفرهم لإصرارهم على ما هم عليه من المعاصي، وبعد أن حاصمتهم جميعاً بقي أن أطبق وصية يحيى فأخرج من المنزل، هارباً وتاركاً البيت والدراسة وكل شيء، لأعيش في إحدى العرف التي يعيش فيها أحدهم. لقد كانت بالنسبة إليهم فرصة مناسبة لسمي إليهم إلى درجة يستحيل معها تركي لهم!

أوصاني يحيى أن أتترك الدار، خشية الافتتان بالعاسقين، صمكت دموع أُمِّي وهي تلمسك بأطراف ثوبي، وأن أخرج من البيت، فلزاً إليهم، ولم يكن شيء أعز علي من بكاء أُمِّي!

سيلهب الجميع إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في رحلة تمتد إلى عشرة أيام أو أكثر، فكنت أفقر فرحاً وانقضت على يحيى أحاطه وأحمد الله!

كان نجاحي متواضعاً، على غير العادة في هذه السنة، كنت تجاوزت المواد كلها، لكني لم أكن ذاك المتفوق أو أفله الذي لا يحيفه أن تقرب علاماته من حد الرسوب، ولأن أهلي قد استسلموا تماماً لما أسومهم به من الصدام فقد كان نجاحي هذا مبرراً كامباً لدعائي إلى أنشطة الجماعة بالمدرسة، التي قبل لنا بالآ نسبها جماعة ولا مدرسة، بل لنسم ذلك المكان باسم المركز.

شاركت في المركز وأنشطته من أول يوم به، وحيث كنت قد انصرفت تماماً في جليابهم وصرت أقرب إليهم وهم أقرب إلي من أي شيء، فلم يعد هناك ما يمكن فعله لأكون معهم ومعهم ومنهم إلا فعلته كلاماً، وعبادة، وسلوكاً، حتى في طريقة صبحي، ومشيتي، وجلستي، وحركات أصابع يدي وهذابي، فقصرت ثوبي إلى منتصف الساق، وتركت للشعيرات المشائرة بوجهي أن تنمو وتطول، فتكون لحية أفتنها بأصابعي على طريقةهم.

كل شيء كان منهم ولهم وإلهم!

كانت تلك السنة إعلاناً صحياً سي لمصيان أسرني وإرادتها، فكم ضربت وهددت، وكم اشتكت وأحوتني، ولأنني أحمل لسان الدين المقدس فإنني كنت أنتصر نهاية الأمر، حتى على والذي الذي غصن طرفة من امتصاصي لرعي الأعمام ونوقمي من أداء أي عملي متملي بالأسرة، وكيف أسكن مع هؤلاء العاسفين الكفار كيف!

١١

يذهن المرء أشياء لا يعرف عنها سوى أنها تريجه، ولا يكثر حيث لمدهتها ولا لموقعها من الصبح والخطأ، فليس مهماً أن تصف الأشياء بين هذين الحدين، فقد تكون حاجتنا إلى الخطأ الذي لا يؤدي أحداً أحياناً أكثر من حاجتنا إلى الصواب!

إذن ممكن ما مضى كان داعياً للاستعجال التام مع هذه الشريحة، واعتقادها بواة كل خير في هذا الوجود، ولم يكن عدي أدنى شك أنهم المحصلون من وعاء الدنيا ومن جحيم الآخرة، فمن يستطيع أن يخلصني من وحدتي وجحيم عائلتي سيكون جديراً بأن اصبح بكل شيء لأحله، وأن أكون معه وله فيما يريد، فكيف وهو يخلصني من الدنيا ليأخذني إلى الله، ويقدم لي الطمانينة والسعادة والإحاء والمحبة وكل ما حرمت منه!

نهاية هذه السنة الأولى بالمرحلة الثانوية تركت سؤالاً من مصيري بالإجادة، التي تمتد إلى ثلاثة أشهر، وكيف سأقضيها بعيداً عن المدرسة التي بها سعادتني كلها، وسألت يحيى فتبسم شاكرراً لي حرصي على البقاء مع الصالحين، ثم بشرني أن نشاط الجماعة سيستمر طوال الصيف وهي المدرسة ذاتها، بل سيكون مكثفاً وفي الفترة المسائية، وسيكون ملتباً بالرحلات وفي مهابته

تركنت البيت قبل ذلك طوال شهرين، فسينهما مع أحدهم، الذي انتهت تلك الفترة بمرته غريقاً، محرق قلبه الحزن عليه مات بعد أن قضيت وإياه شهرين عتاليين، صمتاهما يوماً يوماً، ويكيما معاً وخرجنا معاً وجينا شوارع المند والقرى في سيارته القديمة معاً!

بعد موت صاحبي لم يكن لي من مكان أحرب إليه، فلا مخلص من أن أسكن في المستودع السفلي ببيت أجلي. أسد نافذته المفتوحة بلوح حشبي ويصير موثماً لأفترش به فراشاً، آتية ساعة النوم فحسب!

كنت في برد مديتي الجيلة أمام في هذا المكان الذي، تصفق الرياح بجدرانته وترثق شعري، ولا شيء أحب إلي من هذا. أن أكون على هذا القدر من الابتلاء في سبيل الله، ثم لا تكون ليلة إلا أقوم بمنصفتها للصلاة واليكاء، وأن يفتدي الله من الكفر والكافرين!

مر الشهر من المركز الصيفي بالمدرسة، وأنا لا نموني منه ثانية واحدة، وهذا يعني أنني صرت مهياً لما هو أكبر من السك والعبادة والمشاركة في الأنشطة، مجلدي يحيى ذات يوم، وحرص علي أن أنضم إلى مجموعة من الأشخاص معه، يجلسون للمذكر وقراءة القرآن وطلب العلم مرة كل أسبوع، وإن هذا من خير الخير وإن الله يعثي ذاكره برحمته وإن الملائكة تحفهم بالسور، لأن مجالس كهذه كدها مكية وروحانية، وبكل حماسة وإقبال قلت «سأنتك بالله ألا تجلسوا مجلساً من هذه وأنا لست معكم» فقال لي:

- هنالك واجبات وبحوث وتكاليف وأشياء كثيرة، فهل أنت مستعد لكل هذا؟

- إني على أنتم استعلاء أن أقدم روحي، التي بين جسي، لأجل ما يراه الصالحون!

سارت الأمور في البدء على هذه الشاكلة، فكتت أحضر إلى المركز كل يوم، وفي واحد من أيام هذا الأسبوع كنت أجلس مع خمسة أشخاص بقيادة يحيى، نقرأ القرآن ونحضر التفاسير والأحاديث، ثم نكتب تحضير بعض الواجبات المتعلقة بالكتب الفكرية وغيرها. استمر الحال هكذا حتى ما قبل نهاية المركز لييلحي يحيى بأن دوره انتهى، وأنه لم يبق بيدي وبه سوى الصداقة والحب في الله والإخاء، وأن علي الآن أن أنتقل إلى مجموعة أخرى، عبد الشيخ علي، لآسي تطورت وأصبحت صالماً لمهنات وعلوم أكبر وأكثر تأثيراً، صرحت بهذا فرحاً كبيراً وانتظرت فقط أن يأتي الموعد، الذي ألتحق فيه بمجموعة الشيخ علي. كان بدايماً، وكبيراً في السن بالسبة التي يخرب من الأربعين، وملامحه ملأى بالعموض والغرابية والحذة، لا يكاد يتسم ولا يتكلم إلا بالعلم والروح. كان مهيباً ورد دخل إلى المركز فإن الجميع يلتزمون الصمت احتراماً له!

في أحد أيام المركز صامحي وبسسم لي، وسألني عما إذا كنت سعيداً بوجودي معه، ولهيته في نفسي لم أكن لأجيد الحديث فإطرت مبتسماً، ثم قلت له:

- حتى آتيك يا شيخ؟

- ستخرج معاً بعد نهاية أنشطة المركز هذه الليلة لتحدث،
وليعرف كل منا الآخر أكثر!

ليلة ملأى بالرحمة والرحمة، فأنا الحائض المرتبك إلى جواره،
الراهي بمكني، وعلى صغر سني أجول بالسيارة مع هذا الشيع
الذي يهابه كل من في المنطقة - تحدثنا طويلاً، وسألني عما
أستطيع تقديمه للأمة، وأحبرني بأنه يتبعني مد البعد، وأنه معجث
بي، وسعيد لأنني سأعمل معه في حلقات الذكر الخاصة به!

أوصاني وأوصاني، ثم أعادني إلى بيتي، واتعقنا على أول
لقد سيجمعي به وبالمجموعة الجديدة، التي سأجلس معهم،
تحت قيادته وتوجيهاته وتعليمه وتربيته!

حدث هذا، وحسرت أكثر أفراد المجموعة التراماً بالوقت،
وحضوراً وحفظاً للقرآن، ونادية للتصير، وقراءة للمكتب، التي
بكل قراءتها وتلخيصها وإعداد كل ما يطلب منه، وكان يشد بي
بينهم ويقول بأني تجاوزت الدهر مبقوني في هذه الحلقة بسير
شاهراً وإقبالاً، وبعد مرور أربعة لقاءات أخبرني أن هذه اللقاءات
ليست مجرد حلقات ذكر، بل هي فوق هذا عمل سرّي عظيم على
مستوى المساطق كلها، يهدف إلى إقامة كيان جديد، على هذه
الأرض، يحكم بشريعة الله وسنة رسوله وتحفظ لهم دول الكفر
والظلم، وتعمل لإعادة المجتمع إلى حياض الدين وإخراجه من
جامعيته، ثم حدثني عن سرية هذا التنظيم ومدى خطورة الحديث
عنه، أو البوح بأي شيء يخصه!

يا إلهي أي مجدي هذا الذي أنا فيه، فمن كل حرمانتي الذي

مضى إلى جدي في سبيل الله، يحطط ويعمل ويقدم ويؤخر
لإقامة شريعة الله بدولة جديدة - ها أن بعد كل هذا من الطائفة
المصنوعة التي يصورها الله من بين كل الطوائف، ومن العرق
الساحية التي ستذهب كل العرق عذاه إلى النار، وأنا من الذين
يحدثون للأمة فيها، ويخرجونها من الظلمات إلى النور،
ويحبونها بعد موتها!

مستشفى (أو مستشفى) أخصائيين.

www.taw.tv.com

أظن أن الأماكن التي نحياها هي تلك التي نجد أنفسنا فيها، أو هي تلك التي نسبح من خلالها، وكرامتنا للأماكن حتماً ستكون بسبب إحصائنا فيها!

تبرير ارتباطنا في حالة الحب يفسد بعض جمال هذه اللحظة، وتبرير مرورنا في لحظة العور يحمي وطأة الكراهية. إنني أفتش عن التبريرات حين لا أحب فقط!

حديث خاطف عن المركز..

لا يختلف المركز بأنواعه، مركز نهاية الأسبوع، أي يوم الأربعاء، المركز الرمضاني، المركز المستمر طوال فترة الصيف، في أهدافه من المحب، بل إن المحب العنوي ليس أكثر من نتيجة لما كنا نلتفد طوال فترة مكوثنا في هذه المراكز. أيضاً للمركز أمية أو المشرف عليه، وغالباً ما يكون المعلم المسؤول عن أنشطة جماعة التوعية، ويقسم الطلاب فيه أيضاً إلى عدة أسر، وبأسماء مشابهة ولها الإيماءات ذاتها، وتدار المحفلات الدينية والمكرية والأنشطة الرياضية العيمة نفسها، ويميز المركز أنه يحقق، نظراً إلى طول الوقت الذي يقضيه الطلاب فيه، محالاً أكبر من الاسجام بين مجموع المشاركين، ويحيلهم إلى منظومة واحدة

يحكمها توجية واحد يتمثل في المسؤولين عن المركز من أمية وبقية المشرفين من المعلمين المشاركين وطلاب الجماعة، الذين يتولون قيادة المجموعات الحدودية الصغيرة، وتنقيتها المسبح الفكري وربطها بالمسؤولين الكبار، في سلسلة هرمية تنتهي إلى أن يدبر العمل كله في المنطقة بأسرها لجنة مشتركة أو شخص واحد، يتولى شؤون جميع المراكز في منطقتة أو منطقته.

في مراكز كهذه كما نتعلم أن كل العالم كافر، وأن الإسلام الحقيقي قائم على مفهوم الولاء والبراء، الذي يعني موالات المسلمين والبراءة من الكافرين، بل موالات من هو على عقيدتنا وروايتنا من مذهبنا في الإسلام والبراءة ممن هم على غيرنا

كانوا يدخلون إلى شعباننا عبر طرقات، أحدهم: استعمال الجاذب الوجداني، عبر الترهيب والترغيب، والطريقة الأخرى هي ما يكلفوسا إياه دحل المركز وخارجه من البحوث والدروس والمشاركات، وما يلتقي عليه من المحاضرات والكتبات، وغير ذلك! وينتهي المركز، وقد خرج المشرفون الحركيون عليه بمجموعة كبيرة جداً من الطلاب المنتمين إلى اللقاءات الأسبوعية الحركية، وأصبحوا مهيتين مجسدين لشعيد توجه هذه الجماعة، وبدرجة عالية جداً من الولاء، والأصفاة حبالها بعكسة الطائفة المصورة والعرق الساجية، وغير ذلك أيضاً، وكنت أنساءل كيف يؤمنون المراكز والمحييات والرحلات حتى علمت أنهم يأخذون أموال الدولة، متكئين في سرقنتها على الفتاوى الواعية من تكويري بعض الدول المجاورة، التي ترى أن سرقة مال الدولة الكافرة لمصلحة الدعوة والجهاد أمر يحبه الله ويرضاه!

ثلاثة أشهر، هي صيف ذلك العام، مضت وجلت نهاية المركز الصيفي، وتعين الرحلة إلى مكة المكرمة للعمرة، ثم إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد النبي، وقيور الصحابة، ومباني المعارك التي خاضها المسلمون بالمدينة!

كنت معهم في تلك الرحلة التي تليذت أيامها بكل ثنية فيها، عبادة، وإحاءة، وعالم روحاني، لا سيما أن الرحلة عن طريق البر وكلنا في تلك المركبة (الباص) مملأ المسافات بالأنشيد والقرآن والذكر والحب في الله، وموجئت بأنهم يصعبوني، في تلك الرحلة، قائلاً لمجموعة من الطلاب الذين شاركوا في الرحلة!

كانت رحلة لم تمر بحالاتي ولا بأحلامي، أنني سأعيش متعتها ولذتها، فمن طواف بالكعبة ويكأ عذها، إلى ليالي من الروحانيات في الحرم، إلى وقوف أمام قبر النبي بالمدينة المنورة، إلى رؤية قبور الشهداء من الصحابة، إلى تجوال في ميادين المعارك التي قتلوا فيها، إلى زيارة لمار حراء الذي بعث النبي بالوحي منه!

ومرة أخرى عدت من هذه الرحلة وأكثر نقطة في هذا الكون بعضاً إلى قلبي بيت أهلي المليء بالمحاسن والكبر، ولتعود العلاقات والمساخرات بيني وبينهم من جديد، ولعظيم ما بي من الإقبال على هؤلاء والإدبار عن أهلي، حدثت الشيخ علي المسؤول عني عما أحيته فأمرني بترك البيت مجدداً، والنوم في المساجد، وسيعطيني ما أحتاج إليه من المال، فامتثلت لأمره وخافوت بيت أهلي!

من لا يقف أمام المرأة أعمى، وأعمى ذلك الذي لا يرى في المرأة غير وجهه..

ثمة عيان يملكون عيوناً جميلة وصرأ حاداً!

يمكن القول إنه بنهاية سنة ٨٩ بما فيها من أنشطة مدرسية ومركز رمصاني وصيفي ومحيمات ورحلات إلى مكة والمدينة ولقاءات خلوية وانضمام تدريجي إلى هذه الجماعة الحركية وبحلول السنة ٩٠ أكون قد صرت حصاراً ذهباً حركياً سكيناً حالصاً، وموق هذا كنت لملأ كبيراً ومفاجأة لهؤلاء، الذين اعتبروا ما أقوم به من أنشطة وجهد وإحلاص مؤدماً لشخصية قيادية، يمكن أن يهين الله على يديه أمراً ما بهد العالم، أو أقله بهذه البقعة من العالم ريادة على هذا فقد اتيجست بداخلي موهبة شعربة، وصرت ببعض ما أردده وأكتبه على بدائيتي وضعه شاعرهم المجيد، وطالما جلسوا إلي بوجهون عبه الموهبة ويصرفونها إلى المحييت من الأمة وهمومها، وإلى الله والدعوة إليه!

في اليوم الثاني من شهر ٨ تلك السنة يدخل صدام حسين، بجيشه محتلاً الكويت، ويستعد الكويتيون، الذين تدافعوا هرباً عن البر إلى السعودية وأيضاً فالجيش العراقي حينئذ بدأ

بالدخول إلى الأراضي السعودية، وهذا يعني أن المملكة تواجه حرباً مع العراق، وبالتالي يصدر الملك قراراً يتوقف الدراسة، حرصاً على الطلاب حتى تنتهي هذه الأزمة!

استمرت الحال هكذا عدة شهور دون دراسة، فكانت فترة حركية مكثفة مع الجماعة، فترة ملأى بالقراءات واللقاءات والواجبات. وبالطبع كنا نعتقد إثر تعاليم الجماعة بكفر الحاكم، وكفر الدولة كلها، وأصبح كفر الدولة ووجوب هلاكها بيتاً، لا سيما بعد استعانة الملك وإخوانه بالقوات الأميركية وهزات التحالف الكافرة من اليهود والصاري لإخراج العراق من السعودية والكويت!

كان لمن علماء الدولة النسييين، وتكفيرهم وشتمهم، أولئك الذين أفتوا بحوار الاستعانة بقوات التحالف، وأيدوا الحكومة السعودية على قرارها، أقل ما يمكن توجيهها إليه، ثم كان ما كان وانتصرت قوات التحالف ومسحبت الجيش العراقي، كل هذا حدث في تلك السنة والتي تليها، أي ما يقرب من ثمانية أشهر، ثم فرض الحصار على العراق!

في تلك اللقاءات الأسبوعية أثناء الحرب كما يدرس الكثير الكثير من الكتب، لكن أبررها ما كنا نتيحه، إما يومياً وأما تكلف إعداد أسبوعياً، كالمذكرات التي كان يرسلها المعارض «م» وما يقدمه بدائلها من الفصائح التي يرغم أن الدولة ترتكبها، وكان لحادثة خروج مجموعة من النساء في تطاهرة، بطالين بالسماح للمرأة بقيادة السيارة، نصيب كبير من نقاشاتنا وحواسننا لما يريد أن يصل إليه العلمانيون في بلادنا!

ومن أهم ما في تلك الأشهر قراءتنا الموكزة لمذكرات كسجر، أما المهج العلمي الذي كما يربى عليه، ويكرس لعكرها من خلاله، فيتملعل مما عبر العديد من الكتب على رأسها كتاب الله وتفسيره من (ابن كثير، هي ظلال القرآن الكريم - الحج)، ومن الكتب أيضاً بعض كتب الأحاديث وشروحها (فتح الباري، شرح صحيح البخاري، الأربعون النووية، جامع العلوم والحكم - الحج)، وبعض كتب السير (سيرة ابن هشام، زاد المعاد في هدي خير العباد، هذا الحبيب يا محب لأبي بكر الجرائري)، ورسائل محمد بن عبد الوهاب، وبعض كتب الفقه (الطحاوية)، وبعض كتب الفقه مثل (عمدة الأحكام، رد المستفيع)، وجميع مؤلفات سيد قطب، محمد قطب، وسلسلة محمد الراشد (العوائق، الطرائق، الرفائق، صاعقة الحياة)، وكتب الهندسة النفسية مثل (أفاق بلا حدود) لـ محمد التكريتي، وكتب الثورات ودراساتها وتحليلها مثل (حركة النفس المركبة)، وأيضاً بعض الكتب التي تساوئ التيارات الفكرية والدينية والمذهبية، مثل (العلمانية)، (موسوعة الأديان والمذاهب المعاصرة)، وكذلك بعض كتب التكفير مثل (الكوائف الجلية في كفر الدولة السعودية)، وكل ما يكتب ويتعلق بالأسرة الحاكمة (آل سعود)... ومما كنا نكلف به، على الدوام، متابعة الحركة الحدائيه بداحل السعودية، ومتابعة كل ما يكتب ومرورها، وقصه وجميعه ومناقشته، وإثبات كفر هؤلاء الحدائيين، وعلى رأسهم عبد الله العناني، وسعد البازغي، وسعيد السريحي، ومحمد الزهراني، ومحمد رايد الأكمعي، وعلي الذمبي،

وعبدالله الصبحان، ومحمد الثبتي، ومحمد جر الحريمي.
والقائمة تطول!

كان احتمالاً بكتاب ع.ق، الذي طبعت منه ثلاثون ألف نسخة كطباعة أولى ونفذت تماماً، احتمالاً كبيراً، وكان شاهداً ضحماً على كمر شعراء الحداثة ومطريها، ولا نسي أبداً تلك المحاضرة التي تصدى فيها ع ق للمعكر والروائي مركي الحمد ويطولته في تكبيره أمام الناس بمدينة أبها!

كانت تلك الفترة بداية حقيقية للتكبير المعلن، وبدايات المتأوى القاتلة، والمتأوى التي تنتهي بردة البعض من ماضي المملكة وشعرائها وكتابها ومعكريها، في تعاضل من الدولة، ودعم من المؤسسة الأدبية الرسمية!

أربعة أشهر من تلك السنة هي الموجلة من الدراسة، وهي التي كانت الجماعة تدرس كل ما حدث سياسياً ونفساً خلاصة رأيها، وأربعة أشهر من الحياء الدائمة مع أفراد اللقاء الأسبوعي عاطفة وانتماء وفكراً وكل شيء، ما يحول بيني وبينهم سوى وقت النوم، وأعود لأنام في المستودع الذي كان أحب إلي من الدنيا وما عليها!

تعرفت معهم إلى كمر الدولة وسيرها السياسي، وكمر الحداثيين ويطولات المشائخ الديين (ع ق، س ع، د ع، م م) الذين كانوا رموراً لهذا العمل وحملوا على عاتقهم فصح الدولة التي يعتقدون كمرها، وفصح العلمانيين وكل من يسير في ركابهم، وكم كنا سمجد شجاعتهم في الحق، وصبرهم على السجن وما تسومهم الدولة وتواجههم به!

في تلك السنة لم أترك وسيلة يمكنني أن أفعلها لأفزع أهلي بأن يشتروا لي سيارة إلا فعلتها، لكن أبي رفض تماماً، ثم كان أن عرض عليّ أخي الأكبر، الذي لا يساورني شك في كمره، أن يشتري لي السيارة مقابل أن أترك هذه الجماعة، وهؤلاء المتديبين، فرفضت في البداية، لكن الشيخ علي، رئيسي بالجماعة، قال لي: «إن الكذب على مثل هذا الكافر جائز، فقل له إنك ستعمل، حتى إن أعطاك السيارة فسررها للدعوة والعمل في سبيل الله» ففعلت لأخي وقلت له بأنني أقبل ما يشترطه.

اشترى لي أخي السيارة، ومن أول يوم هربت بها إليهم، وكلما حاول أن يستعيدنا فررت بها مرة، وهدده بأن هذه السيارة لي وأنها مسجلة باسمي وأني سأشكيه بشرطة، فيشتكي ويصمي بالمخادع والكذاب ويشتنم الدين جعلوني أخوان أخي، وكنت أود عليه بأنه كافّر وفاسق وأن دعوته وفتنائه يرميها الله بوجهها

تحطمت السيارة تماماً في حادث مروري بعد خيانتني لأخي بشهرين، وحينئذ كان من المستحيل أن يشتري لي أحد من أهلي سيارة بعدها، ويأتي بي الشيخ علي بسيارة وقبل أن يعطيني مفتاحها يقول لي:

- هذه السيارة اشتريتها لك الجماعة لتعمل ولتستخدمها في

الدعوة والطاعة وتحميد ما تؤمر به

- سأحافظ عليها، ولن أسير بها إلا لما يرضي الله ويرضي

الجماعة عني!

ثم سلّمت الأمور على ما سلّمت عليه في العام المنصرم، فقد

شاركت في كل الأنشطة، وفي المركز الرمعياني، وفي المحميات، والرحلات، وأخيراً بالمشاركة في المركز الصيفي، لكن في المعهد الديني العلمي هذه المرة، لتكون فرصة جديدة للتعرف إلى هذا المعهد الذي سمعت عن المسير إليه وشاغلهم الكثير الكثير!

١٤

الصوم لا يرى البيضة التي يتحلّق داخلها، وحتى يراها لا بد أن يعضها أولاً بمثاقره!

إذن فلا يمكن لأحد أن يمي شيئاً وهو داخله، عيب أن نخرج من الأشياء تماماً حتى نستطيع استيعابها. لا أدري كيف ينظر أوبشك، الذين خرجوا من الأرض إلى الفضاء، إلى الحياة وقضاياها وأفراحها وآلامها، أفهم يرون كل الأشياء صغيرة ومضحكة، مثل هذه الأرض التي يرونها من فوق - حقاً تفقد أشياء كثيرة قيمتها حين نخرج منها وننظر إليها من فوق، وفي المحطة ذاتها فإن يبقى رهائن لما لم نستطع التخلص منه ولا نتجاوزها!

المركز الصيفي في المعهد العلمي . .

المركز الأصخم في الجنوب كله، مركز المعهد العلمي، وأكثرها شهرة وموقداً، وبه عدد من الأسماء التي يحلم صمير مثلي أن يلتقيها وأن يكون له بها صمة وعمل، وهذا ما حملته لي الإحارة الصيفية الثانية، فالمسؤول المباشر عي، علي، وجهي للمشاركة هناك للاستفادة من أجواء المعهد العالي بالجدة

١٠١

١٠٠

والعلم، والعتيمير أبناءه بالحماصة والعمل الدائب كنت سعيداً أياما
سعادة وأنا أعيش كل هذه اللحظات اليومية، فهذا في المعهد يلزم
الطلاب أن يكونوا على قدر كبير من التقوى والعبادة والعلم، حتى
لو على سبيل الرياء والسماع، ليحجروا أماكن محترمة في أعين
الكبار، لاسيما في دهن الشيخ المشهور جداً، الشيخ ع. ش. الذي
كان مسؤولاً عن المركز، وعرفت فيما بعد بأنه أحد كبار رموز
العمل الحركي التنظيمي، على مستوى البلاد عموماً وعلى مستوى
المنطقة خصوصاً!

قرأت وقرأت في تلك الفترة، ولأقل في تلك السنة، ما لا
أعتقد أن أحداً في عمري حينئذ قرأه إني لا يكاد يمر بي اسم
كتاب ديني من ألحاح الحلي الوهابي أو المكر النكيري ثم أقرأه،
بل ثم أناقشه، فعلت كل هذا، وأنا في السادسة والسابعة عشرة وما
بعدها، وهذا ما جعلني لا فتاً ومحطاً لأنظارهم واهتمامهم كباراً
وصغاراً، لتبدأ بذلك صداقات جديدة مع إخواننا في المعهد
العلمي..

موسى أقربهم إليّ، فعلت وإياه من الألفة والصداقة أن كنا
نعنو وبروح معاً، وكنا يلتقي في الثالثة كل فجر لنذهب إلى مسجد
عبد الله الأفغاني نقرأ على يده القرآن، الذي أتممت حفظه على
يدي هذا الشيخ هناك، وقرأت المصحف بروايتين عنده أيضاً..

ارتبطنا معاً وجدانياً في هذا الإطار المعروف عن العالم الكافر
الملهي. بالطغيان والمعاصي، وبلغ تمسك كلياً بالآخر أنه كان شيئاً
معتاداً أن نسمع أن اثنين من إخواننا كشف أمرهما، وهما بتبادلان
شهوة، فعمد بالله مما فعلاه، ونكرهما ونهجرهما، ثم يجتهد

الكثيرون في أن يحضروا، ما يستطيعون إخفاءه، مما يدور بينهم،
وهي لحظات النجلى والصراحة يعترف بعضهم إلى بعض، فيكون
ويتعاهدون على الثوبة، وألا يفعلوا في شيء من هذا بعد مجلسهم
ذاك!

هناك آخرون كانوا معي وموسى، فكنا مغممين بالحب
والإخاء والمناخ الجياشة، ولقد كان اقترابنا بعضنا من بعض
لدرجة تمثيلنا فريقاً نجلس الأوقات لتكون معاً، ولبالع ما كانت
حماستنا فاعلة وضخمة أننا كنا نشكل جهة نقف أمام بوابات
المركز، وحين يمر الشباب الآخرون من غير المتدربين، وأصوات
الموسيقى بسياراتهم، نوقفهم ونعشرش بهم، وكثيراً ما اعتدينا
عليهم وضربناهم!

في هذا المركز تعاقب على أذهاننا وأرواحنا هذه أشخاص من
حركتي المعهد ومطاميرهم تنظيمياً دقيقاً، يكرسون مفاهيم متعددة في
دواخلنا، وكان لأسطورة حديث الشيخ ع. ش. ما يجعل نغمه
لدينا سحرياً، فكانت له كل ليلة، بعد صلاة العشاء، ربع ساعة
بسموها بالوفعات، يتحدث فيها، والجميع في دهول مما ينطق به
وبالطبع يحتل الموت والحديث عن الآخرة مقدمة كل وقفة،
وكيف يمكن للمرء أن يتعامل مع الموت بترويض نفسه على ألا
يحافه، بل ليتحول في أحماقه إلى أسيرة وحلم، حتى أنه كان يبدأ
ع. ش. وقفاتة بالدعاء «اللهم مرقباً كما تحب في سبيلك».. وأيضاً
فنن القضايا، التي تعاد وتعاد دائماً بطرق كثيرة ومتعددة ومتنوعة،
قصية الكفر الذي تتخبط فيه المجتمعات والحكومات كلها في هذا
المرس، والإصرار على أنه لا توجد دولة تحكم بشريعة الله وسنة

رسوله، وأن الدول الإسلامية باتت أكثر شراً حتى من دول العرب، فهي الجاحدة بعد أن جاءها الحق وأنكرت ما عرفت، واستبدلت كلام الله ورسوله بالقوانين الوضعية واحتكمت إلى الطواغيت فيها، كما يرددون، جاهلية العصر، الجاهلية التي تجاوز استعدادها للدين الجاهلية الأولى، جاهلية أبي لهب وأبي جهل، والوليد بن المغيرة!

أيضاً الولاء والبراء، الولاء للصالحين، ومن هم الصالحون؟ إنهم من يسير وفق هذا المنهج الذي كانت الجماعة عليه، أما غير هذه التوجهات فهي على صلال كبير، بل إن كفر الشيعة لم يعد مسألة تثير اختلافاً، إنهم على كفر بيت، فهو الولاء لنا، والبراء ممن ليس معنا، واعتباره إلى سوء المصير. لقد كان فيما نستنبطه من كتب الحركات الجهادية في بلدان أخرى، ونشرات بن لادن والظواهري، والجهاد الأفعاني ما يجعلنا على إيمان لا يخالفه شك بأن الإسلام دين غريب في هذا الزمن، وأن أكثر معتقبيه ليسوا حقيقاً عليه، وحتى العارفين به منهم كالفابيين على الجمر، ولا يكاد يسجو من العنة واتباع الشيطان إلا من اصطفاه الله بعنايته!

امتلات صدورنا بالكراهية، ليس على العرب والحكومات كلها فحسب، بل حتى على مجتمعا وأهاليا وإحواسا، ولم تكن حكاية فلان، من أصدقائنا، أنه اعتدى على أحد إخوانه، أو أنه هرب من بيت والده، أو حتى أنه شتمه ووصمه بالكفر وأنه مه براء، شياً غريباً، وكانت تمر السنة والستاد وأنا لا ألقى على إخواني النخبة، ولا أكل معهم ولا أركب سياراتهم ولا أحضر أي

شيء مرتبط بالأسرة معهم، وكنا نتجالس أنا والبعض من أصدقائي المتدينين، فيصف كل واحد منا كيف ضرب أحد إخوانه أو قريبه، أو ابن جيرانهم، وخيرنا ذلك الذي اعتدى على الحادمة الأدوبسية، لأنها لا تغطي وجهها، وكيف ركلها بقدمه في ظهرها، وشتمها بـ «يا عدوة الله!». هذه الأجواء التي سحبتني إليها المعهد أنستني عرثتي الأسرية والاجتماعية، التي كنت أعانيها فقد استعيت بهم تماماً عن أي أحد آخر، ألبا كان، أم أم، أم أبا يكن! فالقراءات التي تعذيبها بصرامة الموقف وحديثه، تجاه كل ما في الوجود سوانا، والمركز في المعهد، والأصدقاء، والحوارات والنقاشات، واللقاءات، والنظور الذي تشهده أيامي يوماً إثر يوم كان كاباً لتحديري، وأن يكون حجاباً مكثماً، لا أستطيع معه رؤية أي شيء جميل، عبر ما أعيش داخله وما أنا مفتون به، ثم شهدت نهاية المركز تلك السنة أهم الانقلابات في سيري معهم، فبعد أن كنت مريداً أتلقى العلم والأفكار، أصبح من المصائب الآن أن أكلف مهام قيادية على مستوى الجماعة، فكلمني الشيخ علي أن أوعي ثمانية أشخاص من الطلاب الجدد، وأن أقسمهم إلى مجموعتين، أتولى تربيتهم، وتلقبهم ما لفتته أنا في البدء، وبالطريقة نفسها، ففعلت وصممتهم إلي، ولأنني كنت مؤثراً كما يعتقد الكبار، فقد وفقت بسرعة بالغة أن أؤثر فيهم وأن أؤدجهم إلى العمل في وقت قياسي، فصاروا متدينين موالين يحملون المعكر والموقف والإيمانيات ذاتها!

يقولون في عسيرنا إن «المحشد يشرب السم ويقتل أحياء»
يعمون أن المحرّص الذي امتلأ صدره بكلام أحد ما فإنه من
الممكن أن يتجرّع السم، ويمكن أن يقتل أحياء!

ولأنني كنت ممثلاً فلم يبق بي من خلية لم يسكنها تعلقي
بهذه الحياة، بإيمانياتها وسكنها وحركيتها، وحتى عدوانيتها تجاه
كل مفردات أية حياة خارج الإطار الذي أعيش فيه، بل إن فشلي
الدراسي المتتابع لم يكن ليوقظني أو ليكون عدي موضع اهتمام
أو مبالاة، بل إنني كنت أحدث نفسي أن تعثري بالدراسة بحسب
بقائي في المدرسة فترة أطول، وأكون إذن داخل النشاط والدعوة،
اللذين لا شيء أحب إليّ منهما، ثم ما هي قيمة الدراسة والدنيا
كلها في قناعتي لا تزن جناح بعوضة ولا تساويها، والحقيقة كل
الحقيقة عندي حينئذ أن أندر محياي ومماتي لهذا الطريق!

هذه ١٩٩١ وسبكون مكاني في المدرسة وأسطعها ومركزها
مكافئاً مرموقاً، فأنا الآن من كبار طلاب المدرسة والشيوخ
الدهويون الحركيون الكبار يشقون بي، للدرجة أنني صرت قائداً
لمجموعتين، وهذه سابقة لم يلمحها أحد في هذا السن، كما كان
شيخني علي يحدّثني، ويطلب إليّ أن أكون بحجم هذه السابقة

في الأسابيع الأولى من الدراسة يذهب ثلاثة من أصدقائي،
الذين عرفتهم في المعهد، وكانوا أحب الناس إليّ وأقربهم، إلى
البحر الذي يبعد عن أبها ١٠٠ كيلومتر، فلا يعود منهم إلا موسى
مات الاثنان، بل هشمت عظامهما السيارة، فتماسكت حتى
التفتت موسى، الذي انهار تماماً حينما رأيته، وأحد يلعن نفسه
ويصرح أنه قاتل، وأنه قتل قلبه قبل أن يقتل أخويه، وأن عليّ أن
أبتعد عنه حتى لا يقتلني. حاولت دون جدوى أن أسليه وأن أذكره
بالقدر وأن هذه إرادة الله، ثم إن حوادث السيارات لا تحتار قتلاها
لكه الله يفعل ما يريد، وحين لا يستجيب لهذا أتداعى فأبكي
وأبكي معه، ثم أعزم على أن أصوم معه الأربعة الأشهر كمارة قتل
الخطأ. قلت له حينئذ: «إنهما لم يموتا، فأحد العلماء يرى أن
موتى الحوادث شهداء، قياساً على موتى الهدم، والشهداء أحياء
عند الله برزقون، وأنا سرورهم قائماً في المقبرة، وسقف على
قبورهم، ويطلب من الله أن يجمعنا بهم في الجنة». لقد قلت
وقلت لأسليه وأسلي بمسي لكن فجاجة الموت كانت أكبر من
كلماتي كلها!

وأسيوهم آخران..

ذهبت لزيارة أحد أفراد المجموعتين، اللتين كلفت قيادتهما
وتوجيههما، لبصاحتي أخوة: «إنه في العداية المركرة، بعد أن
أشتكى من صداع حاد، حتى غشي عليه في البيت، فنقلناه إلى
المستشفى وهو هناك الآن».

وأسيوهم آخر. كل يوم كنت أتوسل إلى أحياء أن يصحني
فرصة زيارته، وأحدثه أنه حين يراني سيقاوم أكثر، لكنه يمتنع

معتدراً بأن أحياه في غيبوبة مستمرة لا يعرف من أتى ومن لم يأت، وكل ما يرجوه مني أن أصلي كثيراً وأدعوه له فالأمر خطير كما يبدو

لم يلتزم حرسي على صديقي الميثيق بعد، ولا على قاجعة موسى بهما وكمده البالغ عليهما حتى تدخل الحمى الشوكية فتحتطف صديقي الثالث صديقي الذي كنت أحلم أن يكون نسخة عني، وأن يكون داعيةً وناشطاً في سبيل الله، لكن الموت يقول كلمته، ويختاره الله ليفتحمني الحزن من الجهات الأربع، ويهرب بي إلى حذاء لا حد له من الصمت والتأمل وريادة المقابر واليكاء!

حزني المركب هذا ما كان ليسببي منه وعه إلا أن ألجأ إلى الله أكثر فأكثر، لأنحول بمرور الوقت، وبكل هذا الارتباط والصمت والحرن إلى عابدين غاشع متصوف، حتى صرت مثلاً يتحدث عنه الكبار والصغار، يصمون صلاتي وحشوعي وأني لا أتحرك ولا يرمش لي جفن، وعن سجودي وركوعي وابتهالاتي، وإطائتي للصلاة، وعن صيامي وقيامي، والحرن والشحوب اللذين يكسوان وجهي، وعن إغراضي عن الدنيا وريبتها، فثيابي وكل أحوالي الزثة كانت تعني بحب الله أكثر، وتوحي بأنني متجرد من الدنيا وزينتها واليطان ومكائده!

صرت خطيب جمعة، أجول في القرى والصواحي أصلي بالناس الجمعة وأحطب فيهم، وأذكرهم بالحيات والعقارب والكلاليب والجعر الذي ينظرهم بعد الموت، وأن عليهم أن يعتزلوا من الدنيا وأن يهرعوا إلى الله وأن يعرفوا منه إليه، ولزمت

المساجد إماماً للصلوات الخمس في حينا، وفي رمضان كنت أتجلى بالناس في صلاة التراويح، وأطير بهم إلى روحانيات لم يكن ليعرفها غيري كما كنت أحدث نفسي بذلك حينئذ . هكذا كنت على هذا الحد من التحير للسماء، بكل صدقي وإقبال وخوف وحب وكل شعور ممكن، فمن الصلاة الطويلة بجوف الليل والتوسل إلى الله أن يمتني ميتة حسنة في سبيله، وأن يجمعني بالدين اعطر قلبي على غيابهم، إلى قراءة وحفظ القرآن عند هيد الله الأعمى، إلى دعوة وأشطة بالمدرسة، إلى قيادته وتربيته خارجها، إلى حضور المحاضرات الدينية عند الخطيبين الشهيدين بالمطقة (ع.ق - س م) اللذين كانا يستعديان الدولة وأمير أبيها تعديلاً، ومن هذه المحاضرات إلى ريادة المقبرة، انني بها قبور أصدقائي الثلاثة، والجلوس عند قبر كل واحد منهم وقتاً طويلاً أناجيه وأعدد الذكريات عليه، وأنشم أية رائحة ممكنة لأقع نفسي أنها رائحة الجنة وأنهم في النعيم!

مما أتذكره أنني كنت إذا برل المطر ليلاً أو نهراً أروع من أعين من أكون معهم، لألجأ إلى شمع من الشماب أو واد من الوديان، فأكشف رأسي، وأسجد لله تحت المطر حتى يكف، وطالما تعرضت لتزلات البرد والحساسية وأنا منشغل بهذا الجزء، وبقيت رماً طويلاً أكتب تحت اسمي في كل شيء أوقعه ورعدي أعرف رائحة المطر!

وفي المحيمات أو حتى في المركز كنت إذا رأيتهم اجتمعوا في مكان واحد كان يعرني أن أمرب عنهم للصلاة والدعاء واليكاء ومناجاة الله ورعاقي الموتى . . وفي قمة زهوي بما أنا فيه من

الانصهار، مع هؤلاء، كدث أرحل إلى أفغانستان، حيث جامي أحدهم، وقال:

«أستطيع استخراج جوار سفر لك، إن كنت تريد الهجرة إلى حياة المجاهدين هناك»، فطلبت إليه أن يمهلني لأفكر، ولا أدري ما الذي جعلني أعود إليه، قائلاً: «إن الوقت لم يحس بعد لأكون مجاهداً، مما رلت أحتاج إلى تقوية إيماني أكثر...». نظر إلي نظرة ربيّة وانصرف!

إذن مما دمت لم أذهب للجهاد فلتكن هذه السنة هي التي يلزمني فيها الصبح بالحق، وقطع دابر المنكرات، وصنع كل الذين يهدون من سبيل الله بفسادهم داخل المدرسة وخارجها. كنت حينئذ على حافة حادثة من التملك بما أنا عليه، جرحاً من غيرة الموت بأصدقائي، مؤمناً أن الدنيا لعبة زمني قصيرة فعاداً سأقول لله حين يسألني عن كل هذه المنكرات، التي تلفت العالم وما الذي فعلته لأخسرهما وأخسر أهلها. أما داخل المدرسة فقد كان لي حيز واسع من النفوذ والقوة، باعتبار شهرتي واعتباري من قدامى الطلاب، فجهرت بالحق مراراً... ومرات!

يوماً جمعت طلاب جماعة النشاط الدعوي، وأقمتهم أن ترديد السلام الوطني في الاصطفاف الصباحي خطبة فادحة من ناحيتين، فهي موالاة للدولة الكافرة، التي تحكم بعير ما أنزل الله، وتوالي اليهود والنصارى، كما أن هذا السلام الوطني أصبة تؤدي على أصوات الموسيقى والمعارف، وتردبها في المدرسة، حتى دون هذه الآلات نصر للباطل على الحق، وللحرام على الحلال... وحين سألتوني:

- كيف تفعل إذن؟

- حين يبدأ هذا السلام الوطني سأرفع صوتي بأناشيدنا

البطولية من باب الوقوف بوجه الباطل. ولتعملوا مثلاً أفعل! بقي أن أمتنع عن كل التمارين الرياضية، التي تتطلب التصفيق المحرم، فلا أؤديها حتى يوقف المدرب الصباحي هذا التصفيق، وكان المعلم المسؤول عن الاصطفاف الصباحي كلما بدأ التمرينات الرياضية، أفف ومن أقمتهم هكذا، دون حراك لا يشارك في التصفيق وإنما تصرح «الله أكبر» كلما صمق البقية! وكان المعلم كلما نادى بالسلام الوطني (سارعي للمجد والعلواء... مجدي لخالق السماء) رفعت صوتي ومن معي بكل طاقتنا: «كما جبلاً في الجبال وربما... صرنا على موج البحار بحاراً...». فلا نكف عن هذا حتى يسكتوا ويعلو صوتنا، وبعد غير مرة اضطر مدير المدرسة لاستدعائي، محاولاً أن يوقف فعلي هذا، فقلت: «لن أقف حتى تقوموا من هذا السلام». وبعد الكثير من الحديث استجاب المدير وطلب إلى معلم الاصطفاف الصباحي أن يتجاهل التصفيق والسلام الوطني كحل للبطرة على هذه الفوضى!

بلغت قوتي فيما أراه من الحق أنني كنت أنتصب فزعاً في المصل بوجه المعلمين إذا قال أحدهم عبارة تصادم الدين أو المتديسين، مرةً ويحصة التعبير يطلب معلم اللغة العربية إلى الطلاب أن يكتبوا عن مشهد تلميذوني مؤثر لم يسوء، فرفعت يدي على المصور وقلت: «أنت ندعو الطلاب إلى الحرام، تحرضهم على متاعه التلميذون الذي يمتع بالصلال والمنكرات ولا يحق لك أن تطلب مثل هذا الطلب فائق الله فيما» فلا يكون أمام المعلم إلا أن

يعفينا من هذا الواجب، لأنه يعرف أنني مستعد لمشاجرتة وإسقاط هيئته أمام الطلاب، ولأن معلمي الدين، من المشاركين في الأنشطة، يمثلون لي دعماً كبيراً داخل المدرسة، فلا نتيجة من مواجهتي سوى الحسرة. ولم أكن لأشعر بالحياة وكل من في المدرسة ينظر إلي، وأنا أصبح في شأن ما، فما كان يخجلني مثلاً أن أكون بساحة المدرسة، والجميع يتناولون إغطارهم وأنا في واحد من الأماكن أقرأ القرآن، وحين تمر بي آية تستدعي السجود، جثوت على الأرض، وسجدت متجاهلاً دهشتهم وصرعهم ولمرهم، وبعض الصمحات، لكنني حين أرفع نظري لا يستطيع أحد أن يكمل ضحكته، أو حتى نظره إلي!

ومرة.. وجدت بعض الطلاب يتناقضون صورة فتاة جميلة، مفصولة من مجلة، لم تكن عارية قط، لكن ما تكشف من سافها ومن ذراعها كان كميلاً بأن أتجه إلى مدير المدرسة وأصبح بوجهه أن يوقف هذا الانحلال، وإلا فسبحدث الكثير، ولدفائق من عودتي إلى المصل جاء المدير واستدعى الطلاب، الذين كنت قد أخبرته أنهم هم المسؤولون عن هذه الصورة استدعاهم وهاقمهم، وطلب إليهم إحصار آياتهم في العدد، وحسم الكثير من درجاتهم في جميع المواد، وسجل عليهم ملاحظة سلوكية في ملفاتهم، ولأن الطلاب قد تعرضوا لكل هذه الإحراجات، وهم على علم تام بأني وراء هذا كله، فإن أحدهم عد عودته إلى الفصل خرج عن طوره وشمسي بقوله «أنت حيوان» فقممت من مكاسي كالمسحور، وهجمت عليه وصرته حتى مرقت ثيابه، ولم يكن هناك من أحد ليجرؤ على أن يقف معه أو يساعده، فهم يعرفون

عواقب ذلك عهدي وعند بقية طلاب الجماعة، وعند معلمي التربية الدينية، وحتى عند مدير المدرسة!

طرد هذا الطالب من المدرسة أسبوعاً، وكان عبرة لغيره ممن تسؤل لهم أنفسهم أن يققوا بوجهها، أو أن يكرهوا أداة لترويج المنكرات والفساد!

المعلمون الذين كانوا يدعمونا كانوا هم أنفسهم من يدير المدرسة ويشكلونها على ما يريدونه، دون أدنى مقاومة من المدير أو غيرهم من المعلمين، مستعينين مواقفهم وصرعهم الديني في أن يكون لهم المكان كله. أحد معلمينا من الشيوخ أفتى بجواز العشي في مادة اللغة الإنكليزية، لأنها لغة الكفار، وعلمنا بفنائه، دون أن يواجه أحد رأيه بكلمة واحدة، حتى معلم اللغة الإنكليزية، الذي كان موقفه محجلاً وبائساً، بل كان يشعر بالحجل أنه يدرس هذه المادة، ومعلم آخر «يمشش» طلاب الجماعة الدعوية في مادة اللغة الإنكليزية، والويل لمن يجرؤ على أن يقول بحق شيئا هذا شيئاً، أو حتى أن ينظر إليه، فهو مؤمن يملئ عليه إيمانه إدلال الكفار حتى في لغتهم!

ويكل هذه السلطة لنا في المدرسة كان كل من أراد أن تسير أموره يندوه وسجاح فإنه لا بد وأن يكون معنا في هذه الأنشطة، لاسيما أولئك الطلاب الواسيمون، الذين يحذون على أنفسهم من الانتهاكات الجنسية لجمالهم فإنهم أول ما يبحثون عنه من الحماية أن يكرهوا معا كانت السيارات تعج بهم، وكانت القصص العاطفية على أشدها مع هؤلاء الواسيمين، تحت مسمى الأخوة والحب هي الله، وهذه النقطة تحديداً فجرت الخلافات الكثيرة ما بين المتممين

إلى هذه الأنشطة، صغاراً وكباراً، إذ تتكرر بزاعات اثنين على
صداقة أحد هؤلاء الصغار المرء

على كل فقد اشتهرت هذه المدرسة الثانوية بقوة طلابها
الملتزمين بالأنشطة الدعوية في حقهم، وصاروا مثلاً لغيرهم من
المعتدين في مدارس أخرى!

حين تصبح الأفكار سلطة فربها لن تكون أفكاراً، ستكون
صياطاً وعصباً وأكثرها إيلاً ما هو ما كان باسم القداسة والدين
والأخلاق!

كنت ساعة أخرج من المدرسة ألتقي أصدقائي، أربعة أو
خمسة، فنتناول طعاماً في أحد المطاعم، وبعد أن نؤدي صلاة
المصر نخرج بالتجوال في شوارع المدينة، نأمر بالمعروف ونهي
عن المنكر، دون أن يكون لنا أي انتماء وطني إلى الجهاد الأمي
التابع للدولة، وإنما نحن منطوعون، معبر المنكرات، فلا نقف
هد إشارة مرور بسيارتنا ولا نرى أحداً يدخن السجائر أو يستمع
إلى الموسيقى إلا أوقفناه، ووعظناه، وذكرناه بالموت والدار،
ومدونا له بأحد الأشرطة الوعظية، فإن قبل تركناه ودهونا له
بالهداية، وإن أبى فعليه أن يحتمل شتيمتنا ودعائنا عليه، وربما
نصل الأمور أحياناً إلى تأديبه وتلقيه درساً جسدياً، لا يسى بعده
كيف يتعامل مع الدين وأهله!

دخلت ورفاقي يوماً إلى أحد الأكشاك الصغيرة، التي تعد
السديشات السريعة والجماعة، واتجهت نواً إلى التلميذون وأقلمته

فقام أحدهم وفتحها، فعدت وأقفلتها، لتبدأ بيني وبينه معركة ثان، أولاهما كلامية، أصفه فيها بالمسوق ومعاندة الله، وأنه تأخذ العرة بالإثم، وأحبراً اتهمته بالكفر، وهو يصعني بالمنطمل والمتحكم في حريات الآخرين، دون وجه حق، ثم المعركة الأخرى، معركة الأيدي، ولأنني لست أكون وحيداً طبعاً فقد لقي ما لقيه . . . وليست مرة ولا اثنين نطلب لقاء صاحب مشجر أو مقهى لسانحه في مجلاته وسجائره وتلفاره ومؤنيه . كم هو ينشر الشر، وينحفل ذنوب كل من يشتريها منه إلى يوم القيامة! ثم يذكره أن ماله حرام حرام، فكيف يربي أطفاله من السحت، والذين تنمو أحسادهم من السحت فإن النار أولى بهم . . . وكثير يستجيبون إلى وعظنا، وفلة تعلق أصواتهم وأصواتنا لنحبلهم على الله، داعين عليهم أن يتلبهم الله في أطفالهم وأسرههم وعاميتهم وأموالهم، لأنهم جحدوا بعمة الله عليهم، واستبدلوا الشكر بالكفر!

هذه حادثة حضرتها.

الكثير من أصدقائي يعملون لدى الشرطة الدينية، وكانوا يسمحون لأنفسهم أن يتدخلوا في كل شيء من خصوصيات الآخرين، أن يتهموا، وأن يوقعوا الناس، وأن يمتشوا بيوتهم ومحالهم، ويتدخلوا حتى في شعر رؤوسهم فيحلقوه، أما النساء قبلحقونهن بالتوبيخ واللمز، كي يرتدين الحجاب، ويمسحون أنفسهم الحق أن يقتحموا سيارات الشباب، فيصادروا ما بها من أشرطة الأغاني وعبرها، وغير هذا كان يفعله هؤلاء، وكنت أشاركهم، متطوعاً، بل كنت أقضي الكثير من الوقت معهم، في مراكزهم التي يحضرون إليها المضبوطين، أقوم بالوعظ أحياناً

وبالرأي أحياناً أخرى، على أن الدولة لديها لم تعطهم كل هذا التفوذ على الناس!

حدث أنني كنت معهم في أحد المراكز المساوية، وكانت إحدى ليالي الإجازات الأسبوعية، تحدثنا وتذكرنا الله، وككل ليلة يأتي الأعضاء المبدانيون ببعض المديس، هذه المرة سمعنا صراخاً بالباب، عرفنا أنه أحد أعضاء الشرطة يحاول إدخال شخص ما إلى المركز وذلك بمأطله، فقمنا لدخله بالرغم عنه!

أول ما أجلسوه على المقعد أخرجوا كل ما في ثيابه، نقوده وأوراقه ومحفظته الشخصية وبطاقاته، ثم أقفلوا عليها في أحد أدراج المكب، وبدأوا التحقيق معه:

- الأح العضو ضبطك في سيارتك رافعاً صوت الغناء.
- تقول سيارتي، هي سيارتي ورفعت صوت المصاء في سيارتي، يعني في ملكي.
- ألا تعرف أن الغناء حرام؟
- لا أعرف.
- تكبر على الحق؟
- يا شيخ هذا شيء يخصني.
- الآن ستعرف هل هو شيء يخصك أم لا يخصك . . .

كان شاباً في العشرين من عمره، أنيقاً، تبدو عليه علامات الرفاهية، وكانت خطبته هي سماع الأغاني، ولسوء حظه فقد جادل هؤلاء الأعضاء وقاومهم، ثم قال ما قاله للمصو المسؤول فأخذوه وأدخلوه أحد الحمامات، وضعوه هناك وسط روائح العائط

والبول، في مكان لا يتجاوز عرضه المتر وطوله المتر ونصف المتر، بعة إدلاله حتى لا يتكبر على الحق مرة أخرى!

بعد ساعتين من جلوس هذا الشاب بكل كرامته في هذا المكان، أخذ يطرق الباب بكل قوة. «أخرجوني من هنا» يصيح وهو يعالب البكاء، فطلبت إليهم أن هذا يكفي، وسألتهم بالله أن يتركوا لي التعام معي وأن أتولى أنا قضيتهم..

فتحت له باب الحمام، وعندما خرج بكى! فأخذته بيده، وجلست وإياه، أنظر إليه ولم أستطع أن أقول له ولو كلمة واحدة، ولأول مرة أشعر أن خطأ ما قد فعلناه هذه الليلة، فناولته كل أعراصه وودعته، وقلت له بلا شعور وهو يذلف الباب: «سامحي.. سامحي، على الأقل أنا يجب أن تسامحي».. نظر إليّ بتعجب ومضى صامتاً، لم ينس بكلمة واحدة!

تساءلت تلك الليلة أية مصيبة هذه التي تيرر إهانة الآخرين وطعن كبريائهم وكرامتهم، وأي حق هذا الذي يحمل من الدين سوطاً يذل الناس إلى هذا الحد.. لكن هذا التساؤل لم يكن ليفف بوجه حي للهؤلاء، وشيق الجلوس معهم، فتأمرت على سؤالي وناسيته، وحدثت نفسي أن الله يعز من يطيعه، ويذل من يعصيه!

هكذا كانت هذه السنة، سنة من التصوف والحق والعمل والدعوة، والانصياف بالصف الحركي، وهكذا صرت مبارأ عبدياً قوياً على غيري من عصاة الله، رحيماً وحنوياً على كل من معي! هذه السنة شهدت فشلاً درامياً ذريعاً، فالاختبارات النهائية لم أحضر أكثرها، والذي حضرته لم أكن لأعرف عن تلك المادة

شيتاً، فقد كنت خارج المنزل عند الاختبارات، إثر حصام حاد بيبي وبين أهلي، نتيجته المعتادة أن أترك البيت شهراً أو شهرين، أنام في المساجد وعند الأصدقاء!

ظهرت نتائج العام، وأنا مع الجماعة في مخيم خارج المدينة. جاء أحد الطلاب بنتائجنا لتتحلق حوله صاحكين، وحين أعلن اسمي أعلن معي أنني محروم بكل المواد، هذا مادة الرياضيات، التي أحررت بها الدرجة كاملة، وتقدير الممتاز، لأنها المادة الوحيدة التي أعشقها وأستوعبها دون مذاكرة، لمجرد الحصر القليلة التي حصرت الشرح بها، فضحكنا وضحكنا حتى هلب الدمع عيوننا، وأصبحت نتيجتي الدراسية طرقتا طوال تلك الرحلة!

وهذه السنة أيضاً شهدت أول حجة، لأكمل أركان إسلامي بهذه الرحلة التي ذهبت فيها وأمراد لقائنا السري، مع شبيحا علي كانت من أمتع الرحلات، وأكثرها عبادةً وتسللاً وقرباً من الله، لو لم يكن بها من الوعظ إلا أنني رأيت كل هؤلاء البشر يلبسون البيضاء، يكون بين يدي الله يستعفرونه من ذنوبهم، وكنت أفع نفسي: «هؤلاء حتى لو بكوا واستمعروا فإن الحلل الكبير في عقيدتهم، وانتماءاتهم إلى دول كافرة لن يجعل لأعمالهم عند الله من حظ. إنني ورفاقي فقط من صغت عقيدتهم، وعلينا أن ندعو لكل هؤلاء ومن في الأرض أن يتوبوا، وأن يستيقظوا من سطوة الكفر وأهله عليهم وأن يشوروا على جاهلية هذا الرمس، ويؤوبوا إلى الحق الذي نسوه أو تناسوه»..

في صيف تلك السنة كانت لي مشاركة أخرى في مركز

المعهد العلمي، لكن هذه المرة بكهف جديدة، فأنا الآن من الكبار ومن مشاهير العباد والمنصوفة، ولي إجلالي عندهم جميعاً شيوخاً ومريدين، فلم أعد ذلك المرح الذي يطارد الكرة ويتألق في وجدانيته وحبه لإخوانه، بل صرت الصامت الحزين الناسك! أتذكر أحدهم حين أمسك بكتفي بشدة قائلاً «سألتك بالله علمي هذا الصمت، الذي تقنني وتحيني به».

في المعهد هذه المرة كان لي أن أشارك في الوقفات والمحاضرات والخطب، وأن أبدو في أعين أبناء الجيل الجدد خلاصاً، وأن يكون لي من الاستشارات عند الجميع ما لا يكون إلا للمهيبين والدعاة والذين يحشون قصبتهم الكل، إذ آمنوا أنني ممن يصلون الأرض بالسماء، وأن دعوتي أشد خطراً على من أدمروا عليه من الرصاص!

وفي المعهد هذه المرة انصجر خلاف ضخم بين اثنين من رعمائه الكبار، ففي أحد الأيام الماطرة والشيخ ع. ش. لم يكن في المركز، عند صلاة المغرب، فأمر الشيخ الآخر ف. أ. بأن يجمع ما بين الصلاتين المغرب والعشاء، لأن هذا ثبت عن النبي، وعملنا هذا سيكون من إحياء سنته، ففعلنا..

حضر الشيخ ع. ش. قبيل العشاء، وحين دنت الصلاة هوجس أن أحداً لم يؤذن للعشاء، وأن أحداً لم يذهب إلى المسجد، فتساءل غاضباً عن هذا، فقليل له إننا جمعنا ما بين الصلاتين، استجابةً لرأي الشيخ ف. أ.. كان المطر حينئذ قد توقف، وشعر الشيخ ع. ش. أن هناك من يمارعه إدارة الأمور، فنادى في الجميع وصلى بهم العشاء، التي قد صلوها مرة أخرى، ثم قام بعد الصلاة

ليتحدث عن المترشحين في أمور الدين عن غير علم، وأنهم لربما مشوا بالناس إلى الضلال والريق عن جادة الدين!

سمع الشيخ ف. أ. كلامه ليأتي اليوم الذي يليه بالأحاديث والأدلة، أن ما فعله كان مبيهاً على علم، وأن السي جمع الصلاتين في المطر، بل جمع في غير برد ولا مطر، ليفقم ويسكنه الشيخ ع. ش. وتتحول أجواء المركز إلى عراك كنت أشك في مصداقيته، وأن الخلاف العلمي هو ما يحركه!

شعرت مرة أخرى أن هذا العالم يتراجع بعيني، وأنه يتكشف عن سواة أخرى، ونالمت كثيراً لهذه الجنة أن تحترقها هذه الصغينة حتى إن الطلاب انقسموا قسمين، أكثرهم مع هذا وأقلهم مع ذلك، وأخيراً فإن الشيخ ف. أ. حصر كل شيء، ولم يعد قادراً بعد وقت من هزيمته على الحضور، فقد كان لصغية الشيخ ع. ش. في أدهان الجميع ما جعل خصمه شيطاناً وجيماً!

دنت نهاية الصيف، الذي لم يبق منه سوى أيام، وقررت أن أنجح في الاختيار البديل. يسمونه اختبار الدور الثاني، فكنت أحمل كتب المواد السبع التي أحقت فيها معي أدرسها في كل وقت ممكن. بعد نهاية المركز أذهب إلى أحد المساجد في المدينة، فأسهر به أدرس وأدرس.

وفي أحد اختبارات الدور الثاني عرض علي أحد المعلمين أن يقدم لي المعلومات حتى أنجح، فستمنه ووصفته بالعشاش، ولم يكن عندي من شك أنني سأتجاوز كل المواد، فقد درستها كما يجب، مطمئناً إلى أن لي من الدكاء ما يمكنني من النجاح..

عند انتهاء الاختبارات كان مركز المعهد العلمي يختتم

شباطات صيفه ذاك برحلة إلى مكة والمدينة، وكالعادة كنت أول المشاركين. . . سافرنا في اليوم الذي ستظهر نتائج المكملين اختباراتهم البديلة في الصحف، طلاب المرحلة النهائية في الثانوية، وفي منتصف الطريق وقف الباص عند أحد المتاجر الغذائية المحنصرة ليعود منها بالصحيفة وبها الأسماء. مادي بأسماء الطلاب المكملين واحداً واحداً، ثم مادي باسم ظننته أول الأمر اسمي، كنت واقفاً على الاسفلت عند عجلات الباص، فخررت ساجداً، سجوداً طويلاً شاكراً لله أنني نجحت، ولم أرفع إلا وهذا الذي ينادي بالأسماء بقول مبشراً: «لست أنت، إنه اسم آخر في قسم غير قسمك، اسمك غير موجود وهذا يعني أنك لم تنجح!». حينئذ انفجر الجميع ضاحكين على سجدتي الحائرة، وضحكت أول الأمر، لكنني بكيت بعد ذلك بكاء بالماً، وشعرت بالحدلان وكرهتهم جميعاً للحظة، وأحسست أنهم لم يحترموا مشاعري. هذا الشعور سيهزم في نفسي ولن ألتفت إليه كسابقه لتعلفي بهم، وتناميت هذا الجرح الذي بقي الطرفة التي يلوكها الجميع! كنت أحسست للحظة أن جداراً حصباً لهم في داخلي تشرخه هذه الضحكات، وأحدث أنظر إليهم، كيف يضحكون من غيبيتي هكذا وكأنني مجردة من أي شعور، غطايات وحبت حرقني!

انتهت الرحلة التي لم يمارقني الألم بها رغم كل محاولتي لتجاوره، وعند هودتي إلى أبها وفور دخولي البيت، لم يجب أبي التحية، ورعص مصافحتي لأنني لم أنجح في الاختبارات، ثم وجدت منه رسالة ملقاة على فراشي. . . وليس من عادة أبي أن يلجأ

إلى غير القسوة والصرب والحصام، لكنه قد بلغ بأسه مني حد أنه لم يعد قادراً على أن يحاطني حتى بالعنف والقسوة!

قرأت الرسالة التي باثرتني فيها بكل وضوح أنه سيقرر طردي نهائياً من البيت، وأنه لا يشرفه أن أكون أسة، وأنه سيتبرأ مني ولن يكون لي في بصره من مكان. قال إنه سيعمل كل هذا وأكثر بعد أن يمسحي مرساة أخيرة، هي السنة القادمة، وأنه لا خيار أمامي سوى أن أنجح وأخرج من هذه المدرسة وإلا فسينفذ كل تهديداته!

استلقيت وشعرت برغبة جامحة في البكاء. إنني أحسر كل شيء. دراستي وأبي وأمي وإخوتي وكل شيء، كل شيء. أحسست أن شيئاً ما يستيقظ بي، لا أعرف ما هو لكنه يندفعني إلى ندم رهيب، جعلني أقوم إلى والدي لأقبل رأسه، وأعاهده أنه سيرى مني ما يسره وأني سأتعير وسأكون كما يريد، فلم يجيني لأنه لم يكن واثقاً بأنه أكبر حضوراً في نفسي من أولئك الذين أنصت معهم تفاصيل حياتي كلها، وتساءلت مجدداً لماذا تتحرك بي كل هذه العاطفة تجاه أسرتي التي أعتقد فسقها وعصيانها. لقد قطعت على نفسي وعداً أن ألتزم الدراسة وأن أثبت لكل الذين ضحكوا من فشلي أنني قادرٌ على نجاح كبير!

إذن عليّ أن أفي بوعددي لوالدي، وأن تكون هذه السنة ١٩٩٣ نقطة استعادة لطيب نفس أبي وأمي، ولا أدري حقاً هل سنسعي لإرادتي على أن أتأثر من بعض الوقت الذي أعيشه مع الجماعة من أجل دراستي هذه السنة أم لا!

كنت مهياً لأي توتر حاد ما بيني وبين هؤلاء رغم كل تسكي بهم وحبهم لهم، وأي احتكاكٍ سبقه الشاؤلات التي تجاهلناها طويلاً وأصبحت عقلي عنها، حتى لا تُحدث صورتهم التي تمثل لي خلاصاً كبيراً، لكن هذا الاحتكاك وقع..

السنة الحامسة التي أفصيتها في المدرسة، حرباً لتأخري وفرحاً بيفاني في المدرسة للمريد من الدعوة وهداية الطلاب، وهذا ابتداء السنة جاء إلى الأنشطة مجموعة من الطلاب الصغار الجدد، ولأن لي جانبيتي، التي كانت ملهنة بالنسبة إلى الشيوخ الكبار، كيف أن هذا الصغير يملك القدرة على احتراق أي أحد، فالجميع يحبونه. التفت عليّ هؤلاء القادمون الصغار جميعاً، وكلهم كانوا يربعون في أن يكونوا في سيارتي، وأن يكونوا في أي تقسيم داخل المركز أنا فيه..

الكثير منهم على قدرٍ مذهشٍ من الوسامة، والكبار الذين في

سني مكلمون رعايتهم، فكل واحدٍ من هؤلاء الصغار يتعهد أحدنا باللطافة والصداقة ليجتديه إلى العمل الحركي السري كما حدث معي تماماً، لكن هؤلاء الصغار لم ينصاعوا لدعاتهم، وإنما تحلقوا حولي واجتمعوا على التحير لي، وهذا ما أثار ضريبة قريائي وحفظهم!

ما مضت هذه أسابيع من الدراسة إلا وأنا متهمٌ بالميل نحو المرد والصغار الجميلين، وأن لي قلباً يشيع الهوى، وأن وجودي مع فلان وفلان كان افتتاً بجمالهما، وأنه لا يستبعد أن يكون بيننا أمرٌ غريبٌ ما، وبها للفرد، إذ انقلبت في أعينهم من الباسك المتصور والعابد الراهد إلى العاجر الذي يطارد العلمان، ودار هذا التشويه، وتعاظمت هذه الوشائيات، التي أطلقها ورؤجها قريائي، الذين صارحي أحدهم بذلك، بل هددني أنني لو تعرضت للصغير الذي يعيه هو فيوقعني عند حدي ولو باستخدام يده!

كبرت ضيعيتهم واتهامهم لي بهذه العرائرية والشهوانية حتى بلغت الشيوخ الكبار، الذين لم يترددوا في مواجهتي، فاصطحبني مسؤولي الشيوخ عليّ في طريق طويل، يعطي ويذكرني بالله وحين سأله:

- ما الأمر؟

- الأمر شهوانيتك وحبك للصغار والمرد وتعلقك بهم

وتعلقهم بك!

فشارت نائرتي ولأول مرة أخرج عن طوري وأتجاوز تقديسي

لهذا الشيخ لأقول له بحدة:

ثم اعتدائي والوعد بالآلا أكون إلا مطيعاً لهم في أي مما يريدونه،
لكسي ومع كل نوبات البكاء والوحدة والصيم التي مررت بها طوال
الوقت لم أراجع!

بعد شهرين قرر الشيخ ع م أن يسمح لي بالمشاركة في
المركز، وأن ينتهي هجراني خوفاً عليّ بأن أصل وأتركهم تماماً،
وهكذا أعادوني إلى الأنشطة، وبقي الشيخ علي علي موقفه من
استعادي من العمل التنظيمي، فعدت إلى الأنشطة لكن بقلب
جريح وكبرياء مكسورة!

لم يعد لهذا المكان في نفسي فتوه السابق، بل إنني اعتدت
الوحدة والبقاء مع كتيبي وأطفال إخواني، والجلوس مع أهلي الذين
تراجعت عن الاصطدام بهم وتركت تكفيرهم وشتيمتهم كنت
أحتاج إليهم، ولأنهم أهلي فقد عفروا لي كل ما فعلته، واحتملوا
بشميري الدراسي كثيراً، وباقتراحي منهم من جديد أكثر!

تلك المرة القاسية دفعتني للاهتمام بالقراءات الشعرية
والأدبية، وصرت أكتب شعراً كثيراً، رقيقاً، وحريراً، أعبر فيه عن
وجدني وحررتي ونمكي بالدين، حتى وإن هجرني إخواني، كما
كنت أحلم في شعري بالموت، والتخلص من كل هذه الآلام
والمناهب، وأن أنصر الأمة، لأن أكبر ردّ علي كل من اتهمني أن
بأنني يوم بامتنهادي في سبيل الله، ليعرفوا أنني صادق، وليسلموا
على كل ما فعلوه!

كل هذه المواجه كانت تتمثل شعراً، لا أفر عن كتابته،
وترديده وثقه علي من اتقاه منهم، مرة يعجبهم ويرقون له، ومرة
يرجعون لشيوعهم ويحلمون لهم بالله أنني أكتب عن الهوى

والتقبل والحب. لقد اشتعلت بهذا الشعر، حتى إنني كنت أهرب
من فطاعة وحدتي إلى مكتبة النادي الأدبي في أبها، فأقرأ للشعراء
كثيراً، ومرة أو مرتين أعطيت المسؤولين هناك بعض قصائدي،
فنشروها في مجلتهم الدورية!

النار التي تحلق في جوف الشاعر لا تكف عن لسهه، فما
توقظه من عواية إلا لتعته بعواية أخرى. فمع الشعر ولجت عوالم
الروحانيات الأخرى، فتعلمت اليوغا، وصرت أقضي الساعات
الطويلة أتعلم التركيب وحفص الطاقة وتصعيدها، وعزل الأعضاء
عن الإحساس، وشنح الإرادة. . . وغير هذا، لقد كنت أعيش هذه
الطقوس كل ليلة تقريباً، إذ لا خيارات أخرى لدي، غير الشعر
والميل إلى هذه الروحانيات والقراءة، مع ما أعيشه من السك
وزيارة المقابر وقيام الليل والقرآن، وبهذا أكون قد تركت كل
الأنشطة وأدمنت وحدتي وطقوسي، وبدأت باصطحاب بعض
رفاقي من المصل، الذين لم يكونوا متديبين، بل كان أحدهم
مدخنًا، فراج الكلام عند الشيوخ بحقي أنني اصطحب الفاسقين
والمدخنين، وأنها بداية نكوصي وتركبي للدين وأهله. .
اصطحبنتهم، ولم يكن يعني كل ما تعلمته من التكفير والتصيق
للناس، بل إنني تنازلت عنه، وصرت أتعهد إغاضتهم بجيشتي
ودهائي مع من يروهم فساقاً وكافرين، فالوحدة والعذاب الذي
تعودته والكبرياء المكدوشة، التي لم تعد تسمح لي بأن أكون
معهم في أنشطتهم، التي أعشت كراهيتي لها عندما ألح عليّ أحد
الأصدقاء، طالباً إلي العودة إلى المركز، وما تردد أن يقول لي:
أنت مثل من قال الله فيه: «ممثل الكلب إن تحمل عليه

يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا...!

مرت السنة، بفصلها الأول، ورمضانها، وفصلها الثاني، ومجعت وتحزجت، وودعت هذه المدرسة، التي بصفت عليها، ولعنتها كثيراً، ومع أنني بقيت متديباً إلا أن علاقتي بأمراد الأنشطة والعمل السابق تهرأت، ولم يعد منها سوى المجاملات إن اضطررت إليها، ولأنهم حافوا كثيراً أن يحسروني، فقد حاولوا إعادني إلى العمل الحركي، ولكن عند غير الشبح علي، فقلت وعدت مع مجموعة أخرى وشيخ جديد لم أقض معه سوى صيف تلك السنة حتى احتلرت منه وقلت: «هي لم أعد قادراً على احتمالكم، واحتمال أي ماضٍ بربطني بكم فتركوني، وديس الله للجميع، سأعبد الله بعيداً عنكم، وها أنا مقبل على الجامعة ستتم هذه الأسابيع القليلة لئلا الدراسة، وسترون أنني سأكون فوق ما تريدون وأريد، فأنا أحب الله والسبي والدين، حتى لو لم أكن معكم!».

انتهت مرحلة من حياتي، لا أدري كيف أصعبها، ولا أعرف حقاً، مع كل ما فيها من التعب والكمد، هل كانت محطة إيجابية أم سلبية... كنت جريحاً، وأعرف فقط أنني كنت صادقاً، وأني خسرت أهلي وخسرت سنتين دراسيتين فشلت بهما لأجل هذا الصديق، وأعرف أنني أخيراً كرهت حتى الأنشطة والأشخاص، الدين ضحيت لأجلهم بكل ما في عالمي من أهل وأقارب ومجتمع!

أعرف أنني سعدت حتى لم يكن ثمة من هو أسعد مني، أو سأقول إنني توهمت السعادة حتى لم يكن ثمة من هو أكبر وهماً بالسعادة مني، ثم إنني شقيت، حتى إنه لم يكن ثمة من هو أكبر شقاء مني!

إذا لم تعرف نوع المشاعر في داخلك، وهجرت من التحير لحركتك أو مرحكت، لإقبالك أو إدبارك، لابتسامتك أو دمعتك. فلن تكون بحاجة إلى البعد أو الهجرة كحاجتك إليه في تلك الحال!

اللحظات، التي أبقت بها نماماً، أنني خرجت من أسوار هذا المسمى إلى الأبد، من هذه المدرسة، بكل ما فيها من أنشطة وذكريات، كانت لحظات متضادة متناقضة، فأنا سعيدٌ كالذي اعتق من غرفة صغيرة كان يظنها أجمل ما في العالم لأنه لا يعرف غيرها، ولمجرد خروجه منها اكتشف كم كان أسيراً، وحزيناً لأنني ما رلت حتى تلك الساعة أخلو نفسي بأن الشيطان هو من أسعد تلك الجنة، وهو فقط من دخل بيبي وبين الصالحين، فرح بيبي ويبيهم، وجعل بيننا كل هذه القطيعة، وكل هذا النمرور!

كان صعباً غريب الأطوار، فأنا الذي ما كان ليجد الدقائق البسيطة ليصحبها دراسته وخصوصيته، صرت بمعزلٍ عن كل شيء، وتعر الأيام طويلة أحاول أن أشغل نفسي بأي شيء، باحتييار الجامعة المناسبة، بترتيب غرفتي، التي محني إليها أهلي بعد أن

بدأت العودة إليهم، تاركاً ذلك المستودع السفلي تحت البيت، وجدّ أيضاً أنني جرّوت مرةً ومرتين وصرت أذهب إلى ملعب كرة القدم، مع أخوتي اللذين يكبرانني، ثم انكسر الحاحز فصرت أنجه إلى ذلك المكان يومياً.

ومع كل هذه القطيعة بيني وبين أفراد الجماعة السابقة إلا أنهم لم يكفوا عن استعدائي بترويحهم الساطل عني، وفي الوقت نفسه فإني بقيت متمسكاً بما أنا عليه من دين، غير أنني كنت متسامحاً مشارلاً عما أعتقده في داخلي من كمر المحيطين بي، فحاجني إليهم بررت أن أعفر لهم كل شيء، كما كانت حاجتي إلى جماعة الأنشطة السابقة تبرر لي أن أرى هذا العالم بمن فيه كفاراً!

لطول الوقت ولعذاب المراع، الذي أعيشه لاسيما في الليل، فإني هيات لنفسي جدولاً للقراءة والاطلاع، متمسكاً أن يكون مسجع هذه الفراءات جديداً، محتلماً عن السبق السابق، فالرغم من إقتاعهم إياي بأن الشاعر نزار قباني كافرٌ ومنحل، وأن عبدالله البردوني قومي ملحد، وأن حاري القصبي، ومحمد الشيني، ومحمد رابد الأكمي، ومحمد جبر الحربي، وعبدالله الصبيحان، كل هؤلاء حدائون كفرة، ومن يقرأ لهم لا شك سينثر بضلالهم وجحودهم بآيات الله ورسوله، بالرغم من كل هذا إلا أنني أدمنت ما كتبوه ويكتبونه، وصرت أتابعهم، وأحاول تقليدهم والتعكير في ما يقولونه!

قرأت أيضاً في تلك الأيام كل أعمال المنفلوطي، خصوصاً الروايات التي ترجمها عن الأدب الفرنسي، وقرأت الرافعي، والعقاد، وطه حسين، وبعض الروايات العالمية لأرست

همنغواي، وفيكتور هيغو، وكارانتزاكي، وماركيز، وغيرهم. وبالطبع فإن كتب هؤلاء كلهم لم تكن متاحةً سواءً لأن دخولها ممنوع، وتصادر ممن تضبط معه، أو لأن مدينتي أبها لم يكن بها من التقدم الثقافي ما يجعل الحصول على المتاح من هذه الأعمال سهلاً، لكنني كنت أستطيع الوصول إليها عبر البائع اليمني الذي يعمل عندنا، فكنت أعطيه المال، حين يذهب في الإجازات إلى أهله في اليمن، ويعود لي ببعض ما أوصيه من أسماء الكتب والمؤلفين. كان يدخلها عبر الحدود بكل سهولة، بالتهريب أحياناً، وأحياناً من خلال علاقته القوية بالمعاملين على المصاد الحدودية، التي تربطها باليمن، أو بطريقته التي ما كنت أهتم بمعرفتها، المهم أن يأتي بما أريد، وأن يحصل على ما يريد!

إذن فمع هذه الأسماء وغيرها اكتشفت عوالم جديدة، لم يكن هناك من شيء يمكن أن يعدل شغوتي بها، وكثيراً ما كنت أعلق هلمّ باب حرمتي وأبكي، هارقاً مع حزن بول علي فرجبي، أو مع مأسوية فيكتور هيغو، أو عيشة الراقص زوربا، وهكذا!

كانت هذه الكتب محلصاً كبيراً لي من الوحدة، ومهراً مأسياً من المحصين، جماعة الأنشطة المثديبة، ويقابا من جعيم أهلي الذين يلدجنوني إلى الهرب في كل مرحلة من حياتي. لقد كنت أقضي من الوقت الساعات، فمن الثامنة أو التاسعة كل ليلة وحتى تشرق الشمس والكتاب في يدي، ليمرّ الصيف كلّهُ على هذه الشاكلة!

كان تغير ذهبيتي، إلى حدّ كبير، عبر هذه القراءات الجمالية،

وكانت هودة الأسئلة، التي تجاهلتها من جديد، محزناً للبحث عن كتب فقهية تتحدث عن الجانب الآخر من الذي كانوا يتمسكون به إخفاءه بكل وسيلة ممكنة، فإن انكشف وصموه بأنه بدعة وأنه ضلالة وأن علماءه على زيغ كبيراً

قرأت «فقه السنة» لسيد سابق، و«الحلال والحرام في الإسلام» ليوסף القرضاوي، واطلعت على فقه ابن حرم والشوكاني وغيرهم، وصدقت حين اكتشفت أن الموسيقى، التي حرمتها على نفسي كل هذه السنين، جمال يستحيل أن يحرمه الإسلام، وأنه لا صير في أن أقصر لحبتي، أو حتى أن أحلقها، وعرفت أن تعطية المرأة وجهها ليست من الحجاب في شيء، وأن التصوير والزينة مما لا يثير غضب الله، وأن الحياة جميلة، وتستحق أن يكون المرء أيقناً ومحباً ومسامحاً أما فضاء التكبير فلم تكن عدي موضع اهتمام البتة، على أنني عرفت أن التكبير طريقة الحوارج ومهجهم، إنها اعتقاد القنلة باسم الله على مر التاريخ

انتصر الحب والجمال الذي عرفت فيه عبر الشعر والروايات، والجانب الآخر الجميل من الذهب، الذي يسوق الناس باتجاه الحب والجمال والموسيقى والشعر..

لا أنسى بهذا الصدد أنني التقيت أحدهم بمحض المصادفة، وكنت ما أزال أبادله صفاء النفس، فهو يذني لي من المودة والحب الكثير، فتحدثنا وتحدثنا، وكشمت له عن بعض هذه التطورات في آرائي، وعلى سبيل أن أعاجبه بما تعرضنا له من التنعيم على الرأي الفقهي الآخر شرحت له: «العناء الذي يصورونه

من الكيثر في أذهاننا لم يجرؤ أحد من الصحابة ولا من التابعين على تحريره، بل إن النبي نفسه لم يحرمه، وإن المذاهب الفقهية الأربعة لم تقل بذلك قط، وإنه لا دليل من القرآن ولا من غيره يدل دلالة بيضاء على تحريم العناء والموسيقى» ثم شرحت له كيف اعتنلوا فيما الجمال بعملهم على باب سد الذرائع، واستخدمهم لكل ما يمكن أن يقضي إلى اعتزال العالم والتفوق عليهم، فصدم وصار يفتح عينه في مدهول. لم يكن مقتنعاً ولم أشعر بأنه صدقني البتة. وكل ما فعله أن تركني واتجه مباشرة إلى الشيوخ، وليصبح كلامي هذا دليلاً جديداً على شهواتي وأني جسي خطير على كل من يجالسني من الصغار، وعرفت فيما بعد بكل هذا، لكنه لم يكن ليرعيني فقد بات هؤلاء أقل عدي من أن أكثرث لما يقولونه، بل إنه صار مدحاة لمسحكي!

وأيضاً قبل أن تنصرم إجازة الصيف تلك، وقعت لي حادثة مع الشيوخ السابقين وأعضاء الأنشطة المتديبين، رادني كرهاً لهم ويموراً منهم، على أنني لم آت لهم، ولم أفتش عن رصاصهم، وكنت قد عفدت في نفسي البية أنني لن أبحث عنهم، مما أنا فيه من الجمال والحياة لا يتنافى مع الدين الذي لم يفهموه، أو أدركوا أن فهمه بهذه الطريقة سيوقف العقول، التي لن تستجيب لاستعمارهم إلا وهي غارقة في العنمة!

هاتمي أحدهم، يحبرني أنهم يحترمون تأدية عريضة الحج إذا ما كنت أرعب في مصاحبتهم، ففكرت ملياً، ولأن بقايا حب ما زالت تدور بها الذكريات في داخلي، ودار في خلدي أنني أفترى منهم، وأستطيع أن أكون معهم دون أن أثارل من آرائي وموقفي

فاجتهدوا إلى ذلك، ولم أكن لأعلم أن هذه المبادرة منهم ستنتهي
بصفحة أخرى!

قبل الرحلة يوم كلمهم أحد شيوخهم أن يصطحبوا معنا ناشئاً
جديداً، وكالعادة سيكون في منتهى الحس والجمال والعنون،
وبامثالهم لأمره تحرك الحشد القديم، فراعوا إلى كبارهم يسألونهم
وكيف تأخذ هذا الصغير، ومعنا فلان - وفلان هذا أنا - إننا نحاف
على هذا الجديد منه، أن يقع في ما لا يحتمل مسؤوليته، وأن يقع
هذا الناشئ في الهيام بهذا الشهواني، ويحيى الرد مباشرة من
كبارهم باستعادي، ولم يترددوا في أن يخبروني! بصفتي بوجه من
نقل إليّ بشاعتهم تلك ذلك اليوم، ولعنتهم أجمعين، وأقسمت:
«والله إنني لأشرف منكم ومن شيوخكم ألف مرة»!

القيء سيكون عافية كبيرة حين يدخل إلى أحشائنا طعام
فاسداً!

الجامعة.. أدخل منتصف ١٩٩٤ أسوارها لأول مرة طالباً
بكلية اللغة العربية، ملتجئاً بثوب أسطى على العفيس تماماً، متوجعاً
السنة، لايساً فوق شماعي (العقل) كان معي أحد أصدقائي ممن
تخرجوا في الثانوية معاً، وهو أيضاً ممن كان مع الجماعة، ثم تعزّد
عليهم وتعرّض لبعض ما تعرضت له، ولعل هذه النقطة فقط هي
التي جمعتني وإياه لتكون في بداية الأمر صديقين داخل الجامعة،
وبعد أسبوعين، ولأننا بنينا كماراً فإن هذه الصداقة تطورت لتتقي
صباحاً ومساءً، نتشاكى ما عانيناه فيما مضى، وتبادل التأييد فيما
هو الآن، وربما استعرقنا لذة الانتقام منهم بالشتائم والنعر
الجامعة..

أذكر أنا في اليوم التالي كما قد حصلنا على الجداول، وبدأنا
التوجه إلى قاعات الدرس. كنت مهتماً أن أخرج بمظهر وإحسان
المتدين، لما يمحونه هذا الشكل من الراحة والأهمية، بيد أن هذا
من دون أن أعيه امتداداً لتعبير الدهشة، التي بقيت آثار المتدينين

السابقين فيها، وبالطبع فقد شعرت بأنني كبرت كثيراً، وبالرغم من تأخري سنتين عن موعد الجامعة، فشلت فيهما في الثانوية، إلا أنني أحس الآن بأنني كبير جداً، وأن لي كياني المستقل. إنني الآن طالب جامعي!

الجامعة..

لديني بتعلم اللغة العربية على أصولها لم يكن لها من نهاية، ولديني مع مرور الشهور الواحد تلو الآخر بكسب أصدقاء من الجامعة أيضاً كان لها طعمها الخاص، وسعادتي بتجاوز المعسل الدراسي الأول، وسعادتي بقضاء رمضان وليلته، على وجه التحديد في ملاحب كرة القدم مشاركاً في الدوريات الرياضية، التي يتخللها الكثير من الموسيقى واللهو وأشكال أخرى من أشكال الحياة!

الجامعة..

مضت السنة الأولى، وانتهى المعسل الدراسي الثاني، وفي جمجمتي الكثير من الكتابات الأدبية، وجود اللغة العربية وآدابها وموروثها، وكل أجوائها فعشقتها، وصرت أنتسج ما يوصي به المحاضرون من القراءات، وبدأ اسمي يدور في حسان الجامعة كشاعرٍ لديه ما يقوله، فكنت أحمل بصوصي وأذهب بها إلى النقاد في قسم النقد، لقد كانوا سعداء بي، وعلى رأسهم ذلك الدكتور الأردني، الذي كان يحتفظ بقصائدي ويعود ليوصيني دائماً بما يقصني، وكذلك كان يولي اهتمامه محاضرات البلاغة، التفسير المصري الذي ملّني بكل الكتب والدواوين التي أحتاج إليها، وحتى ما لم يكن بحورته من الكتب كان يفتش عنه أو يعود به من

إجازاته ليعطيني إياه، ولم يكن ليقل فلساً واحداً مقابل أي كتاب، ويقول دائماً بأنني أستحق أكثر من هذا وأنه محور بما يفعله معي!

الجامعة ومشتها الأولى، التي انصهرت شهدت تغيرات تدريجية، ومع بهايتها كانت هذه التغيرات امتداداً لشكل الحياة التي بدأت أنتهجها، وأستمتع بها عن كل ما مضى، فالتعبيرات الشخصية التي تجلت في مظهري المتأنق تطورت للباس العقال والتخفيف من اللحية، أي تقصيرها، وكذلك لبس الثياب الجميلة والعالية، كما جرأت وصرت ألبس الملابس الرياضية في أوقات اللعب، وفي غير أوقات اللعب، وأطلقت شعري، وصبحت بياضه القديم بالصعفة السوداء، ثم قصصته على طريقة القصص الحديثة، وأما ما يخص المجتمع فقد اقتحمته من جديد، وتعلقت بأصدقاء جدد من الجامعة، ومن خارجها، وحتى من أصدقاء الكرة!

صالححت إخوتي الخاصيين، وعدت إلى المشاركة في رحلاتهم واجتماعاتهم والولائم الأسرية، التي كان يتناولني البعض فيها باللمر والسرة، وأني تغيرت وأهبطني الشيطان واتبعته، فها أنا الآن ألبس الثياب الأنيفة، ولحيتي قصرت، ولم أهد أمانع في أن يعلو صوت الموسيقى في حضرتي، وعدت إلى متابعة كرة القدم ولعبها ومشاهدتها بالتلفزيون، وفي نهاية تلك السنة كنت قد عدت إلى الموسيقى والعناء والتعلق بهما، وانكسر هذا الحاجز بداخلي، بدايةً على المستوى الديني، فقد اقتضت بأن إنها جميلاً لا يمكنه أن يحرم الجمال، وما هو الجمال إذا لم يكن الموسيقى والعناء، ثم كسر الحاجز على أرض الواقع حين سهرت في إحدى الليالي مع بعض أصدقائي في الجامعة ورافقنا أعبية عبد الحليم حافظ

(زي الهوى) فسمعتها كاملة، وعينها مع عبدالحليم، ومن يومي الثاني اشتريت الشريط، واقتنيت معه بعض الاشرطة الأخرى، وصارت كل أجواتي بعد تلك الليلة موسيقية ما أمكن، مهووساً بأم كلثوم، وفبروز، وطلال مداح، ومحمد عبده، وكاظم الساهر، وفديرة أحمد، وسجدة الصعيرة، وميادة الحناوي، وماجدة الرومي.. وغيرهم!

هذه الانقلابات التي استمرت فترة طويلة، والتي خرج شكلها النهائي في نهاية السنة الأولى من الجامعة، كان لها أثرها في المتدربين الحركيين السابقين، وكان لا بد أن تكون لهم ردة فعل، ما كنت أدري كيف ستأتي، لاسيما وأنا أتعهد ذلك وأحذر بهذه التعيرات، فلم يكن ليحججني أو يحميني أن يروني بفصحة شعري ولحيني الجمعية وثيابي الجديدة، أو حتى بملابس الرياضة، بل يحدث أن يلتقي مصادفةً بسياراتنا فأرفع صوت الموسيقى ما أمكني لسمعوه، ومرات كثيرة جأني بعضهم بأصحي، ويدكرني بسابق الدين والمهد فأسمعه حتى ينتهي، ثم أطلب إليه ألا يتدخل بعد هذا في ما لا يحبه!

أولى ردات فعلهم خرجت بأن أرسلوا إلى والدي رسالة، اكتشفتها في ما بعد، فليت سعادته، باعتدالي وتعبير مهجي الحاد وسجاعي في دراستي، إلى شفاء وخلق على ابنه، فقد كتبوا له أنني انحرفت بفعل المخدرات، وأني متورط في الشهوات والمراتر، وأن لي علاقات جسيمة شاذة. لم يتركوا تهمة، يمكن أن تسقط أباً من غير أبيه إلا كتبوها، وأبي رجل لا يجيد إغلاق أذنيه، فبلغت الأمور عنده حد أنه صار يعيرني بتغييرني ويشتمني، ومرة طردني

من البيت، ومرة قصم قلبي حين أبغطني لصلاة الصبح فتأخرت قليلاً، ليهجم عليّ ويصرخي صرخة عنيفة، ويلعني ويحلف بالله إنه يكرهني، وأنه لا يأن لي بالبقاء في بيته بعد اليوم!

تشردت تلك الأيام من جديد، ولولا بكاء والدتي وعذاباتها ما كنت لأعود، عدت وأحر ما يمكن أن يحدث هو أن ألقي النجبة على والدي، الذي ما زالت كلمته «أكرهك» تترق أذني حتى اليوم، وحتى إن ألقيتها فإنه لا يجيبها!

أحر ردات فعلهم أن عدوا بي، فدرة رخيصة لا تليق بعير ما هم عليه من الكراهية والعدوانية. حدث أن جاءني منهم أربعة أشخاص إلى بيتي، برعمون أنهم يريدون التنازل معي، فرحبت بهم ليدخلوا بيتي، لكنهم أصروا على أن أخرج معهم في سيارتهم، ولأنه لم يكن بوسعي أن أسيء الظن بأحد قط، فلم ينظر بيالي أي سوء تجاههم..

ركبت معهم سيارتهم، وكان الحديث يمر بمجاملات مرية، ونحن نتجه إلى خارج المدينة، حيث قالوا بأنهم يودون أن يجلس على إحدى قمم الجبال، نتحدث هناك كيما شاء. وبعد أول وصولنا إلى المكان الذي احتاروه تغير أسلوبهم معي، وبلوا من السيارة ليشتلي أحدهم من ثيابي، ثم تحلفوا عليّ أريعتهم، ليقولوا لي إنهم لا يفعلون هذا إلا لأنهم ما زالوا يحبوني، وأنهم لن يصرخوني الآن إلا ليحرموا لسان الشيطان الضخم الذي في فاحلي، فربما توقظني من شهواتي وغلالي صرياتهم، فسألتهم فوراً:

- وهل هذا هو الحوار الذي دعوتهموني إليه؟

- لو حاولنا بالكلمات فإن شيطانك سيلهمك من الكلام ما
يتعلم علينا أن تفعلك بأن ما أنت عليه سيتهي بك إلى أن تتكرر له
ودينه ولنا

- افعلوا ما شئتم فوالله إنكم عدي أحقر من أن أدافع عن
نفسى بيسكم، وسيجيء اليوم الذي تدفعون فيه ثمن فعلتكم هذه.

فانفجر أحدهم غاضباً:

- ألا تسمعون هذا الوقع كيف يحدثنا، عليه لعنة الله وعلى
من أزال قلبه عن الحق!

انهالت عليّ سيولٌ من الكلمات، والرمسات، والصمعات،
ومرغومي بالأرض، وكلما اردادوا صمّاً زدت صمّاً، وما توقفوا
عن شراستهم تلك حتى بدأ الدم يغشائي، ويلون ثوبي الأبيض
بحمرته، فكفوا وكان آخر ما فعله أحدهم أن ركلني بقدمه في
صدري بأعنف ما بطيقه، ثم تركوني ممدداً هناك ومضوا!

فمت بعد احتمائهم وما بجسمي حلية واحدة لا تؤلمني،
وبوجهي وسائر جسدي من الكدمات والدماء ما كان يكفي على
الأقل لديكاه من القهر والألم! فمت ونحاملت على نفسي،
ومشيت حتى بلغت الشارع ووقعت أحرك يدي، ربما يفت أحدهم
لي، ويميلني إلى بيتي، لكن منظر الدم وحمرته بشابي لم يكن
ليشجع أحداً أن يفاخر ويأخذني معه في سيارته! أخيراً وقف لي
أحدهم، وحين رأي فتع فمه مذهولاً مما يكسوني من الجروح
والدماء، وسألني على العود:

- أتريد المستشفى أم الشرطة؟

- أريد بيتي مشكوراً..

حاول كثيراً أن يقنعني بالذهاب إلى أيّ منهما لكنني قلت له
إن ما يراه ليس أكثر من أنني سقطت من فوق بعض الحجارة
الجبليّة وأحتاج إلى العودة إلى البيت ومن هناك سأذهب بنفسي إلى
المستشفى، ففعل وأوصلني إلى بيتي دون أن يفتح فمه مجدداً،
كانما يريد أن يتخلص مني بأسرع ما يمكن!

دخلت بيتي وتخفيت عن أهلي متسللاً إلى غرفتي حتى هبرت
ثيابي، وأما ما بوجهي من الكلمات فقد أفتعتهم بأنني سقطت فعلاً
من فوق بعض الصخور وأنني محير، لكنني حين دخلت بنفسي
وهذات واستعدت كل ما حدث وكل تفاصيل العنف الذي تعرضت
له كنت أجنّ من العصب والحق لقد كانت تلك اللحظة، رغم
كل قسوتها، أشبه ما تكون بلحظة المفصلة النهائية، فماتت لهم
بداخلي حتى الذكريات الجميلة، ولم يعد بوسعي أن أتخيلهم إلا
من خلال ركلة أو صفعة أو لكمة، أو كلمة بذيئة!

إذن فبالرغم من كل هذه التحولات، على المستويات
الشخصية والدينية والاجتماعية والدينية، إلا أنني بقيت في معظم
أموري شخصية محافظة، وحتى صيف تلك السنة الجامعية الأولى
لم أبلغ حدّ التخلص النهائي من انتمائي إلى المتوحشين السابقين،
بل إنني ما رلت أشعر بهذا الديني القابع داخلي، يشعرني بالطمأنينة
ويربطني بالله على طريقته الخاصة، التي رفض معها أن يكون بينه
وبين السماء أية وساطات عبر هؤلاء، الذين تحولوا في عيني إلى
شياطين الأرض، وصاروا أكبر أعدائي وخصومي في هذا الوجود!

هكذا كانت السسة الأولى، وحتى الثابة من الجامعة، تحمل هذا الانعكاس الهائي من قبضتهم، وإن تكن النفس ما زالت داخل الدائرة، لقد كان انعكاساً صعباً ومولماً، لكنه كان باتجاه الحياة والجمال والموسيقى والأصدقاء...

انتهيت منهم، وصرت إنساناً جديداً عليه أن يعتني بدراسته، وأن يمتنع بالحياة، وأن يعلم أن الله لا يجعل بينه وبين أحد أنشطة، ولا جماعة، وليس بحاجة إلى الشيوخ ليربطوا به، وأنا لسنا بحاجة إلى أي من هذا لنصل إلى الله ونعبده بالطريقة التي نؤمن أنه يحسها اقتضت أن استمداء الأهل والمجتمع الدولة، والعمل على تقويض كيانها، وأن تكثير الناس لم ولن يكون مما يريده الله أبداً

سنن. شهدت في الأولى الانعناق من بونقتهم، وفي الأخرى الإقبال السهم على السهر، واللعب، واللهو، والجمال، والحياة بكل أشكالها، وأيضاً ما رلت الشخص المتدين، لكن بطريقتي وبمسهجي، ولا أقبل أبداً أن يظن أحد ما أنني غير هذا المتدين، وأن كل ما أعيشه خلال، وما دمت أتحرك داخل الحلال فأنا لم أتبع هواي، ولم أخرج عن الدين!

٢٠

في عسير ما يجب أن يجلس صاحب العلم والكتابة في رأس المجلس، إذ يعتقدون أنه يعرف عن الحياة أكثر من ذويه وقبيلته، الذين يلون حمار الحقل ثيابهم، فيجب أن يسمحوا له في المكان، الأنظف والأعلى، الذي يليق به. وفي بيت آل فلان أستاذ إدن فيحملون إليه الهدايا في كل مناسبة!

الكتب الجديدة، والفراءات الأخرى، والرياضة، والسهر، والرفاق، والأسفار، والسيارة الأنيقة، التي اشتراها لي أهلي، كل هذه الأشياء وغيرها، كانت امتجاراً كبيراً بداخلي، جعلني أتعلم بالحياة وجمالياتها، حتى إنني ما كنت لأترك يوماً يمر دون أن أوقع تاريخه مدونة ما، وصرت على هيام بالشعر والتجوال بالسيارة في الطرق المظلمة، خارج المدينة، أكثر من أي شيء. كنت أبتعد عن أبها بعض الليالي أحياناً مئة كيلومتر، فمعنى أن تغمرني العشة وأنا رهين بسحر فيروز، أو أية موسيقى، ألا تستدير ميارتي لتعود إلى أبها إلا وقد قلبت الفجر على أن يفتح عين العشة!

آخر سنين من الجامعة شهدنا أحداثاً كثيرة، يمكنني أن أصفها بالجميلة والشعافة، فقد صرت طالباً معروفاً لدى الجميع محاضرين وطلبة، وشاركت في أمسية شعرية، حضرها ألف طالب

على الأقل، ربت كسبي تلك الليلة الدكاترة، والتفت علي الطلاب،
وشعرت بنشوة، لا أدري أي وصف هو ذاك الذي يليق بها!

شعرت مرة لأصدقائي بالدفة عند أحد الدكاترة، الذي خصم
على الجميع خمس علامات، لأنهم لم يستجيبوا لأمره في شأن
ما، وقبل شعاعتي، فصاروا مدينين لي بهذه اليد، وبصيت بعدها
ناطقاً باسم الدفعة..

حانت لحظات التخرج، وانصرفت المرحلة الجامعية، التي
كانت هي معظمها باعثة هادئة، باستثناء سنتها الأولى، وبعض
سنتها الثانية، وفيما بعد نجحت في إقناع أهلي بشخصيتي
الجديلة، وأن ما أنا فيه لم يكن مجرد تمرّد على أولئك السابقين،
وإنما هو تمدّد علمي أخرجني من الضيق إلى السعة، ومن التشدد
إلى التسامح، ومن ظلمة الكراهية إلى ماء الحب، الحب لكل
الناس!

وتخرجت سنة ٩٧، في آخرها، وتسلّمت وثيقة التخرج،
ولبست عباءة التكريم، وحملت شهادة البكالوريوس في اللغة
العربية وآدابها، شاعراً لي قيمتي في هذه الجامعة التي دارقتها،
وفارقت الأصدقاء، الذين ما زلت أعيش بذاكرتهم، إنساناً جميلاً
معصماً بالحب والإقبال على كل فضائل السعادة!

كنا أربعة أشخاص، نحن الذين اتفقا أن تقدم على السفر إلى
خارج المملكة لأول مرة، ذلك السفر الذي كان يحرمه رجال
الدين تحريماً كبيراً ولا يبيحونه إلا لغرض الدواة أو العلاج..
وجّهز صاحبنا سيارته، وفي اليوم التالي كنا متجهين من أبها إلى
الرياض، ثم إلى الشرق نحو إحدى الدول العربية المجاورة،

فاصدين عاصمتها العاتنة.. وفي اليوم الثالث، وبعد أن قصينا يوماً
بالرياض، دخلنا بلداً آخر، وصربا في هذه العاصمة المثيرة،
ولأول مرة في حياتي أرى النساء هكذا دوماً حجاب وبشكل
علي!

كم ضحكنا حين رأينا بعض العنيتات يقدن السيارات بسرعة
عائقة أذكر أنني صدمت بحق حين دخلت أحد المتاجر، لشراء
بعض المصائر، فرأيت إحداهن تلس «الشورت» الرياضي مكشوفة
الشعر والذراعين والمعذنين والساقين وبعض الصدرا

اتجهنا إلى أحد المادق في شارع ضخم، ولم يكن لنعلم أن
الفسق الذي قصدها، محصن لسراء الدعارة والحمره كنا
مهتمين فقط بمكافئ سام فيه بعد هذه الرحلة الطويلة اكتشفنا هذا
حين استيقظنا، وعند خروجنا لتناول الطعام النقيصا في ردهات
الفسق بعض المتنيات الروسيات، اللواتي كنّ شبه عاريات،
واحداهن كانت تشير لي بفمها، ونقبل في الهواء، ولا أدري أي
دهول كنت أعيشه حينئذ. لقد كانت دهشة جعلتني أتجاهلها وكأنني
لم أرها الته، ثم عقدت اجتماعاً حاداً مع أصدقائي وقلت لهم: «إن
فراقاً يساً أن يسلم أحدا نفسه لأي من هؤلاء البعايا، ولقد اتفقا
منذ البدء أنآ آتون إلى هنا من أجل السباحة والترهة فقط!» كنت
ما رلت حينئذ متديماً، وكنت أمتنع عن هذه الممارسات وأكرهها
وأهرب منها، بدافع ديني لا بدافع إنساني، فكنت أرفض حتى
علاقات الحب بين رجل وامرأة، وأتحدث عنها على سبيل الشرف
وهز أعراض الآخرين، وأنه لا شيء يسمى حباً إلا ذاك الذي يأتي
بعد الزواج، العلاقة المباحة التي أحلها الله فقط!

احتللت مع كثيرين بهذا الشأن، بل ساومت بعضهم في صداقتنا ليشرك حبيبته، لأنها ليست روجته، وكنت أذكره بأن الله لا يحب هذا ولا يرصيه، فبعضهم يستجيب، وبعضهم يرمي هذه الفايروسات، التي ما زالت عالقةً بجمجمتي، ويمضي لحياته في تلك المدينة المغربة عشنا أسبوعاً كاملاً، لم نترك سوقاً، ولا ساحةً، ولا مكتبةً، ولا شارعاً لم نجل به، وفي أحد الأيام ذهبنا إلى إحدى الحدائق المائية، ورأينا الكثير من الفتيات، فكان أصحابي يستمتعون بهذا، وأما أنا فألود بالمرار، وأقع نفسي بأن النظر إلى المرأة محرم، وأنني حتى وإن تركت أولئك المتهيبين، فإنني لن أترك الله معهم!

قررنا العودة في اليوم السابع من رحلتنا، فامتطينا سيارتنا قافلين، ولبس الرياض في الثامنة ليلاً تناولنا عشاءاً، وجل في المدينة قليلاً، ثم انطلقنا على العود تجاه أبها، لكنا ما كنا نقطع ٣٠٠ كلم، وبدخل مدينة الأفلاج حتى اصطدمنا بأحد أضمة الكهرباء في حادث عيب، بقنا على إثره جميعاً إلى المستشفى، وأنا في حالة عيوبة تامة كان صاحبنا الذي يقود السيارة مسرعاً، ولم يتمكن من تدارك مفاجئته بـ «الدوّار» فوقع الحادث... وأخيراً بقيت فترة عاقداً الذاكرة، ثم بدأت باستعادتها تدريجاً، غير الكسور الثلاثة التي أصيب بها عظم كعبي اليسرى، والكدمات المتفرقة هنا وهناك في سائر جسدي!

سيارتنا تهشمت تماماً، وليس لدينا من المال ما يكفي لعود إلى أبها بالطائرة، فهااتف أحد الأصدقاء أهله، فجازوا قورا بسيارتهم، وبعد أن اطمأنوا إلينا حملونا، وأكملوا بنا طريق العودة!

ساعة وصولي إلى أهلي، وكنتي ونصف صدري في الجبس، ويدي داخل اللقافة، كادت تجنّ والفتي وهرع إليّ والدي وأخواتي وأخواني يسألونني عما أصابي بهلج، ولم يعرف أحد من أهلي أنني كنت خارج السعودية، لقد أقنعتهم أنني كنت في الرياض، للبحث عن وظيفة بعد التخرج، وهذا ما جعلهم يتألمون كثيراً لما أصابي، أما لو عرف أحدهم بأنني كنت خارج السعودية فسنتهم فوراً بأن هذا الحادث لم يقع إلا لأننا سكارى!

في نهاية صيف تلك السنة كنت قد تقدمت بأوراقتي الجامعة إلى الدولة، وطلبت التعميم بوزارة التعليم، معلماً في إحدى مدارس المنطقة الشرقية، وقيل بده الدراسة بأسابيع نشر اسمي في الصحف، مع التعيين في وظائف التعليم، وكانت وظيفتي في المنطقة الشرقية، فخرجت فرحاً بالعلماء، فأنا الآن موظف، وسأرحل من هذه المدينة بكل ما فيها ومن فيها!

سأترك ورائي كل الذكريات السوداء والبيضاء على السواء، وسأمضي إلى هناك حيث تنطوي حياة أخرى كان وقع الحبر على أهلي ألماً جدياً، وفي اليوم الذي سافرت فيه، تاركاً أبها، ومتجهاً إلى وظيفتي في المنطقة الشرقية بمدينة الحبر، رأيت لأول مرة دموع والدي، ورأيت الضمت والدم يخرسان لساه، كأنما هو يادّم على كل قصوته التي سامني إياها!

لم يكن لي إلا أن قبلت جيبي والفتي ووالدي، ثم رحلت، وبالرغم من الحزن العظيم الذي بداخلي إلا أنني كنت محتفلاً بالتحلّص من كل لحظة عشنا في هذه الأرض، التي بسيت حتى طيمة مشاعري تجاهها!

هناك في المنطقة الشرقية.

هناك عشت حياة العمل والتسكع، فكنت أعود بعد نهاية الدوام إلى الشقة الصغيرة، التي تجمعي بأربعة أشخاص آخرين، اضطررت إلى أن أكون معهم حتى تقتسم أجرة السكر، فأيام حتى السادسة مساءً، ثم يحبس إذ ذاك الخروج إلى الشاطئ، أو الأسواق، أو الملاعب، أو حتى إلى الحدائق والمتزهات، ومع بعض الرفاق، أو كتي، أو موسيقي، أقضي الشهر والشهرين على مثل هذه الحال، لا يريد إلا أن أذهب إلى البحرين مرةً، فأحرم نفسي من السكر والمرافق والنساء، لأنها عندي حرامٌ كبير، ولم أستطع حتى تلك اللحظة، وحتى ما بعدها، التخلص من سطوة هذه الشخصية المحافظة بداخلي، ولم أستطع أن أكون مثل أولئك، الذين يفعلون كل شيء، ثم لا يلزمهم إلا أن يرددوا بعض كلمات التوبة والاستعمار، فيعودوا بعدها أكثر شغافاً إلى ما كانوا عليه!

شهران مضيا، ثم زرت أبها عن شوقي بالغ إليها وإلى كل ما فيها، وكأن شيئاً لم يكن بالأمس، وقضيت مع أسرني أسبوعاً كاملاً، عدت بعده إلى وظيفتي، ولأكمل السنة كلها هناك، وقبل نهايتها بصاب والدي بأزمة قلبية تلزمه المستشفى عشرة أيام. كنت قلقاً، ولا أعرف لماذا يعتمد أهلي ألا يخبروني لماذا يمتنع والدي عن الحديث معي، وبعد إلحاح أخبرني أنني في المستشفى، وأنني سبب ما أصابه! أنا سبب ما أصابه! أجل، فالدم والشعور بالحسرة والعقدان جعلوا والدي في حالة من الوس والحرن دفعت به ليصعد إلى غرفتي، وحين رأى ثيابي

وكتبي وبقاياي في البيت خرب مكانه، لتنفله سيارة الإسعاف إلى المستشفى، ولحسن الحظ أنهم تداركوه، وسجا والذي بأعجوبة من الموت!

حين عرفت هذا لم أستطع، من شدة الألم، حتى المجيء لزيارته ولأطمئنه أنني بحير، وأني أحبه وسأعود إليه! كان الأمر أكبر من أن أتعامل معه بغير العجبة، والامتناع عن كل شيء! فاجأني بأنه هو من جاء، بعد أن تماثل للشفاء واستعاد عاقبته، وقضى عندي بضعة أيام، أحسست أنه يحاول التكفير عن كل قسوته التي لم تشمر سوى هذه القطيعة الحادة طوال هذه السنين، وهروبي المتكرر منه، وقبل أن يعادر أحد مني العهد بأن أعمل كل شيء لأعود إلى أبها، فوعده أنني سأقدم بطلب النقل والرجوع للسكن معه في بيته!

ولم تنته السنة إلا واسمي من المنقولين إلى مدينة أبها، فما كنت لأحزن، ولا لأفرح، حدث هذا وكنت من أباهي في الشرقية..

كانت ثمة شجرة اشتهرت باسمي، فصار الأصدقاء جميعاً يسمونها «شجرة المسيري» وأصبحت علامة ومكاناً للمواعيد «أين نلتقي». «عند شجرة المسيري»، «أين كنتم؟ من أين أتيتم؟» كنا على الشاطئ عند شجرة المسيري، أتينا من هناك، من حد شجرة المسيري. كنت كل ليلة إذا فنت الثانية عشرة حملت كتابي وأوراقي، وذهبت إلى شاطئ مدينة الخير، وجلست هناك في مكان محدد لا غيره، هناك تحت إحدى الأشجار، راعياً صوت

الموسيقى بشارني . وجهي شطر البحر، ويصري صوب السماء،
مستنداً ظهري إلى الشجرة، غارقاً في ألف ألف نشوة وحيال!
ومن أيامي في الشرقية . .

مرة ذهبت لزيارة أحد الأصدقاء في مستشفى «المواساة»،
وفي الاستقبال دار حديث غريب بيني وبين العتاة التي تعمل على
الجهاز، كان مديناً بالمظرات التي أريكني وأريكنها، وقبل أن
أمشي طلبت مني رقم هاتمي، فاعتدت مفاجأة، وبدوت كأني
أنهزب، مدمياً أنه لا هاتم عسدي . حمت أن أقع في حث هذه
العتاة، وأنا الذي يحارب كل أصدقائي على علاقاتهم بالعنيت،
معتقداً أن هذا يُعضب الله، وللحق فقد نذمت فيما بعد، ثم هدت
إلى المستشفى بعد زمن فعا التعت حتى التعتة إلي، وأدركت أنني
خدشت كبرياءها!

ومن أيامي في الشرقية . .

أنني سكنت طوال أربعة أشهر في مساكن جامعة الملك فهد
للبتروول والمعادن، في واحدة من غرف الطلاب الذين تعرفت
إليهم هناك، فعلوا كل شيء ليروؤوا لي بطاقة طالب، وسجحوا في
ذلك، وصرت من المقبلين الرسميين في الجامعة، أشارك الطلاب
في سهراتهم، ورقصهم، ولعبهم، وهمومهم، وحتى فقرهم
وفائقهم!

أذكر أننا كنا نجتمع حتى نكون ستة عشر، أو ما يقارب هذا
العدد، والستة عشر في غرفة واحدة صغيرة، نتناول عشاء جاء به
أحد العائدين من زيارة أهله الساكنين قريباً من مقر الجامعة . كما

ممدد أسلاك الدش (الساتلايت) من بعض البساتن المجاورة،
نوصلها إلى الغرف كي نشابع المعصائيات، والمباريات التي كان
يحوصها المنتخب السعودي، في بطولة قارة آسيا أو تصفيات كأس
العالم .

ومن أيامي بالشرقية . .

رحلات السرعة، التي لا تنتهي، مرة إلى البحرين، وأخرى
إلى الجبيل، وثالثة إلى الأحساء، ومرة ذهبنا إلى الكويت . كانت
الكويت، رغم فسوة أجوائها، ومظاظة صحرائها، مريحة مرخبة
بي، فارتحت كثيراً لها ونحيت أن لي قدراً ما بهذا المكان!
سنة حافلة بما لا يمكن أن يعيشه المرء مرتين تبحرت مع أول
ثانية حطت بها الطائرة على مدرج مدينة أبها، هادداً ومودهاً تلك
الأيام والذكريات إلى الأبد . .

٢٠٠٠

مستشفى (المواساة) الأحساء

١١١١١١ ١٤١١.٢٧ ٢٠٠٠

ها لا يمكن أن تكون قصة حب، ولا لقاءات، أو صداقة،
أو يمكن أن يخرج المرء مع التي يقرر أن يعيش معها حياته ليتاولا
العشاء في أي مكان، وليسهرها ويسجلا ذكرى لا يحاصرهما عقد
الأسرة!

هذا يمكن أن يحدث في أي مجتمع في العالم إلا ها، مع
أن آباءنا عاشوا في ما مضى الزمن الذي التقوا فيه الفتيات في
الحقول والمراعي وكانت لهم معامراتهم، وتزوجوا عن حب
واتفاق. لكن الحال تغير، ففي وقتنا فإن الأخت أو الأم هي
التي تحدد للمرء الفتاة المناسبة، ثم يتفق الأبوان على رواجهما،
وإذ ذاك للمرء أن ينظر إلى هذه الفتاة، وينظر إليه، فإن راق
كلاهما الآخر في هذه النظرة العاجلة، تقرر الزواج وإلا فلا أكثر
من ذلك!

كل يوم ووالدي يأتي باسم واحدة من بنات القرية، أو من
بنات أصدقائه، واصفاً إياها بأنها تستطيع أن تستقبل الضيوف،
وأنها تجيد الطبخ والكس، وكل أمور البيت، فأرفضها لأنني لم
أكن لأقتس من حادمة. وأخني وأمي أيضاً تحدثنا معي بشأن
العديد من الفتيات، ولم أكن أقبل أيّاً منهن حتى حدثني أخي عن
فتاة تحب اللغة، وتكتب الشعر، وتصفها بأنها جميلة جداً، كما
أنها موافقة على الارتباط بي لما تسمعه عني، ولما قرأته من
شعري...

حدثت والدي في الأمر: «إن كان لا بد من الزواج الآن،
إرضاء لك، فلتكن هذه الفتاة» ويرغم أنها من قبيلة غير قبيلتنا،
وبعد نقاشات وانفعالات كثيرة من والدي محتجاً على اختياري، أو

٢١

اللغة الأولى التي أصابت الأحياء أنهم لم يعرفوا عن مجيئهم
شيئاً، وأنهم لم يختاروه، واللغة الأخيرة التي سبب الأحياء
أنهم، وحتى آخر لحظة من حياتهم، لم يعرفوا إلى أين سيذهبون،
ولن يختاروا من ذلك شيئاً. الحياة التي لا حبار لأحد في
ابتدائها، ولا في انتهائها، لن يكون لها معنى إذا لم يتمكن من
اختيار ما يرغب فيه في خلالها!

ها هي أبها مجدداً..

١٩٩٩ تسجل أشياء جديدة لي في هذه المدينة، فمن أول
يوم دخلت إلى بيت والدي مجدداً، أخذ يطالبني بالزواج، جازماً
بأنه سيموت، وأنه لن يكون مرتاحاً، ولا راضياً لو مات قبل أن
يساوي بإخوتي فيروجنني مثلهم!

الزواج في مجتمعا..

الزواج في مجتمعا يعني أن نخبر أهلنا بموافقتك على
الفكرة، لتبدأ الأخت أو الأم بالتعشيش عن المرأة، التي تعفدان
أنها ستناميك!

لنقل على اختبار أخني الذي أعجبني، وافق والدي، ولم تمض سوى أيام إلا ونحن في بيت أهلها لرؤيتها.

جمالها الباهر، وروحها الطيبة، وملامحها البريئة، دفعمتني للموافقة وللحق فإنها أول فتاة يمكن أن أجلس معها، ناظراً إليها، متأملاً ملامحها، أفعل ذلك وأنا لا أشعر أن ما أفعله حرامٌ ميسقط السماء!

عدت إلى والدي، وقلت: «أجل، ناسيني»، وربما لو رأيت أية فتاة حينئذ لكان لي الموقف نفسه، فبكفي لأقول هذه الكلمة أن أرى امرأة، أية امرأة!

صارت زوجتي، وسأقول دائماً إن قدراً جميلاً جاء بها إلي، فلم نعد طريقة مجيئها مهمة مع كل ما تحمله من الصبر، واحتمال جنوبي وأطوارتي، وتغيراتي التي لا تتوقف هي رائعة، ونملك استمداداً هائلاً للصبر والنصحية، ولن أخسرهما أبداً، فهي قادرة على أن تذلل الكثير من أجلي، وفي كل مرة أريد تخليصها مني، ربما وجدت من لا يحملها كل هذه المتاعب مثلي، تعود لتتمسك بي أكثر وأكثر. أسمها القديسة، وأثق أن الوقت سيمحني نفسه لأقدم لها شيئاً، ولأشكرها على أن احتملت حطينة هذا المجتمع كله، وحطينة أهلها وأهلي، ثم احتملت احتجاجاتي وجنوني ومعاراتي المستمرة!

عودتي إلى أنها كانت تعني عودتي إلى رفاق الجامعة القدامى، وتعني عودتي إلى ملاعب كرة القدم، وتعني أيضاً اتفاقي وصديقي القديم، الذي درست وإياه في الجامعة، وكما قد تمردنا على الجماعة اللببية في الثانوية، على أن نستاذر شقة صغيرة،

لتكون للمتعة. جعلنا فوقها طبق الفضائيات، ووضعنا فيها ألعاب السلايشتير، وبعض الكتب، والألوان، وأدوات الرسم، ومسجلاً، وأشرطة أغان، وعرشاً للوم، لمن شاء أن يأتي إليها في أي ظرف. بقينا في هذه الشقة سنتين، وهي تزوي سهرات، وستصيف بها أصدقاءنا المشتركين، للسهر، ولعب الورق، وغير ذلك!

كانت كل هذه الأحداث خلال السنتين الأوليين بعد عودتي، والثانية منهما تحديداً شهدت رواجي. رواجي الذي كان قصة من المعاناة والحلقات الطويلة مع والدي، الذي يريد أن يقرر، بينة عني، كل شيء. حفاً لم يكن لي من هذا الرواج إلا أن قالوا هذه لك وأنت لها، هكذا اتفقا جميعاً ورايكما آخر ما يعيناه، ولدهشة التجربة الجديدة لم أكن لأفكر أصلاً بهذا المسطق، فاحتملت كل الرق والتدخلات، والمشاكل لينم هذا الرواج!

في ليلة الاحتفال بالرواج عاود والدي قسوته من جديد، ولسبب تافه لا يمدو كومي كنت أريد أن أبيع سيارتي المتهرئة وشراء سيارة أخرى أحسن حالاً لرواجي راح يلعنني، ويدعو علي، ويطرمني من البيت. في ليلة كهذه بقيت تحت كمادات الأوكسجين ساعتين عافداً الوعي لا أذكر إلا أنني استيقظت وأخني بجوارتي، وحين سألت ما الذي حدث، قال إنني انمعلت حتى سقطت مغمياً علي ونقلوني إلى المستشفى!

في اليوم التالي، وهذه الفتاة باتت زوجتي، تشاطرنني فراشي، اتفقت وإياها على أن نساغر لبضعة أيام، على طريقة «شهر العسل»، وبالطبع فإنني، من خلال تلك الشخصية اللببية التي

بداخلي، فرددت أن تنجني إلى مكة المكرمة والمدينة، كي نبدا حياتنا بطاعة الله، حتى يوفقنا ويرزقنا الأبطال الصالحين، والعمال الكثير المحلل. قضينا ثمانية أيام ثم عدنا على الفور إلى غرقتنا التي أحليت لنا بيت والدي!

من ذكريات بدء الزواج أنني قلت كلمة الطلاق، مازحاً مرة أو مرتين، وفي العقه، الذي كنت رهينته، أن من يقول هذه الكلمة فإن الطلاق يقع سواء أكان قائلها مازحاً أم جاداً!

ذهبت لسؤال بعض الفقهاء عن الأمر، فقالوا لي إن الطلاق وقع وإن هذه المرأة لم تعد زوجتي شرعاً هذا ولم يتجاوز عمر رواجنا الشهرين، فكذبت أجن، وبقيت على هذه الحال حتى سألت مفتياً آخر، فقال إنه لا حرج عليّ في ما قلته تجاهلت كلام السابقين، وذهبت إلى كلام هذا على شك بالغ!

ومن ذكريات بدء الزواج أنني كنت على اعتقاد حارم أنه لو كن على المرأة أن تسجد لأحد، فعليها أن تسجد لزوجها، وإن المرأة التي تنام وروجها غير راضٍ عنها تلعبها الملائكة حتى تطلع الشمس، وكنت أؤم بأن المرأة ناقصة عقل ودين، وأنه يجب كسحها وإيقافها، ألا يكون بيدها مال ولا قرار، حتى إني كنت أعتقد أن تغيبها أو حتى لمسها يفسد الطهارة، وأنه يجب عليّ بعد مجرد لمسها، ولو من غير عمد، أن أتوضأ وإلا فإن صلاتي باطلة!

كل هذه النظرات، اللاإنسانية وغيرها، كانت اعتقادات إيمانية داخلي. إنها ثقافة المجتمع الذي أعيش فيه، وهذه الثقافة هي

يعبها التي تحرم المرأة من أبجديات الحياة، وهكذا فهي مخلوق لا كيان له، ولا وجود، حتى إنه لا يصلح أن يكون لها أي إثبات قانوني، إلا من خلال الرجل، وهي بالتالي لا تستطيع أن تحصل على وظائف مميزة، ولا أن تنتقل من مكان إلى مكان إلا بوجود رجل، يكون من أهلها يسمى «محرمات»، وعليها أن تعطي سائر جسدنا، ووجهها، ويديها، ورجليها بالسواد، حتى لا يرى منها شيء!

هذه التصورات وأكثر كانت من صميم تعاملتي مع زوجتي، فهي العار، والشرف، والنقص، والحطية، ومجرد لمسها ينقص الوضوء، ومرورها بين يدي المصلي يقطع الصلاة ويمسدها، كالكلب والحصار تماماً، فهذا ما تعلمته، سابقاً منهم، أن المرأة والكلب والحصار تقطع الصلاة!

كان أكثر ما يؤمس به الناس أن يتواصوا بالأمثال التي تحقر المرأة، وتقلل من قيمتها كإنسان، فيسمون المرأة بـ «الحرمة»، ويقولون «املا البيت حميراً ولا تملأ حريمنا»، ويقولون «المرأة عصي معقوف إن أقمته كسرتة، وإن تركته بقي معقوفة»، وللأسف فقد آمنت المرأة بعصا بكل هذا أبصاً، واعتادته، ورفضت الخروج منه، وصارت المرأة ذاتها تتهم كل من يدعوها لكسر هذا الشر والجهل، أنه إنما يريد أن يخرجها عن عفافها وحجبها، بقيت مستعبدة بما هي فيه، مستعذبة أن توصف بالجهل، ونقص العقل، وأن يمتدح المتحدث، إن أورد اسمها في مجلس، كأنما يعتلر بأنه قد تحدث عن قنطرة لا تبنى بأدان الجالسين، وبكل هذا كنت أنظر إلى زوجتي، وبكل هذا كانت زوجتي تقبطني!

وفي نهاية السمة الأولى من رواجي قرر والذي أن يتزوج
بمسيدة أخرى، فخرجت من البيت، وأحدث أسرني الصغيرة
لنستأجر شقة صغيرة، في بيت قديم جداً، ولأنه الخيار الوحيد
فكان علينا أن نمش بين القتران والصراخ والمحترات، في هذه
الشقة البالية، التي لا نطاق رائحتها، ولا أي شيء فيها!

كثيرون، يمرون بنا في هذه الحياة، يمكننا أن نتجاهلهم، ثم
للحظة ما نتوقف عند البعض منهم، لأن قدراً ما يتظربا برفقتهم،
وكثيرون يعيشون معنا سبب طويلة ولا نكترب لهم، ولا نشعر
بأهميتهم، ثم يحدث أن يلتقي شخصاً ما، لخمس دقائق فقط في
العمر كله، لكنه يكون أقرب إلينا، وأهم من كل أولئك!

منصور النقيدان سمعت عن هذا الذي كان مع آخرين، مثل
أولئك الذين كنت معهم، لكن هناك في المنطقة الوسطى، لم يكن
كافراً بأي تنظيم حركي، وإنما مع متشددي التكفير لم يكن
إخوان م ن الديسيون يحملون رؤية ثورية بخصوص خلافاتهم
بالسلطة والحكم، والتي كانت سبباً في القضاء على أكبر رموزهم
عام ١٩٢٦م في معركة شهيرة، مرقهم فيها المثلث الدكي،
عبد العزيز آل سعود، وحمه الله.

إخوان منصور النقيدان الديسيون لا يدخلون أبناءهم مدارس
الدولة لاعتقادهم باحتواء ماضج التعليم على طرق عربية، وبأنها
محالة لنهج السلف الصالح، وإلى فترة قريبة جداً كان عشرات
منهم لا يستخرجون بطاقة شخصية بسبب الصور، ولهم أفكارهم

الخاصة ورويتهم لحزمة من المسائل الدينية والثقافية والاجتماعية، كان لها مسوغاتها الدينية على سذاجتها. ظهر فيهم شخص واحد شكل بنفسه تياراً، وكان أتباعه والمعجبون به ما بين مد وجزر، غير أن صرامة تعاليمه وشدتها لم تكن تسمح للبعض بالصمود والثبات، وكلهم كانوا كالعادة من جيل الشباب. لقد كان للشيخ ع ح أفكاره الخاصة، التي يحالف بها معظم المتدينين هناك والدين واجهوه بالقطيعة والبيد. أفكاره المعالمة هذه مثل: عدم ركوب السيارة، والامتناع عن استخدام الكهرباء، كما أنه لا يؤمن أبداً، وهذا يتفق معه فيه الديون هناك، بأن الإنسان أمكنه الصعود إلى القمر، ويرى ع. ح بأن الطائرات والمحركات، وكل أشكال الطاقة ليست إلا سحراً، ينفه الله يوماً ما!

كان منصور النقيدان لسنوات ست براوح مابين أفكار إخوانه المتدينين حياً، والإعجاب بدع، ح حياً، والانخراط معه بخصومة حياً آخر، وأخيراً كان لمصور النقيدان نصيبه من القطيعة والبيد من إخوانه، فقد كان كثير الأسئلة، متمرداً معالماً لمشايعه معتقاً لتعاليمهم بحماسة، أخرجت شيوخ الجماعة!

كانت تلك القطيعة هي الثقب الذي مكبه من أن يكون أكثر حرية واستقلالية في البحث والتمكيز والتفكير اللاحقة في مسيرته. سمعت عن هذا الشخص، الذي تمرّد على كل ما ذكرته، وعلى كلّ الدين سرقوا منه عمره، كما سرقوا مني عمري، وما هو تنشر له صحيفة الحياة مقالاته، ويعمل محرراً لدى صحيفة سعودية، ويكتب عن تجربته بكل شجاعة، ويمتد كل القيود التي كبلوه بها علناً وعلى مرأى ومسمع منهم، ومن الدولة ومن الناس

أجمعين، فجعلت أبحث عن كل وسيلة ممكنة للوصول إلى منصور النقيدان هذا الشخص الذي عاش الوجه الآخر من تجربتي! افتعلت قصة للنقاش، وأرسلت إلى بريده الإلكتروني أطلب لقاءه، كنت بائساً، وأحدث نفسي «إنه إن يكن مثلي فإنه سيكون أكثر رجماً من أن يجيبني إلى أي حوار»، لكن المفاجأة كانت أن يجيء الرد فوراً بأنه لا يمانع من لقائنا، وجاءت رسالة الرد مصحوبة برقم هاتفه، وعنوان الصديق الذي يقف فيه.

في اليوم التالي كان منصور النقيدان إلى جانبي في سيارتي، كان معتدل القامة ذا لحية خفيفة، في الثانية والثلاثين من عمره، رفيق الصوت، جذاباً ومهيباً، وكل ملامحه وطريقته في تقليب عييه ملأى بالأسى ويحب الناس، كان يقول كل ما لديه، وكأنما لا توجد قوة على هذه الأرض لتثبه عما يريد أن يعبر إليه، أو أن يعبر عنه!

أحبته كثيراً، وشعرت أن طاقة ما تنقصني يستطيع هذا الرجل أن يمدحها، لقد كان م ن مقاتلاً حقيقياً، ولم يكن قط ليقبل الهزيمة أو يستسلم للوجع.

وكذلك عرفت في تلك الفترة شاعراً حبشاً جدياً، لا شيء عنده في هذه الحياة أكثر قيمة من الصحك والمتعة واللذة والسهر، عرفت وفي الأسبوع التالي من تعارفا أخبرني بأنه سيسافر إلى اليمن، إذا ما كنت أرغب في الذهاب معه، ولأني تعودت افتتاح الأشياء التي لا أحرف نهاياتها فقد وافقت فوراً!

بالمناسبة، عبدالعزير المقالح، سيد الحدادة يجلس أمامي، ويتحدث إليّ وأتحدث إليه، ويطلب إليّ أن أسمع الشعر، فيصق

ويبتسم ويقول لي «أعد، أعد»، احتفل المقالح بي أبحاً
احتمالاً

كنت أعرف بأنني شاعر مبتدئ، لكنه ولثلاثة أيام نتردد إليه،
يوقد في التمرّد الشعري، محتبياً بي، ومتحدثاً عني، وعن أسلوب
أمام العشرات من الحاضرين، وإذا ما الليل جلست إما إلى عالم
اللغة، اليمسي الكبير، محمد عبدالسلام منصور، يقرأ معي أوراق
واحدة واحدة، يقول لي: «أصبت هماً»، «ولو أنك فعلت كذا
هناك...»، وإما إلى الرجل العذب، خالد الرويشان، يشرح لي كيف
يمكن للإنسان أن يمتطر حباً، فتحيا به الأرض الموات، وأحبراً،
وقبل أن يمضي نبأ محمد عبدالسلام بأن ستكون لي كلمة لا
تشبهها الكلمات، وأخذ المقالح يربت كتفي، هامساً في أذني،
أنني سأتيه يوماً ما وقد تغيرت كثيراً.

عدت من اليمس، وأنا في حالة من الدحول بما عشته هناك
وبلقاء محمد عبدالسلام والمقالح وبعثتهما بي، وأعرف أنني
رجعت وبداخلي سيران أججها هذان الرجلان، فأقبلت على
الفراءات والكتبة والشعر، وعقدت العزم على ألا تأتي الفرصة
الثانية للقاءهما وأنا كما أنا!

لا أدري أيهما كان أشد وقعاً على نفسي أمي ريارتي لليمس،
أم افتتاني بقتالية منصور القيّدان، أم أن الأمرين تراسما في حياتي،
هكنا سبباً لكل ما جاء بعدهما بهذا التحريض من م ن على
الكتابة، والتحريض من اليمسيين على الشعر عصبت جيمي،
وأقسمت ألا يكون لي في هذه الحياة من حظ سوى هذا الطريق
القيّدان والمقالح وعبدالسلام، كانوا يستمعون إليّ، ويؤكدون

أن لدي ما أقوله، ويدافع من م ن كتبت أول مقال، وبعثت به
إليه، لينشره في الصحيفة، وما كانت الأرض لتتسع لفرحتي
واسمي بوقع مقالاً في صحيفة شهيرة، كذلك التي يعمل بها منصور
القيّدان، وبعثت بأول نص شعري وشرته الصحيفة أيضاً

كان المقال، ثم المقال، ثم الثالث، ثم العاشر، وهي الريع
الأول من سنة ٢٠٠١ أصبحت كاتباً رسمياً في صفحة الرأي، ثم
كانت القصيدة الأولى، والثانية، والعاشر نشرت في هذه الجريدة
أيضاً!

كل هذا بعد مرور سبعة أشهر فقط على لغائي الأول م ن،
أكون كاتباً معتمداً، وكل هذا بعد مرور ستة أشهر على لغائي
الأول للمقالح صرت شاعراً معروفاً، خصوصاً في المنطقة،
وشاركت في هذه احتفالات، أثبت من خلالها أنني قادرٌ على
تحقيق سومة هذا الشاعر الكبير، المقالح في تلك العشرة كنت
أناصل لأقدم مقالات نمكسي من اقتحام هذا العالم، وبعد أن صار
اسمي مطروحاتاً، وبدأ ضوؤه الإعلام يتناولوه شعرت بالسثوة
والانتصار والفرح، وأسي وجدت السبيل الذي يمكسي عبوره إلى
تعويض كل ما فاتني، ورد كل الصفعات والهرائم لكل من باشرني
بها يوماً ما!

بدأت بالكتابة عن المعاهيم الدينية المملوطة، وكيف استثمر
البعض تمثيله للدين، إما من خلال منصبه، وإما من خلال مظهره
في أن يكون لسان السماء في الأرض وما بين الناس، وركرت
كثيراً على أن الإسلام لا يمكن أن يكون ديناً كهوتياً، وأن من
يعمدون إلى مثل هذا التسلط على الآخرين يستنود إلى صورة

الديانة كلها في أذهان الآخرين، وتحدثت عن قضايا الشباب والانغلاق، وما يؤدي إليه من انفجارات نفسية لن يجني مغبتها سوانا، وكنت أشرح مواقف مجرأة وصدامية، وتحدثت كثيراً عما يدور في التعليم من نفوذ لهؤلاء، وحاولت كشف كل ما يمكن كشفه، ولكثرة ما كانت مقالتي حادة فإن واحداً كان يصيح له بالنشر وثلاثة تمنع وهكذا!

كلفني الكتابة والشعر الكثير من الضوضاء والحلافات الاجتماعية، وتردد اسمي ما بين الناس، وفي أذهابهم كأنصودج للمعمانيين الأشرار، الذين يريدون أن يمسكوا في الأرض ويجعلوا عاليها سافلها، لقد كانت هذه الفترة من الكتابة تأخذي إلى انحصار اجتماعي، وبالرغم من كل ما حصنته من الشوات والتجبل إلا أنني كنت أعرف أن عصباً، وخصوصاً من قبل الدينيس الذين كنت معهم، سيكبر ويكبر ثم لا بد وأن يحاولوا إيقافني أو أن ينسبوا لي بأي أدى!

إذن قد انتشر اسمي انتشاراً جيداً، كشاعري، وكاتب متمرّد خرج بشكلٍ مفاجئ. ودفع هذا بالنادي الأدبي إلى استضافتي لأول مرة في أمسية شعرية في كل شيء أحققه كنت أشعر بأن احتمالاً أكبر بتطري، وأنا أسير باتجاهه، حدث كل هذا في سنة واحدة، كانت من منتصف السنة الألفين حتى منتصف الألفين والواحد، لأكون منذ تلك اللحظة أحد الكتاب والمثقفين، الذين لا يستطيع أحد أن يتجاهلهم، على الأقل على مستوى المسطقة هنا في الجنوب، ومن منصور النقيدان واللييلة الأولى معه، ومن اليمن ولقاء عبد العزيز المقالح ومحمد عبدالسلام، ومن المقال الأول

في بريد القراء، والقصيدة الأولى بعد هودتي من اليمن تبدأ رحلتي، لا أعرف كم ستطول وإلام ستنتهي، هي جميلة وأثق بأنها ستكون حافلة بالشوة والنصرا
بدأت من تلك النقطة، بدأت هكذا كأن شيئاً ما كان يدبر لها أن تحدث في ذلك التوقيت بالذات!

مكتبة زواصي أمصوت

WWW.TOWAY.COM

ما لا تدفع عنه.. سيكون أي شيء إلا أن يكون لك!

الثمن..

كل هذا الثمن بسبب عقالة..

كتبت، وفي الربع الأول من عام العين وواحد، مقالاً تحدثت فيه عن الموسيقى، وذكرت بعضاً مما قيل في فضائلها، من رموز الثقافتين العربية والغربية، قديمهم وحديثهم، فأوردت نقولات عن أفلاطون، ومولتير، وعن الشافعي، والشوكاني، وابن رشد وغيرهم، عن أثر الموسيقى وترقيتها للطبع وتهذيبها للنفس، ثم تعجبت كيف يجرد البعض من هؤلاء المتأخرين على تحريمها ووضعها بالشر، ثم طلبت من وزارة التعليم أن تعتمد لدينا مادة تثقيفية موسيقية، فمن المكان الوحيد في العالم الذي لا يهم أهله مما يسمعه شيناً، وذكرت أحياناً أن الحياة بدون الموسيقى ستكون موصى عارمة وهكذا دار المقال من أوله لآخره!

فلأنني قلت هذا عن الموسيقى.. حدث أن اجتمع ثلاثون، من المشايخ الدينيين، واتجهوا إلى شبح قبائل عسير، وطلبوا إليه إحضاري لمحاسبتي، أو على الأقل إحضار والدي، واستجاب

سيد القائل لهم، فاستدعى والدي الذي يادروه بقسمهم: «والله إننا وددنا لو أننا أعطيناك فدية عدو الله ورسوله هذا، وأنه ليس ابنك!» فتجمد والدي في مكانه وسأل:

- ما الذي فعله ابني؟

- إنه يحتل ما حرم الله ويحاهر بهذا في الصحيفة العلمانية!

ولأنني قلت هذا عن الموسيقى..

كاد والدي يجرى، والدي الذي لا يعرف سوى قانون القبيلة وأعرافها يعود إلى البيت، ويرسل إلي أحد إخوتي ليقول لي «لا تدخل بيتي بعد اليوم، الشيوخ الدينيون وشيوخ القبيلة قالوا إنك تحارب الله ورسوله»، ويأتيني أخي ليؤذي الرسالة، وأقطع من هذا فقد أقعوا والدي بأن يذهب إلى المحكمة الشرعية ويتبرأ مني ويقيم صدي دعوى الردة عن الدين، ولو أن أخي الأكبر تدخل واضطره إلى التراجع لكان فعل!

يتردد إلي أهلي، واحداً تلو الآخر، يؤذونني، ويتهمونني بأنني ألحققت بهم العار، وأنهم لم يعودوا قادرين على أن يلتقوا الناس، وأنا أشاركهم في اسم العائلة، حتى إن أحدهم أقسم بوجهي: «والله إني أستحي أن أقول للناس إنك أخي!»، وأمي التي ترورها النساء من كل مكان لينشعبن بها لم تعد قادرة حتى على أن ترد علي التحية!

ولأنني قلت هذا عن الموسيقى..

لم يتوقف هاتفني من الرئيس، وكلما أجيبت أحداً «مرحباً» بأشربي بـ «لعنة الله عليك يا عدو الله» والله لتدفعن ثمن ما كتبت! وآخر «حين نلتصق وجهك بالتراب ستعرف لذة الموسيقى»

وآخر «يا علماني، يا حقير، يا دثوث، يا ابن الشيطان ووليه»
وآخر وآخر. أسمعهم ساكتاً وكل خوف الدنيا في صدري!

ولأنني قلت هذا فقد تواجد الشيوخ على بيتي، يهددون،
ويعظون ويأخذون عليّ الموائيق ألا أكتب بعد اليوم من هذا شيئاً،
وآخرون منهم جاؤوا إلى مقرّ عملي يلتقون محاضرات عن حرمة
العناء، ويصفونه بأنه يريد الرسي، وأن من يحلّه فإنه يحلّ ما حرم
الله، ومن يحلّ ما حرمه الله فهو كافر صريح الكفر! يقولون هذا
وأنا أحد المستمعين صامتاً وكل خوف الدنيا في صدري!

ولأنني قلت هذا.. هجيء شيخ مشهور من المدينة الكبيرة،
فيلقي محاضرة في أكبر المساجد في أبيها ليثبت حرمة العناء
والموسيقى، وكمر من يقول بتحليلها من العلمانيين والحدائيين،
وتأخذه الشوة بالحق، الذي يتصوره، ويرفع يديه للسماء ثم ينهل
عليّ ذاكرة اسمي.. كان في المسجد ألحان من المستمعين يؤمون
على دهائه «اللهم جمد الدم في عروقه، اللهم أربا فيه عجائب
قدرتك، اللهم العن العلمانيين والحدائيين واجعل كيدهم في
سجورهم، واخرهم في الدنيا والآخرة، اللهم اكسأ بهم وافلهم
ورمل ساءهم ويتم أظمالهم إلح» وليؤس والذي وحظه السيئ
فقد جاء إلى هذه المحاضرة ليستمع إلى الحبر، فكان أن استمع إلى
كل هؤلاء يدهون على إبهه بالهلاك، فيحصد رأسه حجلاً ويبكي،
ثم يعود، وهو على وشك أن يتوقف قلبه، لا يدري أبشع عليّ أم
يلعني معهم. كل هذا وأنا صامتٌ وفي قلبي كل خوف الدنيا!

ولأنني قلت هذا.. تواطأ مديري في العمل مع المسؤولين
في الإدارة العامة، ووجهت بنقل وظيفتي خارج مدينة أبيها في

مكانٍ شاقٍ جداً ومرروا انتقامهم هذا حتى دون علم مدير التعليم،
وكان في هذا ما يدعوهم للاحتفال، أن يألوا مني أنا الذي أحارب
السماء ومن فيها، وأجأهم أمام الله بتحليل الموسيقى!

فعلوا هذا، بعد أن قاموا بكل ما يمكن القيام به داخل المكان
الذي أعمل فيه، كتوزيعهم لمقالاتي في ما بينهم، مع التعليقات
التي يكتبونها عليها، مشتبين علمانيتي وكهري، ومثل استعرااتهم
لي بالفتايات، التي تصل إلى حدّ أن يهص أحدهم من مكانه
ليعتدي عليّ، ولولا أنهم يعتقدون أن لي علاقة حميمة بأمير
المطقة لنصوا تهديداتهم، وبالفعل، فلما بلغ الأمر مبلغه هذا،
توجهت إلى الأمير خالد بن فيصل بن عبدالعزيز وشرحت له
الأمر، وكل ما تعرضت له، فأنصني، وأعدني إلى أبيها، بل أمر
بترفيحي إلى رئيس لأحد أقسام الإدارة!

أمير هذه المنطقة، خالد بن فيصل، شخصية يادرة، يحمل
داخله الكثير من الحس الإنساني، يبدو عاطفياً وشاعراً وشاعراً
رفيقاً، وفي الوقت نفسه يدبر عمله بحزم كان من أوائل الذين
حاولوا التنبيه إلى خطر الدينيين المتطرفين وما يفعلونه، وما
يطمحون في الوصول إليه، ومواقفه الكثيرة لمصلحة الثقافة والفكر
والإنسان مواقف بيضاء، لا يسكرها إلا من اعتادوا أن يجحدوا كل
شيء!

بقيت شهرين لا أستطيع رؤية أبي ولا الاقتراب منه، وفي أحد
الأيام فاجأته وقبلت رأسه ويده، فلم يلتفت إليّ ولم يرفضي لكنه
بقي سة كاملة لا يتحدث معي، ولا يقبل أن يجلس في مكانٍ أنا
فيه، ولا أن يجلس حول مائدة أنا جالسٌ إليها!

حدث كل هذا لأنني كتبت مقالة صغيرة في الصحيفة، أقول فيها بأن الموسيقى روح الحياة، وأن الخير للأجيال الآتية أن تتعلم الموسيقى التي حرمتها!

انتهت الرواية بعد عدة أشهر، لكن النتائج كانت وخيمة جداً، فقد كان هذا المقال انتحاراً اجتماعياً عالياً، فلم يعد هناك من أحد يود الاقتراب مني، ولا أن يدخل إلى بيتي، ولا حتى أن يستقبل أسرتي التي لا ذنب لها إلا أنني عائلتها!

خسرت المجتمع كله، وبقي اسمي بمنتديات الانترنت وجبة دسمة للشائعات والدعاء واللعن والتكبير، وعشت شهرين لا أخرج من البيت إلا ومسدسي في جيب ثوبي متوقفاً أن يلذبي أحدهم! كنت قد كتبت مقالات أثارت ضجة كبيرة أيضاً، لكنها لم تكن بحجم ما فعلته هذه المقالة، وذاك لأنهم يعتقدون اعتقاداً تاماً أن التعليم ملكٌ لهم، وأن من يدعو لإدخال الموسيقى فيه مثل من يعتدي على بيت الله الحرام!

كتبت قبل هذا تحدثت عن الأنشطة المدرسية الحركية، التي تقتل عقول الطلاب بدلاً من أن تقود بها شرارة الإبداع، والمحت إلى أن الدولة الطالابية هي النموذج الذي تعلم به مثل هذه الجماعات في المدارس، مستغلين بلدياً، ومستغلين ما تمنحهم إياه من الحصصية. هوجمت أيضاً، لكن نبوءاتي هذه لم تكن لتثيرهم بحجم ما أثارهم فضح شبوخهم، وتحليلي للموسيقى، وطلبي من المسؤولين عن التعليم إدخالها إلى المناهج!

قاتلت تلك الفترة، وعرضت نفسي لمخاطر كبيرة، وبدلاً من الانكماش طلبت أن ألقى محاضرة بمجلس الأمير الذي يعنع

صالونه كل يوم أحد للمثقفين، وجاءت الموافقة وقدمت هذه وعلى سمع ومرأى من الجميع محاضرة، أتحدث فيها عن «المرأة والمقاييل الرمزية لها في الشعر العربي المعاصر»، وسار الناس بالحديث عن هذه المحاضرة، وأن هذا الذي يتحدث عن الموسيقى بالأمس ويحللها يتحدث اليوم عن المرأة، ليخرجها من بيتها وعفاها ويحيل نساء إلى عاهرات يجلس وراء المكاتب، وتظهر صورهن في الصحف، ويحاطن الرجال في كل مكان!

www.ayman.org

www.ayman.org

www.ayman.org

إذا أراد شيء ضخم أن يعير جلسته . فالكثير سيدفون ثمن رغبته هذه، والعالم حين يعير جلسته قلل يدفع الشمس سوى الإنسان!

الثلاثاء ٢٠٠١/٩/١١ .

في مكتبي الصغيرة جالساً، ويدي رواية عاري القصصي المشهورة «العصفورية»، كانت الرابعة مساءً بشوقيتنا، وكان التلفزيون مشتاً على قناة الجزيرة الإخبارية كالعادة . خرج المنيع فجأة ليقول إن أميركا تتعرض لاختطاف طائرات مدنية، وتنتقل الكاميرا للمتابعة . . الطائرة الأولى تصدم برج التجارة العالمي، والثانية البرج الآخر، وثالثة هناك الشاهود حدث هذا خلال ساعتين فقط! كنت أتابع الأمر مذهولاً فزعاً!

منظر داك الذي ألقى بنفسه من أعلى الساية ينزع القلب من مكانه! وتحيلني للراكبين بالطائرات، التي تصطدم بالباية، ومجرد الخيال كان مكيًا ومأسويًا!

انهيار المبنيين، على من فيهما، بدا شيئاً فظيماً وكارثة لم أتمكن حتى من التعليق ولو بكلمة واحدة على ما أراه، سوى أن أصرخ وحدي كالمجنون «لا.. لا.. لا..»!

اتجهت أصابع الاتهام إلى غير جهة كان تنظيم القاعدة في طالبا أكثرها احتمالاً، ولم أكن لأنحيل أن هذا صحيح، كنت أسحر أن كيف يمكن لابن لادن ومن معه أن يلكموا أميركا على وجهها، وهكذا بكل بساطة في ساعتين، وبعد وقتٍ تظهر أشرطة الفيديو، التي يعترف فيها بن لادن بعملته ويصف مخططه، وكيف كانت النتائج أكبر مما كانوا يريدونه، وفي هذه الأشرطة تأتي بعض اللقطات لتدريبات هؤلاء الشباب الصغار، وأناشيدهم الحماسية، وجلساتهم على الأرض والحطب والصيحات التي يتداولونها في ما بينهم . هذه المشاهد بعينها، هي تلك التي كنت أعيش أجواءها في المخيمات أيام كنت مع جماعة الأنشطة!

إذن فالتسعة عشر، الدبر فجمعوا العالم في هذا اليوم من سبتمبر، كان من المفترض أن أكون مشريهم، لو أبي بقيت معهم، واستجيت لأولئك الذين كانوا يريدون أن يفتحوني بالرحيل إلى أمانستان! ولكنت واحداً من الذين هدموا كل هذه الطوابق على رؤوس من داخلها! ولكنت واحداً من الذين مزقوا المسافرين داخل الطائرات التي اصطدمت بالساعات الثلاث! ولكنت طرفاً في جريمة من أكبر جرائم التاريخ بحق الإنسانية مهما كانت المسوعات السياسية أو الدينية أو غيرها. كنت أريد أن أصبح بوجه العالم كله . «إني كدت أكون معهم لو أنني لم أبح بنفسي في الوقت المناسب» .

كنت أريد أن أهاجم أبي وإخوتي وأهلي وجماعتي ومجتمعي، وكل الذين لاموني على تركهم، وعلى كل تغير حدث في حياتي، لأقول لهم: «الآن يجب أن تقولوا إني عظيم، على

الأقل، لأنني عرفت طريق الجريمة مبكراً، ولم تكن لي فيه ولو خطوة واحدة الآن يجب أن تعتذروا جميعاً عن كل ما وجهتموه لي من العدائيات والشتم والاصطهاد، فلقد كنت وحدي من يعرف الشر الذي يحثني وراء مظاهر هؤلاء، تلك المظاهر الحادة، فلطالما قلت بأنني ضللت وأني انحرقت، وأني تركت الهداية والدين واتجهت لحرب الله والحير، فما أنتم قائلون لي اليوم وأنتم ترون جريمة الدين فارقتم ولتمتموني على ذلك طويلاً طويلاً، وما أنتم قائلون لي بعد أن مجتهد هؤلاء كل هذه السنين، ووصتموهم بالصالحين وهم يفعلونهم من يهدد بلدانكم وأطعناكم وساءكم ومستفيلكم والعالم كله يود لو يمزقكم لأنهم جاوزوا من بيبكم... ما أنتم قائلون لي بعد أن أطريتكموهم على كل ما بدواخلهم من العطاسة وأديتموني بكل ما تعرفونه لأنني حملت إليكم الموسيقى والأغنيات والحب والإنسانية!..

كان في ما حدث من جريمة للإنسان في تلك الحادثة انتصار لموقفي هنا، كان انتصاراً من الطعام، فلم أكن أقل مجيئة من أي شخص يرى هذه الطوايق تنهار على شخص يعبه داخلها!

تغيرت نظرات الكثيرين بحوي، مع أن الناس وبعد أن نبين الأمر وصرح بن لادن غير مرة بأنه هو من فعل ذلك، قد انفسموا نحو هذه الحادثة فسمين، فالأول معارض لهذه العملة مفتع بأنه لا ديانة ولا إنسانية يمكن أن تبرر هذا العمل، مشيراً إلى ما ينتظروا من الحروب والانهيابات الاقتصادية، وكان يشتم بن لادن ومن معه، ويقسم على أن هذين الرجلين ملطين منقطاً لن يعيد بناءهما سوى ماله الذي ستبتره أميركا بكل وسيلة ممكنة، وما زال حتى

اليوم يتساءل: ما الذي قدمه ابن لادن هؤلاء لكل من قتل في أفغانستان ثم العراق والبقية تأتي. أما القسم الآخر فإنه حتى هذا اليوم يرى بن لادن بطلاً تاريخياً، ويدعو له ويسأل الله أن يحفظه وأن يمدد بالعمر حتى يحرر العالم كله من الكفر والكافرين، وأما الأمرية ومن لا ذنب لهم ممن ماتوا فإنه يعلق على هذا بأن من قتلوا بأميركا لبسوا شياً أمام كل الأرواح التي اغتيلت في فلسطين والشيشان والبوسنة وغيرها بمباركة بل دهم من أميركا يزعمه، فإن يقتل منهم هؤلاء فقد قتل من المسلمين أكثر، لقد كان هذا منطقاً وما زال، ثم كانت في الأحداث، التي نلت ذلك، من إسقاط للظالمين في أفغانستان والعراق، وما كان من القننى والانتهاكات الإنسانية تضخيم لمواقف القسمين السابقين، ووجد كل فريق منهما ما يجعله أكثر إيماناً بموقفه من ذي قبل!

أذكر أنني تحدثت مرة ما بين أصدقائي في العمل واستفدت بشدة بعض الشيوخ، الذين يصمون غير المسلمين بأنهم أحقاد القردة والحارير، وذكرت أن في هذا إساءة إلى الإنسان والديانات كلها، فلم تقم ديانة حقيقية هدفها الإنسان لتشتت أحداً أو لتقتل آخر فانهي الأمر باتهامي بالعمالة وأنني متآمرك أدافع عن اليهود والنصارى... إلخ!

وأذكر أنني كتبت عن الولاء والبراء، هذه الفكرة التي نمت في اعتقاد المسلمين بأدلجات سياسية، كتبت عنها لأوضح كيف أنها حملت ما لا يمكن أن يكون هناك إله حقيقي ولا نبي حقيقي ويرضى بما يتشوق به مثل هؤلاء عن الولاء والبراء، فكيف يمكن أن يبيع الإسلام الزواج بامرأة مسيحية أو يهودية ثم يأمر بكرهها،

وسقت على هذا الكثير من الأمثلة، ثم تساءلت أية عقيدة هي التي يمكن أن تكون مسوغاً لقتل الناس الذين لا علاقة لهم بأوساخ السياسات، وهل يمكن أن يكون مبدأ القتل والعيلة حلاً يعجب الله من أي طرف سواء أكان عاقله مسلماً أم يهودياً أم نصرانياً، وكذلك مرة يجب أن يقال بأنني أنقض الدين وأبني أدم السم في الدسم وأنني أحاول فتح البلاد المقدسة للكافرين القدرين، وأن مساعي العلمانية والحداثة والإلحادية التي تريد هدم الثوابت وتعميت الإسلام وهزيمه باتت واضحة وجلية!

لقد كان موقف السعوديين، شعباً وحكومة، موقفاً محرراً فحمسة حشر من أبنائها يفصون مضجع العالم، ويوقدون حرب الدماء، وبات الإنسان السعودي، بعد أن كانت له معاملته الخاصة واحترامه الاستثنائي في كل بلدان العالم وعلى الخصوص أميركا، بات مثيراً للشبهات ومتهماً لمجرد أنه سعودي، بل ربما واجه بعض الإهانات... أو الكثير منها!

ووجهت الاتهامات الكثيرة إلى التعليم وإلى المتدربين وإلى أشياء كثيرة، وفعلت الدولة كل شيء بصدق، لتثبت أنها ترفض ما حدث، وأنها ستسأصل شأفة كل من أوقف ناراً للحرب والعداوة، ووصفت في اعتبارها الكثير من التعديلات، التي بقيت هي ما بعد مثاراً للجدل ما بين الصراح الديني، الذي يرى في فعل الدولة هذا انبطاحاً للمعارض بثقافتهم وسياستهم أرضنا، وبين أولئك المستنيرين الذين يهتمون بضرورة أن نسيقف قبل أن يوقظنا العالم بصفعة ربما تكلفنا الكثير من الدماء والأرواح، ولم يحظر سال الدولة أن من فعلوا بأميركا فعلتهم تلك سيكونون قادرين على أن يفعلوا سلطاناً،

الأضعف من حيث الإمكانيات والاستعدادات الأمنية، ما هو أدهى وأكثر ألماً ومرارة، وسارت الأمور بالكثير من المماطلات حتى وقع ما وقع في السعودية، واكتوت بلدي بالبار التي لم نخضعها من قبل!

أما أنا في شخصي فقد صار الطريق الذي انتهجته أكثر وضوحاً في عيني، وصرت أشدّ إيماناً به عما مضى، وثبقت أن الإنسانية هي الخلاص لهذا العالم، وأن عليها أن تتخلص من كل الأيديولوجيات كما تخلصت منها لتحمل داخلها الحب للكون كله، ومع أنني ما رلت داخل دائرة التدين بشكل ما لكنني وصلت حبيبها إلى الإيمان بما هو أدق، فكان الإسلام عندي شكلاً من أشكال الإنسانية والجمال، ولا أقبل أن يصفني أحد بأنني مسلم على غير هذا المفهوم وبعد شهرين فقط من تلك الحادثة، ومن بلوعي هذا الحد من التعامل مع الدين، كقيمة إنسانية، صليت إحدى المرات صلاة الجمعة، واستمعت إلى الخطبة التي كان يتحدث فيها الخطيب عن اللحية، فجعلها أهم ما يمكن أن يرصي النساء هنا أو بعضهن، ووصف حالقها بالمحشيش وأنهم يتشبهون بالنساء، فخرجت من المسجد فوراً، وذهبت لأجلس عند عتبة واحد من صالونات الخلقة حتى تنتهي الصلاة، وفور فتح الصالون طلبت إليه أن يحلق ما بقي من لحيتي، حتى لا يكون لدي أية بقايا يمكن أن تذكرني بهم هذا الخطيب الأحق أو تلك الجماعة، التي حشت معها تلك الفترة!

صرت أنتظر الصيف، ففي كل مرة فيه يكون بانتظاري قدراً واسعاً، ويشهد في كل مرة تحولاً بالعمى إما بحباتي كلها، وإما بطريقة التفكير التي أتعاظم بها الحياة بجميع أشكالها، وصيف هذا العام المليء، عام ثلاثاء القيامة، كسابقه يهضر عنه عن مفاجأة جديدة، ويأتي إلى أبها العالم الكبير عبدالله نور، هذا الذي ملا ذاكرات المثقفين به!

كان الأب الأكبر لجيل الحداثيين القدامى، شعراء وقادراً وروائيين ومفكرين، لكنه لم يُنصف نفسه، ولم يصفه الآخرون. لم ينصف نفسه بهروبه الدائم والمتكرر من الأصواء والإعلام، ولم يصفه الآخرون، إذ مرّ أكثرهم من تحت يده ثم سبها، بل هاجموا كثيراً واتهموا بمكانته وحظوته عند البعض من رموز الدولة، وشككوا في مصداقيته بالرغم مما يعرفونه عن صحبه المتكرر، والقضايا التي ألصقت به مراراً، ولعمر طمراجيته وامتلائه بنفسه لم يكن ليأبه شيء من هذا!

في الرابعة والسبعين من عمره أسمر طويل القامة، روحه كلها جمالاً وميل إلى المرح والحب والموسيقى، وفي أول مرة أراه في السادي الأدبي يتحدث عن الشعر وجمالياته، ويتمنى في إلفاته

وتنميحه . سألته تلك الليلة عن احتلال مفهوم الحداثة في أذهان أبنائها وممثليها والمدعين بأنهم رموزها، فظنوا أنها مجرد الثورة على المحافظة المنصرمة والتعرد على كل شيء، وأنها لا تحمل داخلها شيئاً إنسانياً هي أكثر التراماً وحباً مما يمكن أن يدور بذهن أي من معاديبها، وكان هذا السؤال أثار بنفسه شيئاً محدثاً بعينه الواسعتين إلى طويلاً، ثم دافع عن الحداثيين في جره من كلامه وأيد ما ذهب إليه في سوالي في جره آخر، لكنني شعرت بأنه عقد في نفسه شيئاً ما تحوي!

مرة أخرى وبعد ثلاثة أيام من تلك الليلة وجدته في واحد من مكاتب السادي يجلس إليه البعض من حاضريه بالأسئلة، فجلست معهم ثم أشرت أستند بالحدث فتبسم لي وأشار بالسماح، فطلبت منه أن يري شيئاً مما يقال عن أسطوريته في إلقاء الشعر، فسكت قليلاً ثم قال: «لتغير موضعاً هذا لتسمروا شيئاً».

استجيباً له وسرماً وراءه نحو الصالة، فجلس وعلى الفور أغمض عييه، ثم انعرج كيوانات صدّ ضحكهم بمسرح قصيدة للشاعر الفلسطيني، فواز عيد:

«صفت الرافض . فاصططعت على الجيبين جذراً ونحل

وبدان

واستلزل الليل غوصاً ووجوهاً تتلوى . . دان دان!

سُحرت بما رأيته من الإيمان بالشعر والفولكلور معي إلى هذا الحد، حدّ تساويل الدموع من طرفي عييه، وحدّ الحركات الهوائية المؤثرة، وحدّ سطوة هذه الحجرة، التي تغمر كسافورة فتصت كل ماها على آذان السامعين!

حين انتهى.. انتهت معه قدرتي على الكلام، وانصرف عن
دهشنا إلى حديث آخر كأنما هو يهرب من أن نقول له حتى
«أبدعت»، وسألته أن يأذن لي بالجلوس معه، فقال إنه لا يملك
مباراة تعبده إلى القلق وعليّ أن أفعل هذا إن شئت. فعلت ومنذ
تلك الليلة وأنا أستيقظ في الثامنة كل صباح، ثم لا أترك طرفة
عين حتى أعيده إلى نومه في العلق في الثاية عشرة ليلاً.. هكذا
كان صيفي ذاك، ولشهرين كاملين، برفقة هذا الفيلسوف الأسمر!

مما علمته أنه لا حقيقة في هذه الحياة، وأن الإنسان هو من
ابتكر كل هذه المآرق، التي يعيشها وهو من ابتكر كل قصص
الحروف، وهو من أكره من في الأرض على محترقاته الهلالية، ثم
قتل كل من لم يقل له «معلك»، وتعلمت منه كيف يمكن للمرء أن
يتناول الكلام الجميل، وكيف يصمم ويصوره، وكيف يمكننا
التعرف إلى أصول الكلمات والحروف وغير ذلك، وتعرفت معه
إلى الكثير من أساطير الثقافات العربية والعربية والشرقية، وحدثني
كيف تدخلت هذه الأساطير في الكثير من الجماليات، والكثير من
النشوءات في ذهن الإنسان وكيفية تناوله للحياة، بل أهداني
كتابين، أحدهما معجم للحضارات، والآخر معجم أساطير
اصطحابني مراراً إلى المجالس الثقافية التي يذهب إليها ليلقي
محاضرة أو غير ذلك، وكان يرفض أن يصحبه غيري وأن يكون
معا غيرنا!

سمع مني شعراً كثيراً، وقال عني كلاماً جعلني في أقصى
حالات انتحاري بنفسي، وأجرب بعض ملاحظاته على شعريتي
بشكل عام، وحين عرف قصتي منذ البداية مع المتلبس الحركيين

صنع لي ووصف أن ما فعلته معجزة وأنني أستحق أن يكون لي
شأن، ودكرني دائماً بأن العبقريّة هي أن يستطيع المرء الحصول
على ذاته والتخلص من استعمار كل هذه الثقافات والعادات
والأعراف والآخرين، وأنه لا توجد عبقريّة مطلقة، لكن كل من
تحس نفسه بعيداً عن صلتها بأي شيء خارجها فهو عبقريّ لأنه
تمكن من أن يكون وحده ولو في بعض الجوانب. ومعه عرفت
كم صاع من عمري، وكم هذه السنون الثماني والعشرون التي
مضت مسروقة مني، فلم أعرف طيلتها عن أكون شيئاً!

شعرت أنني أستيقظ من سحر استمر كل هذا الوقت. بدأ
مفعول في طعولتي والآن فقط أصبح مني، وحين تأكدت أنني حقاً
لم أحظ بحياتي في ما مضى، وأن الآخرين من حولي سرقوها
شعرت بشين متفصبين، بالانتهيار والبكاء المرّ، تماماً كذلك الذي
يرمي في رواية طوال ثمان وعشرين سنة، ثم يخرج منها ولا يعرف
لماذا أدخل إليها، فيتساءل «تري من سيموحي من كل هذه
السير؟ وضاعها لمصلحة من؟ أية عدالة هي التي جعلني في هذا
المكان وفي هذا الوقت؟ وأي قانون سيميدي إلى طعولتي لأعيش
حياتي التي اعتصمت كل هذا الزمن منها؟»، ثم أشعر بالمخز
والخيلاء والمصر أنني تحلصت من كل مستعمري الأيديولوجيات
ومآربهم، وأني جديرٌ بسجّاح كبير، فلا أحد سيخضع لكل ما
تعرضت له، ثم يستطيع العودة لانتزاع ذاته من جديد. كل هذا كان
إثر احتكاكي بهذا الرجل، ومحاولاته المستمرة في أن يخلصني مما
بقي فاحلي من وجوه الآخرين وجنودهم.

أوصاني بقراءة الفلسفة الغربية، وأشار عليّ بأن أبدأ بكتاب

«قصة العليسة» للفيلسوف «ول فيورانت»، فقرأته وناقشته فيه،
حتى كنت أشعر أنه يستاء من كثرة إلحاحي وأسئلتي فيطلب تأجيل
الحديث ليوم آخر، ثم وقعت مجموعة من كتب عبدالله القصيمي،
الذي كان أصولياً ثم انقلب على كل ما كان فيه، فقرأت له «هذا
الكون ما ضميره، أيها العقل من رأك، هذه هي الأعلال، العرب
ظاهرة صوتية» وقرأت معها ما أمكن ليشته وهيجل وكانط...

تحدثت مع عبدالله بور في الكثير منها، وكم كان دعولي بالعلماء
وهو يحدثني عن عبدالله القصيمي، الذي كان يعرفه معرفة
شخصية في أثناء حياته، بل جمعتهما بيروت يوماً وسكنا في بيت
واحد لبعض الوقت. لقد كنت أشعر أنني أحصل على أحلام
مستحيلة وأني أعيش شيئاً كهذه الأساطير، التي كان يحدثني عنها
بتوسع في كل مرة يجلس في مقهى الذي اعتلنا الجدوس فيه!

وأخيراً حان الوقت ليرحل عبدالله بور، ويعود من حيث
أنى، وهي اللحظة الأخيرة، التي أعرف أنه سيمب بعدها، ولا
أدري إذا ما كنت سأراه بعدها أو لن أراه، فهو في الرابعة
والسبعين، ويبدو أن الموت إليه أقرب من أملي، في تلك اللحظة
مددت إليه بورقة. وأدركت ظهري لأمصني فقال «توقف.
منقرأها معاً فتوقفت».

كانت نساءً شعرياً كتبه بالطريقة الإيقاعية التي يحبها، والتي
كنت قد تجاوزتها إلى النصوص الحرة عبر المشروطة. كتبه له
وفيه وفي ما عمله لأجلي كل هذا الوقت، فقرأها وبكى وبكى
هنا...

نلتقي في انتشاء الضباب

وفي لثغة العمر... مفروقان!

ويتصب الليل من فوقنا

أنا الصباغ الصمت، مهد الحطينات، مرتجف في انتظار
البكاء!

بيتاً قديماً به نقش أنثى.

نشق من بركة الأشقياء، ومن زفرات الرياح.

ومما نجيء به دندبات المطر، ملاداً يمشى عن صائغين!

فيلتقي في يديه امتداد مهيب الجلالة!

قد كان شيئاً نحيلاً مثيراً... طويلاً كعلمي

على راحته سبعون صيغاً

يقبلها حين يأوي إلى ركنه في المقاهي القديمة

يحادثني عن جنون الروايات، وذهب الضاديل، والأنبياء!

وعن أرق الناي والشعر والمضرة

وعن قلق المزمسين اليتامى، وعشتار والصاد. والامكنة!

وعن جفري / الماء، تحيا على ميمه فليسات الحروف!

وأنا كيف اصطفانا عيالاً، وأبلول يحصف بالسوسنات!

وعن موعد العطر يوماً يجيء... ونيسان يهمني اختيلاً

وأوديب مبدنا والحطبة!

وعن قدر الله في خلقنا، وتكوير أيامنا في النساء!

وعن قطرة الأسود المتحفي، يمام ويوقظه الص شرراً رحيماً

جمالاً عزيزاً رحيماً!

الح

ليس المعتدون فقط هم الأشرار، بل الأكثر شراً منهم أولئك الذين اعتدي عليهم ولم يرفضوا الظلم ولم يقاوموه! الساكت على القهر أكثر سوءاً من الظالم، والذي لا يقف بصدرة في وجه الريح ليثبت أنه جدير بما يملكه فهو لا يستحق البقاء، إلا هناك في ديل الحياة، وعلى هامشها!

في السنة الثانية من الألف الثالثة كنت أقف أمام نحت صعب، وهو أن أثبت أحقيتي بهذه الوظيفة، التي اعتمدت فيها أمير المنطقة، رداً على الدين تأمروا عليّ ليعاقبوني على الكتابة وعبورها، فلبثت نفسي تماماً للبقاء ما أمكن في الإدارة لإنجاز أعمالتي وأعمال مكتب المدير العام، الذي كان مشدوهاً من جدتي وصبري وكماحي حتى كنت أبقي في المكتب من شروق الشمس وأحياناً حتى الواحدة ليلاً، ولثقة البالغة التي منحني إياها فقد كان يطلعني على كل دقائق الإدارة وأعمالها وصرت في أدهان الموجودين جميعاً الشخصية الأولى التي يطمش إليها المدير، وبلغ الأمر أن يأتي البعض ممن تجاوز وجودهم في العمل العشرين والثلاثين سنة ليطلبوا إليّ الدخول في وساطات لهم عند هذا

المدير، الذي كان ينسجم لي دوماً، ويقول شكراً للصدفة التي جاءت بك!

حصلت على جائزة إمارة منطقة عسير تلك السنة، كأفضل موظف على مستوى الإدارة، وبهذا أكون قد أثبتت أحقيتي، وسجحت في أن أفصح الكارهين قبل المحبين أنني جدير بكل هذا التقدم الذي أحققه، ريادة على هذا فقد استمرت كتاباتي في الصحيفة، وصار تناولني للأمور والفضايا أكثر دقة وعمفاً، وبت أركز على الأفكار وتفجير الأسئلة في أدهان الناس وصددهم بما هم عليه من التأخر عن تفكير العالم كله وثقافته. كان من أكثر المقالات التي لا أعرف حتى اليوم لماذا لم يهاجمني المعالون بسببها بالرغم من حدته ووضوحه، لقد كتبت عن المفسرين وفتح تفسيراتهم وتأويلاتهم، التي كما ضحية لها، وكيف حولوا مجموعة من الأساطير إلى دين يسوقون الناس بسلطونهم إليه!

هذه واحدة: «عندليب بازل وحمة قرون من السخرية».

نقطتان في غاية الأهمية أولاهما تفصي إلى الأخرى، تشكلان صوراً متعددة من أراض ثقافتنا وموروثنا البقلي والطابع لأرائنا واتجاهاتنا ومواقفنا حيال فضايا كثيرة سواء أكانت على الصعيد الشخصي لكل ما أم على الصعيد الاجتماعي، وتنعكس مدى تفاعل هذه الإشكاليات في الذهنية الجمعية لدينا، وحتى أصل إلى طرح هاتين السقطتين سأفضل قصة أوردها الفيلسوف الألماني هاينريش هايني في كتابه «في تاريخ الفلسفة والدين» سماها قصة «عندليب بازل» وقد وقعت في أيار سنة ١٤٣٣م في عهد المجتمع الكسبي إذ قامت مجموعة من رجال الدين بمرهة إلى إحدى

العابات التابعة لمدينة بازل، وقد اشتملت هذه المجموعة على أساقفة ودكاترة ورهبان من كل الأصناف والأكوان وكانوا يتجادلون في موضوع الخلافات اللاهوتية، فميروا وتحاجروا أو اختلفوا في القضية التي يسدها رجل الدين الكاثولوكي للبابا لقاء محه منصباً واختلفوا في الترشيحات والتحفظات أو أنهم تجادلوا في ما إذا كان توماس الإكويي فيلسوفاً أعظم من بيناميثورا وغير ذلك من الأمور التي لا نهاية لها، ولكنهم فجأة وببعضهم في حماة نقاشهم الديني المجرد أمسكوا من الكلام وجمدوا في أماكنهم أمام شجرة رينون مزهرة حط عليها عذليب ترسم بأرق الألوان وأعدبها وأثناء ذلك شعر السادة العلماء بالروعة واستيقظت أحاسيسهم من نوم شتائي عميق هيبتها تلكم المسافات البعيدة ما بينهم وبين حلاوة الحياة الدنيا وطراوتها، رهابة من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، وتنادلوا النظر في بهجة ودهشة وأحيراً أبدى أحدهم ملاحظة ذكية كما هي عادة المتعبين في إصعاد الروعة وملاحظته أن في مثل هذا شيئاً غريباً وأن هذا العذليب قد يكون شيطاناً وأن هذا الشيطان أراد أن يصرفهم عن أحاديثهم الدينية بأعماقه العبدية النقية ويعربهم بالملذة والآثام الحلوة الأخرى فراح يرمم بالصيغة المألوفة آنذاك فيقول: إني لأعوذ منك بالذي سوف يأتي ليحقق الحق بين الأحياء والأموات، ويقال أن الطائر هرب في حالة عظيمة من السحرية بهم، وأن الآخرين الذين سمعوا صداحه مرضوا في اليوم نفسه وما لبثوا أن ماتوا إثر ذلك، لأنهم اقترفوا هذا الذنب العظيم فكان المرض ثم الموت جزاءهم

أعتقد أن هذه القصة لتتصح منها النقطتان اللتان أسلمت دون

الكثير من التعليقات، فأقول إن أولاهما تفصي إلى الأخرى فالأولى هي ما يمكن أن يخرج به بعد التعرف إلى الصورة الحقيقية التي اتسم بها ذلك المصير من سيطرة فكر اللاهوتيين المعالي في الإعراس عن الحياة وتأثيرهم الجلي في العقلية الجمعية، فكان هذا المشهد يحمل تماماً الطابع المرعب الذي رسم كل شيء جميل بالشرطانية وأنه من عبث الدنيا وقدارتها، حتى إن العذليب أصبح مخلوقاً مشوهاً في أعين الناس تلك الفترة، وامتداداً لذلك فقد كان المرء يهذب كلما عسى، وكان المسيحي الحقيقي يهول في الطبيعة المرهقة بحواس معلقة متأثراً بشبح الخوف من الشيطان وأن تعته الدنيا بجمالياتها عن دينه.

أما النقطة الأخرى الثانية التي جاءت كنتيجة حتمية لسيطرة هذا المكر وهي أدلجة كل شيء وتعتديداً أدلجة الإحساس بجماليات الأشياء، ومعاتن الطبيعة والحياة وملذاتها، وبالثاني اتحاد مواقف أيديولوجية تجاه قبولها أو رفضها أو الاستمتاع بها، وقد حمل التراث العربي الديني الكثير من الفصص التي ما زالت تسيطر على طريقة تفكير معظم المثزعمين الدهوري الهادفة إما لإحياء التراث وإما إعادة إيداعه في وقتنا الحاضر، كتأملات شاعر أو مبدع ما في شيء من معردات الطبيعة امتداداً لكونها توافق فكرة أيديولوجية لديه لا أكثر من ذلك، مفرغاً مجالاتها الجمالية وباسماً كل الإيحاءات الدنيوية الطبيعية لها، مبقياً على إحساسه بها من رابوية واحدة فقط، وكذلك هو موقفه تجاه الأشياء التي يرفضها ويستبعد كل جمالياتها، وربما حاربها، حين تعظم بفكرته أو رأي مذهبيته الإقصائية لغير رؤاها حتى على هذا الصعيد المحتاح

للدائقة الإنسانية المجردة ما دامت لا تمس مساحات الآخرين، وهكذا بالتعبير عنها من خلال مرجعيات تراثية متحيرة التفكير والاتجاه يفقدنا قيمتها وفتورها الذي تتجلى فصاءاته حينما يكون امتداداً للطبيعة.

ولقد كانت تلك الفضة وما دار عنها وحولها وفيها من وقائع التاريخ والتراث المسيحي، باعتبارها صورة من صور مرحلية تطوره، وبالنظر إلى تاريخ وفوعها من زاوية عمر الفكر الكسبي المسيحي نجد أنها وقعت في سنة ١٤٣٣م أي في القرن الخامس عشر، وعند مقارنة هذا القرن بالقرن الهجري الممثل للفكر الإسلامي لديها خصوصاً مسجد أميا يعيش في القرن الخامس عشر، وهذا لا يعني شيئاً كثيراً، ولكن الذي يجب التوقف عليه هو ما إذا كان الفكر الديني لديها يميز بالمرحلة ذاتها! فهل يمكن اعتبار أسلمة الأدب وأدلة الإحساس بالفن والتعبير عن الجماليات دليلاً واضحاً وصريحاً على مرورنا بالمعطف السيئ ذاته! وهل ما تتداوله ثقافتنا وطريقة التفكير لديها وحتى أحاديث مجالسنا من مثل القصة السابقة يعتبر دليلاً آخر على تورطنا في تقديس هذه النوعية من الرجال الذين يمثلون فكراً قد لا يكون الصحيح بالضرورة! وهل المواقف المتشعبة الرافضة تجاه الرسم والموسيقى ومختلف الميوس مماثلة للموقف نفسه الذي اعتقد أنها من عبث الشيطان وأنها روح شريرة تحل بالآشياء فتربسها لتعنى الناس عن دينهم وتشغلهم عن العبادة والذكر!

أعتقد شخصياً أن رفضاً لقد شريعة ما تمثل تمكيراً لا يسمح حق القداسة التي تؤثم من يجانب رأبها أو ينتقدها، وإن

رفض توجيه الانتقادات لها، وإن الموقف المقصي للمعون واعتبارها من عمل الشر والفساد، وإن أدلة الإحساس بالجمال فيما يسمونه بأسلمة الأشياء والعنود والعلوم إلخ، كل هذه الأحوال والأطوار التي يعيشها اليوم تعني أن الفكر الإسلامي يمر بالمرحلة ذاتها وفي التوقيت نفسه، فهل سنحتاج إلى قرنين قادمين من الزمن للتخلص من أمراض الثقافة والموروث لا من الثقافة ولا الموروث كله، ولنفرق ما بين الموروث الحقيقي وما بين أمراضه! وهل سنحتاج إلى خمسة قرون تبلغ بها سنة الألفين الهجرية، نكون حيثن على المستوى نفسه من الوعي، والحضارة، والقوة، والتقدم العلمي والتكنولوجي وحتى الأيديولوجي الذي يعيشه العالم البعيد هناك في الألفين الميلادية! إنه لشيء يدعو للإحباط والأسف أن نكون الأرض تعيش هذه الانعجارات الحضارية وما ولنا نصيب التوق والتميز والقوة بالروح الشريرة والطاغوت وعمل الشيطان، وأن يكون إحساسنا بالجمال وشعورنا بالحياة في حالة غيب كلي يشبه النبات الشتوي الذي مرت به التجربة المسيحية قبل خمسة قرون، وأن نتأخر كل هذه القرون متمسكين بما انتهت الأمم منه وحسنت مواقفها تجاهه، فلم تقص الموروث قط، لكنها أوقفت سطوته وسطوة المهتمين به على مساحي الحياة المختلفة، لم تقص البتة أكثر هذه الشعوب والحضارات الموروث وإنما أعطته المساحة الوجدانية الروحية الأخلاقية القيمة الحقيقية التي جاء من أجلها في الأصل!..

في هذه السمة الثانية أيضاً عرفت محمد رايد الأكمعي، كنت

أسمع صه كثيراً، وسمعت الدين يكفرونه كثيراً، وحملت عنه تكفيره كثيراً.

الألمعي من جيل الحداثيين الذين برعت بحومهم في مطلع الثمانينيات، وهو ممن تعرض لشراسة السلمية مذ التطرف والتكفير الألمعي رغم كل ما تخبئه جمجمته من الموسوعية العلمية والفلسفية إلا أنه يعيش رهيباً بحالة مركبة من الإحباط والحدلان إنه شاعرٌ حقيقي ومثقف مستقل، ويعكر بالطريقة الإنسانية المجردة مثلاً إلى الهرب من كل شيء حتى من نفسه، وهي داخله انسان فهو الطفل الذي يمكن أن يفتاده أيما أحد فلا يسحب يده منه، وهو البركان الذي يحرق كل شيء، ساعة يعرف أن أحداً ما يريد استغفاله!

تلك الليلة بالسادس الأدبي سيأتي محمد لبشارك في أمسية شعرية لتسجيل موقف إنساني مع الفلسطينيين، لا مع الحكومات، ولأن الناس عرفوا أن الألمعي سيأتي فقد جاؤوا برغم شديد، منهم المحب الذي يود أن يرى هذا المثقفي، كيف يقول الشعر، ومنهم الكاره الحافل الذي جاء ليتصيد كلمة من هنا أو من هناك. وصعد الألمعي المنبر لينقي قصيدته: «أحيراً عرفتم بأن الطريق إلى القدس..»

ليس الطريق إلى قنهارا!

وضّح المكان بالهتاف له وصنّه، وحين انتهى مضى دون أن يلتفت إلى أحد، ولحقت بالألمعي وعرفته بنصي، فقال «أعزك، ولينا يلتقي»، وبكلمته تلك كسر كل الحواجر والرهبة التي كانت نفسي حياله، فالتقينا المرة والمرتين والثلاث وصار لناؤماً دائماً،

وكل الوقت يحدثني محمد عن الحداثة والشعر والفلسفة والفكر والسياسة وعن الغرب والأفكار والمفكرين الذين قلبوا كل بناء واستطاعوا أن يصلوا به إلى ما هو فيه، ثم يقرن ما بين الحالتين العربية والشرقية. وكلما تحدث عن الإرهاب والتطرف لدينا عدد مقالاته وقصائده، التي كان قد كتبها قبل وقوع ما وقع بحمص وعشرين سنة، وكيف بات ما هوجم على الحديث عنه قديماً قصة إنسانية ووطنية في يومنا هذا، ولم يتورع في أية فرصة تسع له أن يقول بأننا حاصرين المعاليين والإرهابيين في حادثة جهيمان داخل الحرم، ثم فتحت لهم أبواب الوطن كله، وقدمنا لهم التنازلات، التي مكنتهم ليعملوا فعلاتهم كلها، فمن مطاردتهم في أقبية الحرم إلى الاحتفاء بهم في أرجاء الوطن، وبعد التورط في أعمالهم من جديد عدنا لمطاردتهم الآن!

محمد رايد الألمعي. سأقول صه دوماً إنني عرفت رجلاً عظيماً تجاهله القدر الجميل، ونعمده القدر المتأمر، ولم ينصف نفسه ولا أهل هذه البقعة أنصفوه. سأقول إن الألمعي الذي يحمل في رأسه تاريخاً كاملاً قصة سيستحي هذا المكان مما ألحقه بها، ومما فعله ليتجاهلها. الألمعي لم يكن يوماً من المرابدين ولا من المطبليين ولا من المسافقين لا يحد ما ينفعه على نفسه وأسرته في معظم الأحيان، في الوقت الذي يتمرّع الكثير من المشلونيين والمسافقين والمتاجرين بالدين في الملايين من الريالات والقصور، ويشهدون العضائيات ليتحدثوا عن المواطنة والإصلاح والإنسانية. إن الألمعي كدعة سيحمر جسداً كله بوغرها ذات يوم!

حكاية جديدة..

مثل الإنترنت متفصلاً للباس، وخصوصاً مع توالي الأحداث داخلياً وخارجياً، عربياً وعالمياً، فحادثة سبتمبر وحرب طالبان ثم حرب العراق، ثم التعجيرات والاغتيالات التي شهدتها المنطقة كلها، والسعودية تحديداً، كل هذه الأحداث وغيرها شحت الناس بحليجٍ نائر من المشاعر، ولم يكر أمامهم سوى شاشات حاسوباتهم يفرغون بها كل ما يحتلج في صدورهم من اللعن والشنم لاميركا والعرب والعرب والأنظمة والحكومات والباس.. وثم حتى أنفسهم!

كنت أحد الذين استثمروا الانترنت في قول ما لا يمكن قوله في غيره، وكتبت في العديد من المنتديات، كان أبرزها منتدى «طوى»، هذا المنتدى الذي حار شهرةً كبيرةً وصار صوتاً لليراليين السعوديين، ونجح القائمون عليه في جذب الكثير من الأفلام الميرة والمشهورة. قدمت طوى لي الكثير، وعُرفت عبرها واتصلت بالكثير من المثقفين والمفكرين، وقدمت لطوى كل ما يمكن، وفي السنة الثانية من عمر هذا المنتدى، أي في عام ٢٠٠٣ حصلت على لقب شخصية العام، إذ تجاوزت مشاركاتي به

الآلعي مشاركة، متنوعة ما بين الشعر، والسرد، والمقالات الفكرية، والطرح الإنساني والفلسفي، وغير ذلك!

في هذا المنتدى شدتني إحدى المنيات. كان لما تكتبه طامعه الحاصر ونكهته التي تعجسي، وهكذا نحن هنا لا يمكن أن يصل أحد ما إلى قلب آخر إلا عبر هذه الأجهزة، فعلاقة أي رجل بامرأة هنا جانية يعاقب عليها، إضافة إلى أن انضاح أية صداقة بين امرأة ورجل هنا تعني سقوطهما واحتقارهما ونحطيم حياتهما!

مع الإنترنت صرنا نعيش حياتنا على الطرق الافتراضية الأثيرية، ويسر أن تتحول مثل هذه الافتراضات إلى واقع حقيقي، بل إن الكثير يبدأون قصص الحب، وتستمر ما بينهم لسنين، بكل ما فيها من حيالات الجنس والعناق وافتراضات الشجر.. ثم يهونها ولم يلتفوا ثانية واحدة، وليس سوى أنهم عاشوا كل شيء عبر هذه الأجهزة وعبر الحيالات، وأكثر ما يمكن أن يصلوا إليه المكالمات الهاتفية، أو تبادل الصور عن طريق البريد الإلكتروني! هذه العناية.. وأثر هدي من المراسلات والأحاديث الهاتفية اتفقا على النقاء. وكانت متحمسة لهذه اللحظة، إذ لا توجد لديها أية عقد ولا محاوف فقد عاشت حياتها في أميركا والكويت، ولا يربطها بثافتها سوى أهلها، الذين تأتي لزيارتهم مرة أو مرتين في السنة لتصطدم بالاحتقار الذي يعيشون فيه، ثم تهرب من جديد، فهي تحمل حصانة الجنسية الأميركية، وكثيراً ما كانت تغايرني بها وتقول «تذكر أنني أميركية ويجب أن نمثل لأوامري!» وأجيبها: «يا أميركا لحم كعوك من خبزنا»..

تقيم في الكويت ونعمل هناك، أكبر مني ببعض سنوات،

وفي هذه السة اضطرت للعودة إلى السعودية للمحضر الذي يهدد الكويت بسبب الحرب التي شنتها أميركا على العراق، وهرب معظم الكويتيين، ظناً منهم أن صدام سيجن ويهاجم الكويت كردة فعل طيمية لجنونه وغضبه!

اتجهت إلى المدينة الكبيرة على موعد مع العتاة، التي بقيا تتبادل الرسائل صبعة أشهر تقريباً.

كانت تلك الليلة ماطرة وشجية جداً، واتفتت ورفيتني على أن يلتقي في مكتبة العبيكان، ثم سخرج من هناك متحفيس لمتطي السيارة التي استأجرتها، ولذهب بعد ذلك إلى أي مطعم أو مكان يحكسا أن يقضي فيه بعض الوقت، وتمت الأمور كما خططنا وقضيا ساعتين مليتين بالأحداث النقة في مطعم معلق، وقبل أن نفرق اتفقنا على أن يتكرر لقاءنا في اليوم التالي!

يوم الأربعاء. كانت بانتظارنا فاجعة رهبة أكبر من أن محتملها أنا ورفيتني معاً، فحدث أن هاتفتني في العاشرة صباحاً واقترحت علي أن شرب القهوة في مقهى بأحد الأسواق العملاقة والشهيرة، التي تنوسط المدينة، وبعد نصف ساعة كما جالس متقابلين وإلى طاولة واحدة. كانت صديقتي هذه جميلة جداً، ومرحة جداً، وكنت أحدثها عن بيتي، الفيلسوف الألماني، وكيف أمات الإله في كتابه ررادشت. كانت تستمع إلي، وحين سكنت مدت لي بقصاصية صغيرة وقالت: «أرجوك سجل لحظتك هذه حتى تعيش معي إلى الأبد».

سحبت ورقتها وكتبت: «يسا طاولة، مطعاة.. حقيتها والإله الذي مات، يسا رعشة نهز كوبي قهوننا»

الشرطة الدينية، في المدينة الكبيرة تحديداً، يحكي عنها من الحكايات ما لا يمكن أن يحطر ببال المرء إلا أنه يسمع سرداً لأحد أفلام الهوليبود، والناس هنا باتوا يرهبونهم إلى درجة أنهم كثيراً ما يصرون بعصيتهم الشباب والنساء في السوق، ولا يجرؤ أحد على أن يقول لهذه الشرطة الدينية شيئاً. ولسوء حظي وحظ رفيقتي لم تكن تعرف عن درجة هذه الحال في هذه المدينة سوى ما يقال، ولم تكن لشعر بأي حطر، ولم تكن لمعلم أن العامل الذي يقدم لنا القهوة مجتد من قبلهم، يبلغهم هاتفاً عن أي اتيس يحتمل ألا يكونا روجيس، فأني اتيس تيندو عليهما ملامح الشوق والحواف والارتباك فهذا يعني أنهما على علاقة غير شرعية، وهكذا رتقا العامل، وبعد عشرين دقيقة تحديداً وإذا برجلين من الشرطة الدينية يطلبان مني ومن رفيقتي بطاقة الزواج أو المضي معهما إلى المركز، ولمجيئت سببا أن نحكي القصاصة، أو الهدايا التي اشتريناها لتبادلها، فجمعها الشرطي كلها وأحدها معه!

حاولنا الامتاع فنوعدا أحدهم أن يخرجنا أمام الناس في السوق مقيدتين بالأهلال، وأن يصرع علينا سيلاً من الإهانات، فاحتصرنا على أنب كل هذا ومصيا معهم. هناك في مركزهم حبسوني في إحدى العرف، وكنت أسمع بكاء العتاة الذي لم يشمر طويلاً، ثم سمعتها وهي تشتمهم واحداً واحداً، وعرفت فيما بعد أنها خرجت، رصماً عنهم، لأنها بكل بساطة أبررت جوارها الأميركي، وهددتهم إن هم لم يطلقوها فوراً أنها ستصل بالسفارة الأميركية!

وبالطبع كان لا بد أن اتحمل كل شيء، فأنا لست

أميركياً، أنا جنوبي جلتي الشب واللحية، وزيادة على هذا فأنا عندهم كاتب علماني في صحيفة علمانية، وليس أمامهم من شخص غيري ليفرغوا من خلاله حقدهم على قوة أميركا، التي وقفوا أمامها وأمام الفتاة بكل ذلك الجمود!

حين نظر أحدهم إلى اسمي في البطاقة، قال: «هل أنت الكاتب في الصحيفة العلمانية؟» فسكت لبعض الوقت، أفكر ما الذي سبترتب على إجابتي، وتخيلت للحظة أن الكتابة والثغافة ربما تمسحاني شيئاً من الاحترام عندهم، فأجبت: «أجل أنا هو».

فقفز من مكانه قائلاً:

- والله لأضربتك ضرباً لا تنسا في حياتك أيها العلماني الحقير!

نظرت إليه بحنق، ثم انفجرت:

- سأخرج من هنا يوماً، والله لتدفعن ثمن ما تفعله، فاضربي إن كنت رجلاً.

وقبل أن تصل يده إليّ وقف الجالسون بيننا ليخرجوه من الغرفة، وليخبروه أنهم سيديرون أمري!

بعد نصف ساعة حملوني في سيارتهم، ليسلموني إلى مركز الشرطة المدنية، وهناك أودعوني السجن، دون أن أعرف حتى ما هي التهمة التي ألقوني بسببها في هذا المكان، وهل سبسمونها جريمة شرب القهوة مع صديقة!

قضيت ذلك اليوم كاملاً في التوقيف، وسحب مني هاتفني وكل ما يمكن أن يكون وسيلة اتصال، وفي اليوم التالي تحدثت مع المحار من عبر الهاتف، وقلت له: «أبلغ مسؤولك الموجود بأنني كاتب في صحيفة سعودية، وإذا لم يحدثني الآن فسأكتب كل ما رأيته من المعاملة السيئة والمكان القذر، والذي أثق بأنكم خالتم قوانين الدولة ووضعتونا فيه، وكل هذه الأعداد التي تراكمتها لنام بعضها فوق بعض في هذه العرة الصيقة التي نسمونها توقيفاً، ثم أرفع شكواي إلى ولاية الأمر، وسيشهد السجناء معي».

نقل السجناء الرسالة، وبعد دقائق استدعاني المسؤول هلعاً، محاولاً أن يشرحني بأنه يقدم لي خدمة بإطلاق سراحي مقابل صمتي، فكتابة مثل هذه قد تطيح، وحتى يؤكد لي جريل إحسانه إليّ أراني التقرير الذي كتبه أعضاء الشرطة الدبية مرفقاً به الفصاصة وطلب إحالتها على القضاء!

لقد كانت التهمة «الاحتلاء غير الشرعي» في سوق بحول داخله أكثر من ألف شخص... حقاً لقد كان أعضاء الشرطة الدبية على هزم تام بأن يفوا بوعدهم!

خرجت - وعور خروجي هاتمت صديقتي، لتخبرني أنه من المستحيل أن تراني في مكان كهذا، وأنها ستعود إلى الكويت، فمخاوف الحرب أهون على نفسها من هذه الإهانة التي تعرضت لها، والسبب أنها التقت صديقاً في مكان عام!

تألمت كثيراً - وفي اليوم التالي أحدثت مقعدي بالطائرة عائداً إلى أبها، ناقماً على كل هذا الشر، مقسماً إنني لن أسكت على من اغتال في دواخلنا أبجديات الإنسانية!

مررت بي أرملة كسرى من الكآبة وكراهية كل شيء، وحدثت نفسي مراراً أن أشتكى ما حدث لي ولصدقتي إلى أمير المنطقة، الذي أعرف مواقفه القوية تجاه كل تطرف أو علو، لكسي لم أعمل . كنت منهاراً لدرجة هجزي حتى عن الشكوى!

في أكتوبر من هذه السنة سافرت إلى اليمن مع بعض الأصدقاء، فقد علمنا أن أدونيس، الشاعر والفيلسوف الكبير، هناك .

في اليمن قضيت خمسة أيام، ولم أكن لأصدق أنني أتحدث مع أدونيس الذي فرأت له كل فاصلة كتبها، وأحببت عقله وقلبه وكلمته . لقد كنت أصرخ في فرائسي «ما هذا اليمن الذي يخفي لي كل هذا المبلد» احتضني أدونيس بي وضممني إلى صدره، مسأته ومسأته، وكان يقبل عليّ بكل حب وصدق، وأحيراً نجح في أن يخرجني من العالم ويدخلني إلى نفسي من جديد، ويعتق لي آفاقاً جديدة في التفكير والشعر دون أن يعلم، وقبل أن نرحل هالدين إلى أبها طلب مني أن أرويه وروجته حادثة هناك في فرنسا .

كان أدونيس مؤثراً جديداً بنفسه، أنقذني من أشياء كثيرة، أنقذني من بدايات هرطقة كنت أتحسها إثر الصنعة القاسية، التي تعرضت لها على يد الشرطة الدينية كدت أكره حيثذا، وشعرت بانكماشي وتراجع رهيب استمر سبعة أشهر، حتى التقيت أدونيس، الذي تعلمت منه أن الموت والسجن والعذاب والألم أشياء مضحكة في معادلات النصر، وأن من يتهيأ لن يكون سوى واحد من الخراف، التي سيأتيها قدرها، وهي لا أكثر من خراف!

وهي رحلتنا تلك كان من تعقيد القدر أن نتعرف إلى المفكر اليمني، جاز الله عمره، والقدر أيضاً يقول أن نحبه وبأنسى به وأن نسير معه، والقدر يقول إن جاز الله عمر سيمجر في أذهاننا عبارة احترقت أعمقنا جميعاً، فحين سألته: «ألا تحاف؟» أجابني . «هي كلمة إن تغلها تمت . وإن لم تغلها تمت . فغلها ومت» .

والقدر أيضاً يقول أن نعود إلى السعودية، وبعد عشرة أيام من هودتنا تنقل قناة الجزيرة المشهد الذي اغتيل فيه جاز الله عمر، أثناء كلمته في أحد المؤتمرات . قتل وهو يتحدث عن الإنسان والأرض وشرع السلاح لقد اغتيل على يد أحد المتطرفين المعالين، الذين عشت فكرهم وثقافتهم كل السنين الماضيات! بقي أن أتحدث عن صيف هذا العام . . .

ومفاجأة جديدة بانتطاري، فباصرام الصيف يعلن اسمي في حمل المفتاح لأمر بجائزة الشعر على مستوى المملكة، ولتكون هذه اللحظة هي المفاجأة الكبرى، التي صممت بها الدينيين السابقين، فالصغير الذي احتضروه وأهدوه بالأمس بكرم اليوم، على مستوى الوطن بأسره!

الناس، والأقوياء اليوم. هم هم يرفعون صوت الحرب على من
يصغونهم، وليطفئوا الجمر الذي أشعلوه يوماً

٢٠٠٤ انفجارات ومواجهات عديدة مع الإرهابيين في مدينة
الرياض، مرة بـ «المحبة»، وأخرى بـ «الوشم»، وثالثة أصابت إدارة
المرور، وهناك مطاردات للإرهابيين في الرياض وجدة ويسبع
وجيران والخبر... وغيرها هذه المطاردات كان الملاحقون بها
هم اللصوص الصغار، الذين لم تكن لهم من قيمة بالأمس لتكون
لهم قيمة اليوم، أما اللصوص الكبار فقد استثمروا كعادتهم كل
شيء وكل لحظة، فالدبن كانوا بالأمس يجمعون عند أقدامهم
الآلاف من الجماهير، يتحدثون عن القتل والموت والكراهية
ويكفرون العالم من أقصاه إلى أقصاه ويجمعون الملايين والملايين
ليتمكوا بها لأنفسهم ولنظرائهم من المتطرفين في بلدان أخرى...
إنهم من كانوا يدبّرون في مجالسهم الخاصة الدوائر للوطن
والناس، ويعد كل هذا فإنهم اليوم رجالات الإصلاح ووعاظ
المواطنة والإخلاص للإنسان والأرض، وهم الذين لم يكلمهم
الأمر إلا أن يقولوا على مقاعد العصائيات، وهم في زيتهم الكاملة
وسلامتهم «إننا أخطأنا» ليتحولوا إلى أبطال، وأموالهم ومناصبهم
وقصورهم تضيق بها الأرض والسماء، وهكذا انتهى اللصوص
لدينا إلى قسمين، قسم ضعيف عليه أن يشمر عن عنقه ليقطعها
الأقوياء الذين صنعوها، وقسم قوي، له الشأن بكل شيء، وعليه
أن يشمر عن جيبه ومعه ليملا بالذهب، وليصيح رمزاً للإصلاح،
إنهم من كانوا يصبحون لإفراق السفينة بالأمس، يصبحون حتى لا
تغرق اليوم!

للقطة ملة واحدة، ولسان واحد... كلها تعرج برائحة الدم!
في هذه الأحداث من سبتمبر وحتى من قبله... أعلنت
الأرواح المختطفة إلى الموت أن القطة كلهم بدون شخصاً واحداً
في أجساد متعددة ولقصايا محتففة، فلا فرق بين أي منهم، فكلهم
محتد، وكلهم تتلون أيديهم بلون أحمر، وبالطبع قلن يكون هذا
الأحمر صبعة ولا مكياجاً ولا قطعة فماش إنه الدم!
كلهم تعرج منهم رائحة الآلاف من الجثث، لكساء أيتها
الشعوب المعملة والساذجة، مبالون لتقيل الأيدي التي تصفعا،
ونعشق صناعة أساطير وآلهة في أدهاس، حتى لو كانت المادة التي
يصنعها منها مادة سامة، وقائلة، وشريرة، وعليها نحن فقط أن
نمجد اختبارات العث، ثم نقتل لأجلها، وعليها نحن فقط أيضاً
أن نصفق للقوة ثم نبطح تحتها، وعليها نحن فقط أن نؤام بمن له
العلية علينا وأن نصنع من آياته ومخالبه جوائز السلام!
كانت الحكاية نفسها، ولكن على طريقة أكثر إصفاكاً
وسحرية، فبعض الأقوياء يصنعون اللصوص ثم يعودون ليقيموا
عليهم الحد، ويطاردونهم ليقطعوا أيديهم. كانوا يصحون عباءات
الغلو والكراهية والتطرف والقتل بالمال والتمكيب وتسليطهم على

تري ما الذي يمكن أن يقال عن شيء كهذا، وأية سياسة مهما كان دهاؤها تسمح لنفسها الحق بأن تجعل من العائل أياً وحلماً! وكل هؤلاء الذين دفعت أرواحهم الثمن في بلدنا وفي غيره من سيستطيع أن يعيدهم إلى بيوتهم وأعمالهم وأهلهم وإلى ضحكاتهم وآمالهم!

كل هذه الأشياء التي سرفت منهم لأن واحداً من اللصوص المماثلة شحن عقل واحد من اللصوص الصغار فراح يقتل نفسه والآخرين!

ألم يرددوا فيهم كراهية الحياة الجميلة وربوهم على أن السك الحقيقي هو الذي يجب أن يعرض عن الدنيا وعن أهلها، لأن كل ما فيها قبيح، وأن عباداتهم لا تقبل وفي ضمائرهم تطلع لسميم غير سميم العالم الآخر، وعلموهم أن الذاعية هو «حزب» الابتسامات، والرمش، والمصطلحات المدهونة، والحطب المدهلة، والوعظ المميت. أما ربوهم على أن صافي العقيدة، هو الذي عليه أن يفاصل أمه وأباه وإخوته ومدينته ومجتمعه ودولته والعالم والكرة الأرضية، ولن يكون أحد على عقيدة صافية حتى يعمل مراءته من كفر كل ما في الوجود وجاهليته الشريرة. ألم يكن العالم عندهم هو المنقطع تماماً عن العالم، ولا يحرج إلا ليقف في الأماكن العامة وعند إشارات المرور يوزع الكاسيتات التي تقول إن حالي اللحى محابيث، وإن الذي يحاهر بإطلاق المضانيات في بيته دهون!

حفاً. إن أجواءهم، بكل فنية عالية، كانت وما زالت الطريقة المثلى للبرمجة الذهنية في أولئك الصبية إنها البراعة في

ضبط ترددات العقول وفق تردد واحد، ورأي واحد، ومهجية تكفيرية واحدة، وحلم انتحاري واحد، عبر التناسخ التام والمطابق في البس والمشية والصحك، والقاموس الدعائي «الله يشيك». إلح، للوصول إلى التناسخ والتطبيق في الرأي والكرامية وحلم تقويض كل دول العالم وإقامة دولة المحييمات دعوة وتلواً وبجميع الممارسات الممكنة التي وصلت في فرونها إلى الانتحار والقتل!

يا للقيء، إن ثمة أناساً مهينين لاعتناق أي شيء، المهم فقط أن يجلس بينهم اختصاصي لغة، واستشاري في جراحة العقول! إن اشغال ١٩ مسكياً في أميركا وكذلك الجمع العفبر لدينا من أشباههم، لفظة عالمية وشاهد كبير على ما تعرضت له عقولهم من العمليات الجراحية الحساسة جداً، على أيدي أولئك الاختصاصيين اللعويين، المستعيلين قلق الإنسان وحوه، فيعلونه بالانتصار على هذا التعب وتحصيل حياة أكبر بدل هذه الحياة الحفيرة الأنية، إن هو تنازل عنها شكلاً ومضموناً، وسلمها إلى هؤلاء الاختصاصيين يديرونها على طريقتهم دون وعيه، حتى تحين لحظة الرفاف فيشوهه أن حياة لا فقد فيها تنظرك هناك بجميع معانيها شريطة أن تنازل عن هذه الحياة الساعلة، ولينفجر كاملاً كعبوة.. أليس الإنسان مسكياً لهذا الحد!

كان الموقف يحتم علي أن أكون صادقاً في ما يحثني تجاه الناس والأرض ووطني، فعمدت إلى رصد تقرير دقيق عن ممارسات كثيرة مما تتحرك حتى اليوم في الحفاء وبشره في العلن. حوى هذا الرصد حديثاً دقيقاً عن الحركات الديورية

السياسية وما فعله، وتناولت المحيطات والمراكز وسائر الأنشطة التي يقيمونها لاستلاب عقول الأجيال، ثم رصدت رسداً موسماً بعض ما كان يقوله منظرو الإرهاب قديماً في كتبهم وأشرطتهم ومشوراتهم من تكفير وتحريض على الكراهية والقتل وفتاوى كثيرة وبيانات ردة وغيرها، ومجدداً فإن أولئك المنظرين بالأمس هم شيوخ الإصلاح وهزأوه الآن!

قدمت لذلك الرصد بـ... «أنشر هذه الدراسة لكل عين تهتم بأمن هذا الوطن، آملاً بكل حرارة ودفعه أن يتجاوز بلدنا الكريم هذه المحنة وأن يكون ما يمر به سحابةً ستدفع بها رياح الحكمة والعمل الجاد إلى حيث تنفث عنه إلى الأبد على يد المخلصين لوحده وبفائه وديمومة كيانه، وإني لأندر عملي هذا لمصلحة الحب فحسب، على أنني لا أرجو بهذا إلا أن أسهم بما يجب على كائن لهذه الأرض الطيبة لها جميعاً بوطي يغمره السلام والحب والخير، مصطفياً إلى جوار كل من قضيت الإنسان».

ومن الرصد...

«العمل الحركي السري أكثر عنماً واستهدافاً لتفويض الدولة، بادئاً بالمنطقة الوسطى، حيث كانت النقطة الأولى، التي انطلق منها هذا التنظيم وانتشر في جميع أنحاء ومناطق وقرى وضواحي المملكة، لاسيما في التعليمين العام والعالي، حتى باتت هذه الحركة أكثر استشرافاً، ونجحت على مدى الربع قرن الماضي في السيطرة على المواقع الحساسة، وأخذت توجه كل شيء لمصلحة أفكارها ورؤاها ومنهجيتها الفاسدة في تفويض ما نئي زمناً طويلاً».

ومن الرصد...

«المنهج الذي تتحرك في ضوئه هذه الحركة: يعتمد منهجهم ابتداءً على بلورة قضية التشريع وبيان صلتها بأصل الدين وبيان أن الخلل الذي يعنى أنظمة الحكم في مجتمعاتنا المعاصرة نافض لعقد الإسلام، وهادم لأصل التوحيد. أما الأفكار التي تحملها وترغم العمل لها والدعوة إليها فهي تكفير جميع الدول الإسلامية وخاصة السعودية، وثرية الشباب وتكتيلهم إعداداً للخروج على الحكام، وكذلك فرائضهم لحركات خرجت على حكامها، ومن أفكارهم الاستدلال على تصرفاتهم بفعل أسلافهم الحوارج، ولا يتورعون أبداً عن التكفير».

ومن الرصد...

«نماذج من تواجدهم الفكرية المختلفة:

حول تكفير جميع الدول الإسلامية وخصوصاً السعودية: جاء في أحد كتبهم: «إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والعقيدة الإسلامية» وورد في موضع آخر: «إن هذه المجتمعات التي يعيش فيها اليوم مجتمعات جاهلية كما أسلفنا القول من قبل، لأنها لا تحكم ولا تحكم بشريعة الله، إنما تحكم وتحكم بمساحج جاهلية وشرائع جاهلية». وإلى ما قاله س ع في أحد أشرطته: «الرايات المرفوعة اليوم في طول العالم وعرضه إنما هي رايات علمانية»، وإلى ما كتبه س ح: «لقد ظهر الإلحاد في صحفنا، وفشا المنكر في بوادينا، ودعي إلى الرنا في إذاعاتنا وتلفزيوننا، واستباحنا الربا، أما التحاكم إلى الشرع، تلك الدعوة القديمة، فالحق أنه لم يبق

للشريعة عندما إلا ما يسميه أصحاب الطاغوت الوضعي: الأحوال الشخصية وبعض الحدود التي عرضها صبط الأمر، وقال س. ح. أيضاً: «وشوقاً كبير أن تكون أمانستان النواة واللجنة الأولى للدولة الإسلامية، وما ذلك على الله بعزيز».

ومن الرصد: «دراستهم لحركات خرجت على حكامها: ذلك لغرض الاستعادة من تجاربها، وإمكانية تطبيق ذلك في الواقع، كما قال أحدهم في أحد كتب الثورات «ولم أقصد دراستها من الناحية الشرعية، وإنما أقصد دراستها كواقع حصل في التاريخ الإسلامي، وهل يمكن الاستعادة منها في حياتنا المعاصرة؟ عندما ندرس أسباب نجاحها أو فشلها».

ومن الرصد: «عملهم على تكبير العصاة، لا سيما المصير مسهم على الكيئات: قال ع. ق: «وهي، أي المسكرات والمخدرات، أعظم ما غصبي الله تعالى به في أرضه» ومثله أو أظن منه في التكبير بالكبيرة قول س. ح. في أحد المخبين «هذا لا يعفر الله له، إلا أن يتوب» لأن النبي حكم بأنه لا يُعاقب لأنهم مرتكبون بفعلهم هذا، هذه ردة عن الإسلام، هذا مخلد، والعباد بالله، في نار جهنم إلا أن يتوب، لماذا؟ لأنه لا يؤمن بقول الله «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاجِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» بالله عليكم الذي يعرف أن الربا حرام وفاحشة ويسخط الله، هل يفتخر أمام الناس، أمام الملايين أو فئات الألوف من الناس لا يفعل هذا مؤمن أبداً». وكتب د. ع. يقول: «تصور أن المسكرات الموجودة في مجتمعنا مجرد معاصي، كثير من الناس يتصور الآن أن الربا مجرد معصية أو كبيرة، والمخدرات والمسكرات مجرد معصية، والرشوة

مجرد معصية، أو كبيرة من الكبائر لا يا إخوان، تشبعت هذا الأمر، فوضح لي الآن أن كثيراً من الناس في مجتمعنا استحلوا الربا، والعباد بالله، أنعلمون الآن في بنوك الربا في بلادنا زاد العدد عن مليوني شخص، بالله عليكم هل كل هؤلاء الملايين يعرفون أن الربا حرام! ولكنهم ارتكبوها وهي معصية، إذن من الخطورة الموجودة الآن بسبب كثرة المعاصي أن الكثير قد استحلوا هذه الكبائر، والعباد بالله» وقال س. ح: «هذا المتروبوليثان عبارة عن فندق في دولة مجاورة، فيه مشروبات! يسمونها المشروبات الروحية، يعني أنه يقدم الخمور، بالإصافة إلى ما فيه من الشاليهات، أو أيضاً العيديات إلى آخره، فهذه دعوة صريحة إلى الخمر، والرقص المختلط والشرع مع شرب الخمر، تعود بالله من هذا الكفر! لأن استهلاك ما حرم الله، تبارك وتعالى، هو بلا ريب كفر صريح».

مصحف راد يسمي أممنا

١١١١١١ ١٠١١١١ ١٠١١١١

أما الآن . فإن هي إلا رحلة، لا أدري ما إذا كان من الممكن اعتبارها رحلة عقل، أم رحلة وهم، أم رحلة من الوهم إلى العقل، أم من الوهم إلى الوهم! هي رحلة شهدت الكثير والكثير من التأمل والتفكير والشجن والألم . توهمت بها الخلاص في كل نقطة أصل إليها، كما أنا عارق بسكرة وهم الخلاص الذي أعيشه الساعة، وحدثت نفسي كثيراً، وبعد كل ما مضى أن الحياة ليست سوى سلسلة لا تنتهي من الحذر، وأنا داخلها نمرّد لتنتقل من وهم إلى وهم أدق، بسمية الحقيقة لكامل أنفسنا على هذا النمرّد!

جميعاً إذن واهمون ولكل منا وهمه الذي ابتكره، والقليلون فقط هم من يحشون بابتكاراتهم، ويحرصون على أن يكون لهم الوهم الأكثر عموصاً وتعقيداً ودقّة، متيقين أنهم نجحوا في نسب كل ما بحارج رؤوسهم واكتفوا بذواتهم عما سواها، واعتبروا العقل جديراً بالتأليه وليثوروا عليه من جديد ويدخلوه إلى لغة التخمين!

ما يعني من هذا .

أن هذا العقل كان مكاناً جماهيرياً، يجتمع داخله عدد ضخم

من الموتى ومريديهم من الأحياء، ورمناً بعد زمن وسؤالاً بعد سؤال كانوا يتبحرون، حتى شعرت للحظة ما أن هذا العقل هو أنا ولا أحد معي، وأنه لهو الوهم الأكبر!

في البدء . يأتي أحداً إلى هذه الحياة، ويعمل المحيط الذي يعيش فيه على تشكيل وعيه ولاوعيه ووجدانه، فيبدأ بحساسة ذاته كلما هبّ الآخرون بشيء جديد، فإذا قدحت شرارة التفكير في ذهنه بعد زمن بمسوخ ما فإنه يعكس المؤشر، وتصير رحلة العمر هذه استعادة ما سرق من ذاته، حتى يعود إلى اللحظة الأولى، لحظة مجيئه إلى هذا العالم، اللحظة الوحيدة التي لم يكن بها مستمراً من أحد!

إنها الرحلة الحاصلة أن يرجع أحداً إلى اللحظة التي يساوي فيها ذاته تماماً، أما ما بعدها فهو لن يكون هو هو بحال! ما يعني من هذا .

أن شرارة العقل الأولى دهمشي مرة ومرتين وثلاثاً وعشرًا، وأنا في أقصى حالات العلوّ الديني، أي إن السؤال المحرّض ولد في جمجمتي، وعقلي مسكونٌ بشعب كامل من الأموات والأحياء، وحياتي بديرونها كلهم إلا أنا، هذه الأما العائبة لقد كنت أدار بكلمة فلان ومقولة فلان، وموقف فلان، وحكم فلان، وكل هؤلاء الـ فلان . كلهم كومة كبيرة من التراب يحيط بها مجموعة من الأحياء، وييدهم معارف يأخذون من هذا التراب ويحشون به رأسي!

لم تكن تلك الأسئلة كاميةً للتحرير، وخصوصاً أن ذلك العقل المسكون بالشعب الكامل من التراب حيثذ لم يكن مجرد

مستوطنة لاحتشاد المستعمرين، بل كان فوق هذا عقلياً متعدياً حركياً، يبشر بمكوماته ويشها في الآخرين، عبر العمل المظم الذي كان ينمي إليه . كان لا يد من أن يثور التحدي لتعود إلى العقل أسئلته المحرصة، فبعد تلك الحلاقات التي لا تعود إلا لغرائر بعضها من قلوبهم وبعضها من قبلي حدث ذلك الاستدعاء للأسئلة، فتضخمت وتضخمت حتى تحولت إلى فم واسع يلتهم تلك الاعتقادات كلها . ويحيل العقل على مرحلة أخرى، مرحلة الإنسان النصف، والانتقال لحدوة أخرى هي وهم الإصلاح المسمى، ولم تكن هذه النقلة كافية لإخراج كل الحشود السابقة الذكر من رأسي!

ثم التفكير والسؤال من جديد، وتوسع دائرة القراءة والبحث مرة أخرى، ليتعلم هذا العقل ألا يحلط ما بين الخطوط، وليفتتح تماماً أن الديانات كل الديانات لم تأت إلا كحلل مصسي روحاني، وأن الإنسان حين منح عقلاً إنما صمعه لينير به الحياة، إذن فالعقل لي، وللروح الديانة . . هكذا ستكون الأمور أكثر طمأنينة، إذ لعقلي أن يتدبر أمور الدنيا، وللدن أن يتدبر أمور النفس والقلق، ولن يصطدما إذ الديانة ها وفي هذه المرحلة من التفكير في مكانها الصحيح، مكانها الذي لا يُرك الحياة، فالديانة معالج نفسي . . وهكذا أحسب أن الله أرادها!

وحسار عند الحاضرين داخل هذا الرأس أقل، ولأن العقل تخلص بشكل جيد من برعائه لأي تعكير يحمل طابعاً إرتياً فإنه اعتنق الحرية، وتحول إليها، ليس على سبيل الفصل التام ما بين شؤون الروح والعقل فقط، بل على سبيل الإيمان بأن الحرية هي

أن يكون المرء ما يشاء على ألا يسرق أحداً إلى مشيته، فلكل أحد أن يؤمن وأن يتعبد وأن لا يؤمن وألا يتعبد، فالحياة حق للجميع، الحياة التي تعني الاختيار ولا شيء سواه!

هنا . أصيب عقلي بشبق العليمة والأسئلة الكبرى، والتفتيش عن شفرات الغيب والبده والنهاية، وكيف هو المجهي، وكيف هي النهاية، ومادا عن صدق الإجابات السابقة، ماداً عن كل ما قيل على ألسنة التراب حول ما كان قل حياني، وما سيكون بعدها! لقد ثبت روح هذه الأسئلة في عقلي وكانت كعبلة بتنظيفه وكنس كل ما فيه، أما اللاوعي فهذا ما لا يمكن لأحد الجرم بشأنه!

النتيجة أن هذا العقل، وفي هذه المرحلة بالذات، تعبرت هذه مركزية الأشياء، فلم تعد قوة ما خارجه لها هذه أية أهمية، بل أدرك تماماً أنه هو مركز كل ما يحيط به، وأن الأشياء جميعاً بدونه لا قيمة لها!

السي . . لا بد أن يسقط الأوثان معصاه، ويعلى الحرب على كل السائد من حوله، وأن ينزع من عقله كل ما يعيشه الساس المفشونون بالموتى . كان على هذا العقل أن يعلن حربه على الأشياء جميعاً فينقياً كل السموم والقبيح المكس في زواياه، ثم ليبحث عن خلاصه على طريقته وأسلوبه، وليأت بما يحوره ويحرر عقول الآخرين من حوله مما هم فيه من الجهالة، وعلى العقل أن ينسف كل القوى ثم يصمم لدائه ملائفاً جديداً، أكثر دقة وعمقا، فهو يمشي من الشك واللا يقين شيء إلى الإنسان . الله!

وربما يكون أحيراً أن يتوصل الإنسان المستعمر إلى

لقد كانت هذه الرحلة التي قطعتها عبر هذه المسين شيئاً مهماً، ومثيراً للكثيرين من المشتعلين يتناول تجربتنا وأحداثنا، فكتبت عني مستديبات الانترنت كثيراً، وكتبت عني إحدى المحررات بمجلة النيويورك تايمز ما أعجبني وما لم يعجبني، وما وافقت عليه وما لم أوافق، وما قلته وما لم أقله، كان هذا في عددها الصادر لليوم السابع من مارس للعام الرابع والأربعين.

مما كتبت هذه المحررة «زاهي»، الشاعر والحالم الذي يكتب عن جمال الموسيقى والشعر وبلاغة القيود صديها». وكتبت «أحد أولئك المعروفين هناك من قبل المعلمين الدينيين في أواخر الثمانينيات شاعر وروائي من هسير اسمه زاهي. الآن هو متحول مثالي، لا لحة، جبر، سيرة جلدية، سجناء. ركب معه في جولة حول المنطقة وكنا نستمع إلى موسيقى صاحبة في سيارته العورد القديمة يقول: لا يمكنك الحصول على صديقة في هذا المجتمع». ومما كتبت: «زاهي، يتذكر نفسه ببساطة كشخصية بلاي ستيشن في قبضة يد شريرة. يقول: لو كان هناك بساط في مدرستنا الثانوية. لما كنت سأنضم إلى تلك المجموعات».

الإنسان الحر، وأن يعود المسكون بالنسين والأحرين التراب إلى الجنين المطلق!

ربما يكون أخيراً أن يتوصل المرء إلى أن الإنسان هو العقل، وأنه جاء ليكون مستقلاً، مستقل العقل والحياة والجسد، وأنه ما دام رهينة لأحد بعقله أو حياته أو جسده فإنه لن يكون إنساناً كاملاً

إذن فهذا العقل ..

هذا العقل من كيونه المستقلة لحظة البدء باتجاه أن يمتوطة الأحرار أحياء وأمواتاً، وهذا العقل بلغ به سحرهم حتى صار أصولياً متطرفاً ستكون متعته في أن يقتل أو يقتل!

وهذا العقل من اعتقاده الجامد إلى اعتقاده الحركي، ثم خلاص أول مخرج من حالته هاتين إلى التوسيرية الإصلاحية المشامعة، وخلاص جديد... فيخرج إلى تلقائية الفصل بين ما هو مادي وما هو روحي، وخلاص بعده إلى الحرية، وخلاص بعده إلى اللاحقية، وخلاص بعده إلى السوة، ثم خلاص بهائي إلى الإنسانية، الإنسانية ولا شيء سواها، الإنسانية التي تستوي فيها لحظته النهائية بلحظته الأولى، ليكون إنساناً محسب، إنساناً مستقل العقل والجسد والحياة!

وكتبت: زاهي ضائع في أسرة مكونة من ١١ شقيقاً. زاهي كان طفلاً وحيداً يحلم بالهروب. المعلمون الدينيون يعدونه بالجنة إذا عرب معهم. وضع زاهي «هم ينتشلوك من هذا المجتمع حيث نعتقد الحميمة والصداقة. يعرضون عليك محبة غير مشروطة وأخوة ومالاً وسيارات وتعليماً ووظائف، لأنهم يسيطرون على معظم الوظائف هناك. استمرّ بالقول: «في السنة الأولى يعلموننا أن نحب بعضنا بعضاً في برعات عطلة نهاية الأسبوع والمنحيمات الصيفية، حيث يبحثون عن الموهوبين، ويررعون فيهم رمض عائلاتهم. ثم يعطونهم كتباً ودروساً ويرمجون عقولنا من أجل بناء كيان جديد يعلموننا أننا وحدنا المسلمون.. والأחרى ليسوا كذلك!» وما كتته: «ذهبنا إلى هضبة صخرية كثيفة بين التلبي حيث كان يحتم لمئة سبع سنوات مع السلميين. يقول زاهي: «أعطوني كل ما أريد، كتباً، سحراً، صلاة، وكل الأشياء التي أفتقدتها في عائلتي وجدتها عندهم أحببتهم. ولذا التمتهم، وأمت بهم لقد كنت مستعداً لفعل أي شيء»

وكتبت: زاهي، الشاعر في صبر، أحبرني، أنه بعد سنوات من تدريبه أصبح جزءاً من الجيل الجديد للمؤمنين الحركيين. معلمو السلفية اكتشفوا خلال عيونهم في التنظيم أنه كان يقرأ همسواي وهوغو وفلاسفة آخرين، وبأنه كان يكتب ويفرأ شعر الحب الذي كانوا يعتبرونه بدعة وصلالاً، فقالوا له أن يحتار: «نحن أو الشعر» لم يكن يريد فقدم. لكن زاهي احتاج إلى

الموسيقى والشعر أكثر من الفكر القاسي. الآن هو ينتقد التطرف، يكتب الشعر علماً. يدعو إلى حقوق النساء وتعليم الموسيقى والرسم في المدارس أبواه يعتقدان بأنه ضال، وإخوته المتطرفون السابقون يهتدون.

٢٠٠٢

مكتبة زاهي

١١١١١١ ١٠١١١١ ١٠١١١١

استثناء، واتجهت راکضاً نحوهم، سيهربون كلهم مني حتماً،
بالرغم من أنهم يشبهونني جميعاً».

لماذا يهربون من العري، لماذا سيُجنون لو فعلت! هل يخاف
الباس كل شخص يمجّزهم بحقيقتهم! ماذا لو خلعت أستاري حقاً
وأخذت أجري وراءهم وهم يتمرقون هنا وهناك بذهر ويصرخون
«مجنون... مجنون» وأنا أصبح من حلقهم إني مثلكم لكن بدون
أعطية... وأنكم كلكم هكذا مثلي الآن في حقيقتكم، هيا اخلعوا
ملابسكم وانظروا إلى أجسادكم، كما أنا الآن عاري تماماً، تعالوا...
تعالوا... توقفوا أرجوكم!

الباس ساكن حقاً، لا يمكنهم أن يعيشوا دون لباس، دون
ثياب متنوعة ومتعددة الألوان يشعلمون ستر أجسادهم، ثم
يحترقون ستر حقائق نفوسهم، ويوعلون في الكذب إيعالهم في
الأقمشة والأرياء، وبالطبع سيكون الصادق محبباً ومرغباً ومثيراً
للاشمزاز تماماً كما ذلكم العربي، يا للصدق من فكرة صحيحة،
إنها أن يكون الإنسان مجرداً من كل شيء سوى الإنسان ذاته...
ومع انظمة هذه العلية بظهري رماها أحدهم، وصرخة آخر
«يا حمار» فليس من الضروري أن أثير الرعب في المدينة بخلع
ثوبي وفيصي وسروالي إنيهم مرعبون ومثليون وضائعون
ومزيفون وعائبون عن الوعي، يمكن كسرهم بمجرد جلسة عريّة
على سقف سيارة في مكان عام... وهكذا صرت دوياً أحداً،
لأنني أرفض الملابس!

ولحظة عابرة...

في دولة أخرى، وبليلة باردة، بأحد العادق، وفي الطابق

لحظات في زماني الجديد...

مدينة جدة، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، يحرق من
سرله إلى البحر. أوقعت سيارتي بمواجهة الشاطئ، ورفعت
الصوت. «أحاف أن تمطر الدنيا وليست معي، فمذ رحبت وعندي
عقدة المطر!» ثم اعتليت سقف السيارة وترنعت فوقه!

تمرّ السيارات المارعة والتافهة بطيئة من ورائي، يمرّون كما
يروق مشرّدي المدد الممتدة، وأبواق مركباتهم تنحشر في أدبي،
والبعض: «يا هوو»، يا روماسي، لا تبكي يا عبي، أعطوه
منديلاً، أعطوه كلبكس، إنه رجس من همل الشيطان! وآخرون
«اسمع، غداً لا تأت هنا إلا بولي أمرك واحلق شعرك وقص
أظافرك»، «أنعطيك...»، «متى حدث... متى»، «هبوب الريح
على شعرك يا فرس»، «ألدبك مكان!»...

كل هذا ولم ألتفت لحظة واحدة، بل كأنما كانت تمرّ عليّ
هذه المرححات كالحلم... وكنت أنصرف عنها ليس لتأمل البحر
ولا الموسيقى ولا كلمات الأعبية، وإنما لأحدث نفسي بهوس
أكثر: «ماذا لو وقفت الآن وخلعت ملابس كلها، كلها بلا

الرابع فتحت باب الشرفة بأقصى غرفتي المطلّة على النهر أخذت أنظر إلى الناس تحت، كم هم صغار، كسقاط سوداء تتحرك، وأحدث أرتكر انتباهي على أحد الروس وأشد إليه الدائرة السوداء التي تتحرك في حلمي وتخيفني حين كنت أعتقد بالجن وحرافاتها تدكرت أنني كنت أتحيل وجهاً مستديراً ومثيلاً وأمرود يتصمّم ويتصمّم حتى يتصدج قلبه خوفاً

أرووه أن فوق، وبإمكاني أن أتهم كيف ينصرف الناس إلى كل ما فوقهم. لمجرد أنه فوق حتى لو كان وهماً أو شبحاً، أو حتى غراباً. لماذا يستاء الناس من العراب، أنا أحب العراب كثيراً، إنه نورس أسود.. نورس بجاهر بقضيته!

هكذا لمعت في رأسي الفكرة: سأعتبرني بدءاً من السماء وأرى كيف يفعلون ومن الشرفة أحدث أصرخ بأعلى صوتي «يا من في الشارع، إني أعرفكم واحداً واحداً، أنت علي، وأنت إبراهيم، وأنت أيتها السيدة. أنت فتحة، وإن فيكم من سيموت الليلة، وفيكم من ستكسر ساقه، وفيكم من سيعود إلى زوجته فيجد في سريره قفلاً حقيقياً». ثم ضحككت بهجول لأن الناس توقفوا فعلاً يتعامرون أول الأمر وينصاحكون ويظنون بعضهم إلى بعض ساحرين ومستنمطين. ولم يمض بعض الوقت إلا وقد أخذوا يستمعون إليّ بقلق، بل رأيت في أعين بعضهم تعلقاً بي ويودّ لو يسألني عما ينتظرنني في بيته ومتى سيموت ويمادا سيرزق!

وقل أن أعود إلى غرفتي وأعلق الباب صحت: «أنا الشيطان ومعي العفاريات السبعة». ولم أنتظر لأرى ما يفعلون، لقد كنت

أعرف البقية. سمعت بعضهم يصرخ في الخارج: «يا كذاب، يا كذاب!».

ولحظة أخرى..

أبدأ لن أترك ليلة رأس السنة أن تمر هكذا دون أن يرقم تاريخه الحاصل عليها. لقد كنت أريد أن أزيغ لدرجة فقدان الوعي، ليس احتفالاً بالعام الجديد ولا ندماً على العام العاثت وإنما لأني وفي صميمي أرى الكون كله حبثاً هارماً، فلماذا تنتهي السنة في هذا اليوم ولماذا تبدأ أخرى غداً؟ ومن وضع هذا القانون ويأني حق! ولماذا يجب عليّ أن أحتفل أو أحرر أو أن تكون هندي أمة طفوس!

فكرت إذن، ولأن حبث الأرملة يعشى الشرية لهذا الحد.. فليكن لي عشي الحاصل الذي لا شأن له بهذه الحماقة الكبرى التي يحتمون عندها لحظة ويبدؤون أخرى، تكريساً منهم لمشار لا إنساني بليداً

خرجت إلى سوق غذائية واشتريت شموعاً وبعض المكشرات والثلج وسجائر بية اللون وقطع صمغ مصنعة وبخوراً من دلك الذي يسمونه «المعمول». وفي غرفتي يتموج ضوء الشموع على سحرية الدخان الذي أنعش من سيجارة سية، والمبخرة هالك فوق التلصويون توزع رائحتها ودخانها الأدكن بشقي معر جداً. تملدت على الأرض رافعاً رجلي على الأريكة، وأخذت أهدي بأغصاني الريمية مرة، وبعض الآيات القرآنية مرة أخرى، ثم أصع سيابتي في أذني وأؤذن «حتي على العلاج.. حتي على خير العمل أشهد

أن . قد قامت الصلاة!.. أخيراً سحبت رجلي من فوق المقعد وتلاشيت مكاني!

ولحظة..

مكتئباً أخذت جوار سفري، ولبست قميصاً وبنطلوناً وبعض الميارات البسيطة، وانطلقت بسيارتي إلى المطار هكذا دون سابق ترتيب . كل ما فعلته أنني سألت بالهاتف عن الرحلات الدولية اليوم وحجزت على واحدة منها وطرت إلى تشرد بعيد..

وبعد عدة أيام، عصرأ في مقهى حديقة الماريوت بدولة أخرى كنت على موعد مع صديقتي التي أعرفها من زمن، وهي هناك للسياحة، جاءت مع أسرتها الحجرية المفتحة، ولم تكن لديها أية تحفظات في أن نحبرهم بأنها على موعد معي، وأنها ستخرج برافتي.

التفينا ثلاث مرات، ثم خرج قط من الحديقة، وفي الثالثة قالت لي إنها تريد أن تجلس معاً بعيداً عن كل أحد أي أن يذهب إلى عرقتي بالعقد، لم يكن بيدي سوى الصداقة، ولم يحظر بيالي أن أحضرها باتجاه أية ممارسات، بالرغم من جمالها الفجري الذي يعجبني كثيراً. في شرفة عرقتي جلسا على أريكتين متقابلتين، وقد خلعت نعلينا وعطاء رأسها، مستسلمة للهواء الحميم، وشرت شعرها على تردداته، ومدات بالتدخين، وكنت أتعمد أن أريها أنني لا أهتم لا بوجودها، ولا بجمالها. خفضت رأسها قليلاً، ثم رفعت بـؤال:

- شوق باختصار.. ما الحب؟

- ها ها ها ها طلعتيا هنا عشاق تأسلي عن الحب، روحي أسألي عشقك!

- أحمد ما يفهم، قهرني بنباته!

- وهل توجد امرأة تحب غير الأغنياء والأندال؟

- وش قصصك؟

- لا شيء، المرأة دائماً تعشش عن ظهر مناسب للمركوب عليه، والأدكياء لا ظهور لهم. الرجال المحققون خلقوا من النار مثل الجن، وركوب النار يبدو مستحيلاً. إنكن تبحثن عن غي لقلوبكن، وعن جني لتطبع على سعوية لهيبه أجسادكن . فكل امرأة عادية وحمقاء نحلم باتيسر، مع أن هناك مبادرات يستعمن أن يقص علاقات حب مع أدكياء الجن، وعادة لا تستمر هذه العلاقات طويلاً لكنها تبقى أجمل ما في حياتهن!

- حسناً قل لي ما هو الحب؟

- هو الانشَاء بالذات من حلال آخر، أن تسكري بصمتك من حلال رجل. أكثر رجل يحقق لك السعادة بما لا تفهميه في فاحلت. ستقعين في أسره، لأن الحب أوقع حالات الحاجة، لكنا نحب، ويجب أن نعيشه، هل فهمت؟ هل يكفي هذا؟

- هل أحيت؟

- أحب امرأة مزاجها مزاج حمير..

- لماذا؟

- تركب رأسها مثل الحمار كل عشرة أيام مرتين، وهذا الذي يعجبني فيها ما دام لا يمس الحب ذاته!

- لماذا تحب وأنت بكل هذا العيب والعرض والجون.. ما

- لاسي أحتاج إلى التعرف إلى حاجاتي العارضة التي لا
أهمها الحب الموجه لامرأة حقيقية يجعلني أرى ما لم أكن أراه
في نفسي كرجل
" ماذا ترى؟

- ما هو... اشرح لي، ألا تقول إنني عادية؟
- لماذا تحبين علاماً دون فلان... بساطة لأن هذا الفلان هو قد
الكهرباء في روايا لم تكن مصيثة من ذي قبل وأنت بحاجة إلى
النور...
- كيف؟

- كل من يقول إنه يحب الآخر لأجله تماماً فهو دجال.
تماماً كأي قديس، وكل من يقول إنه يحب الآخرين لأجل ذواتهم
تماماً فهو سافل. الأمر ببساطة أن هناك مساحة ضخمة داخل
الإنسان اسمها اللاوعي اللاوعي هذه الخرافة الجديدة هل
أقول شيئاً؟
- طبعاً

- هاتني سيجارة أولاً..
- (مبشمة) خذ ولو أنني أعرف أنك لا تدخن!
- هناك ما أمكنك التعرف إليه من تركيبك، أي من النظام المشغل لك، أي من عقلك الباطن. لقد تمكنت من التعرف إلى

- أو لأنك رأيت مرة عن طريق المصادفة هذه التسمية بلا
وهيك..

- ليكن اسمها «الرفعت»، المهم أنك استطعت أن تفكي إحدى شعراتك الداخلية.

- ليه.

هناك ما أرتكر في لا وعيك البارحة وأنت لا تعرفين ما هو. ربما صورة، كلمة، حياء، رائحة، وفي لحظة ما يمكن أن يحدث وتحرك... تتفاعل كيميائياً وتظهر على سطحك كسلوك! - نعم...

- كل من يحقق لك أكبر مساحة ممكنة من هذه الكيمياء .
فهو مشروع حبيب، عشيق، يعني أن كل من يحقق لك هذه
الكيمياء مع ما لا تعرفينه في لا وعبك سيكون الحبيب !
- نعم . .

- وعندي أنه لا يوجد حب واحد!
- نعم...
- يوجد حب أكبر من البقية، لا توجد شهوة واحدة، توجد شهوة أكثر إثارة من البقية، لا يوجد أحمد كشخص يتيم داخلك،

لكن ربما يكون هو الأكثر حضوراً في كيميائك الآن، ربما يتجاوزه
آخر بعد نصف ساعة.. وهكذا!

بالمناسبة هذا الكلام حصرياً لي.. هذه الأكاديب تحبني
وحدني، وهي مجموع تجارب وقراءات ولا نعتقدني أنني ماركسي
أو شيوعي فأوصاف كهذه تصيني بالقيء!

- ها ها.. صحيح

وضعت رجليها على الأريكة، وجلست على الطريقة
العربية.. قالت:

- إذن يتقاطع الشخصية مع تلك التفاعلات مشيرها؟

- أنت لا تحب أحمد وحده، لكك تحببه أكثر من البقية..
هذا يعني: أن هناك من يتقاطع مع لاوعيك.. فتحببهم باعتراف
هذا الشعور حاجة، ولأن أحمد أكثرهم تقاطعاً مع لاوعيك فإنك
تحببه أكثر من البقية، وشعورك بالحاجة إليه أشد، وحين تنتهي
حاجتك إليه يصبح شخصاً عادياً!

- يعجبني هذا التحليل بل يناسبني جداً..

- هذا ما يسميه الناس انتهاء الحب.. حماقة!

- نعم.

- حين تشبعين حاجتك من أحمد ستحشين فعلياً من شخص
يمثل دوراً جديداً في دراما حياتك.. وهو سيفعل الأمر ذاته.
ليقول كل منكما للآخر إنه قد أصرم بشخص جديد وإن عليه
الرحيل، تمعلان هذا حتى لا تشعرنا بعقدة الدب ولا تأنيب
الضمير!

- أنا لست حائمة من هذه المرحلة ولا تمثل لي تابو.. كما
أني غير متحفظة بخصوص تعدد العلاقات ما دام الأمر سيحفظ لي
أحمد..

- شخصياً، أعرف أنك تميلين نحو برغباتك، وحتى تبقى
لأحمد متركة العليا فإنك تستمين شعورك تجاهي باسم آخر..
وهذا لا يزعجني، لأنه شأنك وحدك!

- يصدق أنا أحبك وأحب أحمد.. إلا أنني لم أتحيل أنني
أنام معك.

- هذا أفضل، والأفضل أن تحتفظي بأحمدك، هو خير لك
مني لأنني لا أتورع عن صفع الغباوة!
- لا تستهزئي أرجوك!

- يقيني أن الاستقلال هو قداسة الحاجة، لن أشعر بلذة
حاجتي إلى أحد ولن يشعر هذا الأحد بلذة حاجته إليّ إذا لم تكن
مستقلين!

- يس، بازاك قال إن الحرية حاجة..

- لا أعرف فريديرك ولا بازاك، ولا أريد معرفتهما..

- هاهاهاها.. فعلاً، أنا أدمع موقفي معك حتى لا يظهر
وكأنه تدليس!

اعترافات وأشياء...

• آمنت أن الإجابات من أشكال الموت إنها قتل متعمد، ولو أن البشر لا يؤمنون بالإجابات التي يعتقدونها ما قتل أحدًا أحدًا!

إذن حتى لا تحبى بي لعبة الإجابة، وحتى أبقي جرداً من حياة السؤال سأقول إن ما أعيشه الآن وإن يكن جرداً من توصيف لما أنتجه ما مضى إلا أنه أيضاً جرة من سؤال يتشكل فيما سيأتي، فلدي ما يشبه اليقين أنه ما زال لي في هذا العمر ثلثان كاملاً!

• لن أقول إنني الآن مجرد تماماً من الأعلام، فهذه كذبة لا يقل ضررها عن التورط في الأعلام جميعها، لكني سأقول إنني لا أشعر بشيء يمكنه أن يشاركني في رغبتني وقراري وأنا أعيه تماماً، أما ما لا أعيه فيتدخل ما شاء فهو، وهو فقط من يسمح الأشياء وهما، الذي نتم به!

• ربما حملتني الحكاية إلى الكتابة، إلى الصحيح، وما رلت حتى اليوم إذا نشر لي مقال أشترى من الصحيفة سحنتين حتى إذا حان الليل فتحت الصفحة على اسمي... ووجهت القيدل من

المسما إلى اسمي، ثم آخذ في النظر إليه... وبعد وقت أبصر على مقالتي بإحدى النسخ وأشتمني شتائم مقدعة، ثم أمزق الصحيفة كاملة، ثم أعود إلى السحرة الأخرى فأرشف على مقالتي عطرًا خاصاً وأحملها على رأسي إلى حيث أصعبها في تلكم الخزانة!

أد بعد شات فرصة للكتابة في رأي صحيفة كالوطن، وهذه بوابة كبيرة لبعد من حلالها مأرب بشوائه وهوس السعوديين بالشهرة، سيحافظ عليه بكل شكل ممكن، وسيحاول أن يكتب ما يجعل هذا المكان مسجلاً باسمه أطول فترة ممكنة، وسيحرص على الحضور الدائم. ليقول حتى لراحة البطيخ والمحم إنه كاتب في جريدة الوطن، لكن هذا ما لم يحدث معي لقد كنت وما رلت أمتنع عن الكتابة الدائمة، بل إنني لا أكتب إلا مقالاً في الشهر، وأحياناً في الشهرين والثلاثة، وكنت وما رلت أشعر بالعار تجاه التوصيف بالكاتب، ولم أكن لأحرص على مساحتي بحال، بل سأعترف دوماً أنني تعبرت إلى شخصية مستفزة جداً، ولا يملك قدراتي في الاستشارة وتهيب الناس إلا ذوو الستين الطويلة في ميادين المعارك والقتال والحروب، إنني مسمر حرب حين أشاء!

الاستمرار والإرباك أحد موسي التي أشدعها للضحك الطويل، وللاشياء بالحوون قدر ما يمكن، فحين يهاتفني محرر في الجريدة ليحبرني أو الهاتف لم يهدأ من اللاعنين والمحتسبين فإني أخرج فوراً لشراء شريط بلايستيشن جديد احتفالاً بالحدث!

• يسهجي أن يسيء الناس فهمي عن حمدي أو غير حمدي،

ويبهجنني أكثر حين يكتشفون أن ذلك لا يساوي صدي أكثر من الاستمتاع بي من خلالهم، والغبي عندي بعينه هو ذلك الذي لا يتمكن من إثارة سوء فهم الآخرين له!

أحب أن يولد من وجودي ومن كلامي ومن كتاباتي ومن تصرفاتي أكبر عدد ممكن من الأسئلة لمحاولة الفهم . وفي ذلك اليوم الذي سيتفق فيه الجميع على فهم شيء ما يخصني سيكون أحقر يوم!

هذه السنة الثالثة من الكتابة المتقطعة هنا وهناك، ولم أكن بها أمثل فكر أحد، ولا أدامع عن نيار، ولا يعينني من كل هذا سوى أن أكتب، أن أقول كلمتي وأمضي، وفي اللحظة التي سأحمل فيها هم إصلاح العالم فلتتأكدوا أنني صرت مريضاً. لقد مسحت هذا الدور، وهذا الشرف لمن يجيدون التجارة وممن اللعب بحبال الأكاديم، والعشي برواتهم وخرائهم على مصائر الناس!

لقد تيت من المشي في حنادق حروب رغبته كهدية إنسي في خنلتي ودونه ودون الذود عنه أرحب بالموت!

• إن على كل من أراد أن يعيش مارساً، ويموت واقعاً أن يضيق أفقته، أن يعيش بدونها ما أمكه إلى ذلك من سبيل، فهذه شجرة الإنسان الوحيدة، أن يكون المرء ذاته، دون أية إصابات أو إكسوارات غيبة، أو هيئات دجالة.

لست أصي بهذا رعاية الصديق، فأنا أعتبر الصديق في هذا الإطار أنه الكذبة الأعمد مسافة والأخطر درامية، والتي ستكون حالة الإحباط فيها هي حالة الوفاة، إنني أصي أن معنشي عن أفنعتنا ونرمي بها تحت أقدامنا، وليكن بعد ذلك ما يكون!

الموغلون في عمق ذواتهم وحدهم من يملكون القدرة على تسجيل بصمة خاصة، تصبح للحظة معبداً يتجمهر الناس حوله ويأتون بقرايبهم إليه، ويصططون تفاصيل حياتهم على تعرجاته وشكله . نصير هذه البصمة بعد كيميائية رمي ما عسفاً لواحدة من أهم أوراق تاريخ البشر . ثمة من مكث أربعين سنة يفرح إلى عمقه الشخصي، يفتش عن كل ما يتم بصمته . السر، نعلم علوم الأوليس، السؤال، رفض سائد قومه، روحانياته الخاصة، اللبالي ذوات العدد في حراء . إلح، ومن كل هذا البحث الدقيق عن ذاتيته ونفسه ووجدانه وعقله وقيمه ارتسمت أحيراً بصمته وصار حبسند مهياً ليحبر تاريخاً كاملاً، ما زالت الملايين في هذا العالم ترتب حياتها على ضوء حياته . إذاً فعلى الإنسان أن يكتسز بطاقته أولاً حتى يتمكن من الإشعاع . الإشعاع الذي ينتج ضوءه في عروق الزمن!

هذا ما فعلته وأفعله مع مرق بسيط، هو أني لا أريد إصلاح البشرية، ولا أحب أن أكون مهوياً لأحد ولا بسفاً لآخر، ولا تراودني شهوة احتفاء الجماهير أكثر من شهوة إغلاق باب غرفتي علي ثم التمرني من كل شتر، التمري حتى من الضوء إلا فتديلي الحاصم والقديم . كل هذا لأعني بي ولي وعلي برفقة بعض الطفوس . . مثل أن أركز في جدار العرفة مسماراً وأسلط ضوءاً خافتاً عليه وأحرك ظله في كل اتجاه . ثم أنتصب أمامه في سهرة طويلة!

• إنني أرفض رفضاً خطيراً أن يحتزل أحد ما مصير إنسان آخر داخل مصيره الشخصي، هذه جريمة . . ولا يمكن أن تعرف

بعبارة هذه الكلمة الصغيرة، وإنسي لأحب كل الذين لا يريدون
تصغيراً ولا تصغيراً. يريدون أن يتعرفوا شيئاً فشيئاً إلى راحة
قلوبهم وعقولهم وعواطفهم. يريدون أن يمروا من نكته دماهم
ليكونوا هم القطب الذي تدور الأرض تحتهم عليه!

• إنسي ألن هذه الموضى العارمة، التي أتورط فيها كمعبري
من الأحياء. هذه الموضى التي تدير شؤون هذا العالم، وأي شيء
يمكن أن يحظر ببالك حين ترى جداراً ضخماً يتهاوى على رأس
طمل صغير، وأي شيء سيخطر ببالك غير بشاعة هذه الميثة!

لا شأن لي بما يسمونه المكتوب، ولا بالسحر، والأبراج،
ولا بالآرواح، ولا بالعيب كله، هي أشياء لا تعنيني، وأنا من
يعنيها، أنا من يشكلها ويصممها على الشكل الذي أفرره ويطلب
لي، مفتعلاً بمعادلات الطبيعة وموضاها وأنه لا حقيقة سوى أنه لا
حقيقة!

• إنسي استعيد الرمن، وأعيش الموجل منه. يعني أي أكره
تغطية رأسي على الطريقة الناعمة، إلا حين لا يكون معها ماص،
وأحب أن أرتدي الملابس الرياضية دوماً. معرم أنا بالبلاي
ستيشن والرسوم المتحركة، وأنام ويجواري لعبة ماء أو على
الأقل. أنام وقبضة يدي متشبثة بمجلة أطفال، وقد لا أكون
سعيداً إلى الحد الذي يلهه الأنبياء، الذين فتحوا صدورهم لسيوف
المعلمين وطعناتهم ميتسمين بمسجراتهم، لكنني أيضاً لست شغياً
إلى الحد الذي يجعلني أحمل سكيناً وأعرسها بصلر دجاجة مصلاً
عن أركزها في خاصرة طفلة!

• أبكي كثيراً، ويلد لي هذا الكاء، الذي لا يغيب عني أكثر

من يومين، وأدمن الموسيقى والصمت والتأمل الطويل، وأحب
المقاهي الشعبية، وأعشق المطارات والسهر فيها حتى لو لم أكن
على سفر، وأحب المقابر المسيحية خارج المدن والجلوس بين
قبورها حتى لو لم يكن هناك من ميت أزوره. ويعجبني كثيراً أن
أندخل مع شمامسة الأحياء من حولي حتى أشعر أنني أفهم ما يحول
بذهن فراشة أو عصفور أو ربيعة!

• أميل إلى الأشياء المحتصرة والصغيرة، وأعبر عن نفسي
بمباشرة وهفوية، وأحلم بالحياة هناك، وأتخيل أن شيئاً كبيراً
وجملاً يتظرني دائماً!

• أجتهد ألا تمتد يدي في حاجة إلى أحد، حتى الأشياء
العابرة، التي تكون في حيرة الآخرين أو في متناول أيديهم. لا
أطلب إلى أحد أن ياولي الشيء الذي عند قدمه ما دمت أستطيع
القيام وأخذ حاجتي بيدي!

• أحب الحياة. الإنسان المسكين يحب الحياة لأنه يخاف
الفقد، هذه هي البساطة المتشابهة في الاستجابة لما خلّفته العوبيا
في داخله. إنه لا يحب الحياة لذاتها، إنه يحبها من خلال هيئته
في موبيا نقيضها، حيث أقحمه الممررون فيها. أما أنا فأحب
الحياة لذاتها ولا أنشئ بها لأن هناك ما أخشى فقدته أو حلوله. لا
أعاني أية محاولات تجاه الموت، فالموت قضية الموتى وليس قضية
الأحياء. الآن قضيتي الحياة التي أحبها من خلالها هي، من
أعشق أعماقها، ومع ذلك فإن حب الحياة حتى لو كان مزيفاً،
حتى لو كان في أصله خوفاً من فقد شيء أو رهبة من الإقبال على
شيء إلا أنه هو ما يمكن أن يحصل من المحتضرين مما هم فيه.

عرفت أنه كما أن أناساً يموتون هكذا، دون سابق إشارة، ميتة المتقاعد عن عمل أي شيء، فتوفيهم لحظتهم الأخيرة وهم في مرشهم، أو ربما جاءتهم وهم يتابعون فيلماً وثائقياً، يموتون بكل هذا السحب لأنهم حقيقة لم تعد لديهم أية رغبة في البقاء، إنهم يمرون الوقت ويمرون به ولم يسموا قط أن يمروا من خلاله، فكما أن هؤلاء يتفهمون على هذه الشاكلة فقد سمعت عن بعض الذين يرفع الأطباء عنهم الأجهزة التي تنفثهم أحياء، يرمعونها لتتوقف أرواحهم عن الركض للراحة / للموت، ومع ذلك فإنهم لا يموتون مباشرة، بل يبقون لأوقاتٍ تشير الدهشة . أجل، إنها ثنائيات حب الحياة / فويها المجهول والتعلق بها/ العقد. هذه هي الأيقونة القديسة في اللاوعي التي لا تشارك من تيار الطبيعة إلا بزوايا طويلاً

حب الحياة هو النواة المحلصة من استمدادٍ فقط علبط كالدي ألتم بي، وبالسبب التي فقد كان الشعر والسؤال والشعر/ السؤال هما من أوقدا يبران هذا الحب، رائداً بعض الصدمات النفسية التي تجلت عنها رائحة العدوان والكراهية الساكنة في خيانتهم، ورائداً خيبة الأمل تجاه هذا الطريق كاملاً، والعز الذي ابتجس منه حب الحياة. والصدمة وخيبة الأمل لم تكن قادرة على أن تشطف العقل من أدران الآخرين، لكنها كانت الطريق المحتمي إلى ذلك، فهي بث حصرتي للمستصرين على الخوف من المجهول، والذين يحتلون الموت وفكرته يتعالهم

• بقدر ما أعشق الدوران بسيارتي وأن أجوب بها المملكة وأن أسافر أسفاراً غير متعمدة ولا مقصودة فإنني أحب أن أمشي حافياً من

وقتٍ لآخر، بل إن أكثر ما يشدني نحو مكة هو السير على سطح الحرم حافياً . أمشي حتى تدب الوخزات في رجلي وساقتي، وغير مرة أوقفت سيارتي ونزلت إلى الرصيف أمشي حافياً، ليس على طريقة اليوزيس والمشائيس والرواقيس، بل على طريقي، والناس يرمقوني بعيون الدهشة والانتهاام بمن من الجنون، فلا أنبه لهم، فأنوني اليوم أن أعيش ما أشتي محباً

أحب البساتين التي لم ترل قيد التصبير، ويعجبي أن أجول داخلها بين العمال الذين يحسبون دائماً من أقارب صاحب البناء فأنادر أحدهم وأمد له محمسين ريالاً وأرت كتفه «الله يميكم». أدخل هذه البساتين شيراً شيراً، وربما اقتربت من بناءٍ آخر وطلبت منه دحاناً، أو ألتقط عقب سيجارة من الأرض وأسأل أحدهم القداحة ليشعلها وإذا حدث ووجدت بقية من إقظارهم فربما أكل، خصوصاً إذا كان من خير «الشمس» ومع «الجنة الحامصة» و«الطحينة» وأسكت شايّاً في أحد الملاجئ المنطحة بأنوارهم.

لم يكن هذا يشير استثماري فقط، وحين أخرج من صدم مشبهاً بذلك الجو فإني أكون في أقصى حالات انشغالي وسعادتي . ويقياً أني في الصيف سأحمل فراشاً بسيطاً وأصعد إلى سطح واحدة من هذه البساتين لأنام هناك

أحب الرمل والطين أيضاً، أحب الذهاب إلى الصحراء فأحلق ثوبي ونعلتي، حتى لا يبقى عليّ إلا لباسي الداخلي ثم أصعد الكتيان الرملية عارساً رجلي في الرمل، متعمداً العوص فيها قدر ما يمكن، مردداً شعراً أو أعاني بدوية، وإذا ما اعتليت الكتيب فإنه يعجبي أن أحشو الرمل بيدي باتجاه السماء أما الطين، فكثيراً ما

أرجع إلى قريني ألمس جدران بيت أهلي الطيبة وأخذ من فتاتها وأمركه بيدي ثم أشق طويلاً . لا سيما إذا ما غسله المطر وتضوّعت منه رائحة الزمن، فهي وحدها التي يمكن أن تكون رائحة للزمن!

• أنتشي كثيراً بالكتابة على الجدران والأبواب، وفي بعض الأحيان يصبح بي كبار السن . ينهروني ويبدون «بحاج اللون» أحط اسمي على جدار مقبرة أو سور مهجور أو بناية بعيدة

وبعيداً عن الأعين كتبت مرة «حبل كحبال الحوف، ضابني الشroud، واندفاعي كالمنظر وغصب المراهقين»! ومرة كتبت على سور مقبرة «هذه ليست جمهوريتي، وأنا لست رئيسها، وفي الداخل شعبي لا أعرفه»، ومرة «حتى عسبة هي التي تأخذ من الكلام لتفرّو»، وإلا فإنكم بعوض لا تستحقون! . . وأخرج صملاً من المدينة إلى الاستراحات على جوانب الطرق، فدخل حماماتها لأقرأ المكتوب على الأبواب، فأعلق أحياناً، وأحياناً أنقل بعضها إلى أوراقتي، وإذا وجدت رقم هاتف فلا أتردد في رفع جوالي والاتصال من الحمام فوراً لأقول «مرحباً، وجدت رقمك على باب الحمام، وهذا يعجسي» وبعد أن ينتهي الآخر من شيمتي أفضل السماعه راقياً ومرتاحاً!

• أفنعتني فتاة مزاجية قديماً بالريح، وعصوفاً حين تشتد للدرجة دحرجتها العلب، فصرت إذا ما هبت الرياح أصحت سمي لأقتصر تلك الدحرجة لا أكتفي بمنح السافنة لها لتعوي معي وتنتثر أوراقتي وتلفح وجهي ببردها، والذكريات التي أحملها معي عن سجداتي تحت المطر أو بمواجهة الرياح لا حصر لها!

• أحب رائحة «الشغ» التي تفوح بها المقاهي الشعبية، وأحب البخور و«الحبق» والريحان، ولا يموتني أن أطلب من كل شخص يشتري سيارة جديدة أن يسمح لي باستشاق ما تفوح به، وقل أيام اتجهت إلى معارض السيارات بحجة أنني أريد شراء سيارة لأركبها لعبة لا يفهمونها . . وكذلك أروح في غياب بعيد مع رائحة الكتب القديمة جداً، ولا أتردد في تنفس غبارها مهما أصابني العطاس، فأقلب الكتاب ورقة ورقة لا أقرأ منه حرفاً وإنما أثلبس تلك المشاعر المريبة، ولعلّ نلطيفي يدي بالتراب أو بالألوان يساوي عهدي رحلة حول العالم أشعر بسفر ما في داخلي ومرة طلبت إلى أنني أن تحصب يدي ورجلي بالحناء، فامتعت بعصب، ثم استسلمت للإحاحي، ونفيت أذهب إلى عملي، وأنتقل بين الناس ويداي ورجلاي مكسوة كلها بلون الحناء ورائحته . . ولما وقعت في يدي رواية المطر لثريك روسكيند فهمت الكثير الكثير عن أنني . . إسي لا أشبه عربي في أي شيء إلا في تمكيره وتأملاته ومراجيته!

• لا نمر علي أيام إلا وأنتزع من رأسي عدة شعرات لأحرقها وأشم رائحتها معطر المينين، متلذذاً بها كما لو كانت سيجارة حشيش . ولا يعدل حيي لهذه الرائحة إلا حيي لرائحة حقية أمي الحديدية القديمة، حتى صارت تصبق بي وبطلبي الدائم إليها أن تفتحها لي لأنتشي بتقليبها وبراثنيتها المجاذبية ذات الكهة الحونة جداً . .

• ربما أكون مريضاً بكراهية العناب، ولا أقبل من أحد أن يحاصرني أو يسألني، على سبيل إشراق إحايه مني لا أريد منحها

إياه، إنني أهمل أن أحسر ما لا يعقل دون أن يرصني أحد على ما لا أريده.. أو حتى على ما أريده!

• أنقلب العطاء الساذج، وأن أهب الآخرين فوق ما يريدونه مني، ولا أحتمل الاستعمال ولا الاضطراب إلى شيء، وبني من الجراءة والحبس ما يكفي للعيش عشر مرات، دون موت ولا قيامة، في كل مرة أسجل صبراً طويلاً وبادراً ومبيراً!

• ما هو الحب؟.. سؤال يدعو للابتسامة، للسخرية، للاهتمام، للفيء، للكاء، للدكرات، للتمزي، للسكر، للإغماء، للشتائم، للرقص.. لمعالات لا تنتهي!

ما هو الحب؟.. سؤال قاصم ويدأني في اللحظة ذاتها.. يشبه سؤال العلاسفة والأطعالي عن الله ما هو؟ هل هو الوجه المبرر من وحوه الانتقام؟ هل هو الانتشاء بالذات عبر كيان آخر تنشي بحاجاتها التي لا تفهمها من حلاله! هل هو الاتحاد والحلول والكشف؟ هل وهل والكثير من هل.. ثم لا شيء أبها الإنسان سوى أن الحب هو أصبتك التي أنتجتها أنت وحلك، ولذلك فإن الاقتحام بعينه أن يقدم أحد ما تفسيره للحب في نص عليه على غيره. إنه اقتحام يشبه اقتحام كل من يعرض تفسيره لله على الناس ويسوقهم إلى هذا التفسير ويجلب عليهم حبله ورجله ليقولوا إن الله حتماً هو هذا الذي يشرحه فلان!

الحب عندي يعني، هوس تركبتي بتركبتي ذاتها. يمكن أن يصاب المرء بهذا الهوس مرات ومرات، كلما ألقى طرفاً موصلاً للكهرباء إلى جميع رواياه، ولن يحب مخلوق في هذا العالم مخلوقاً آخر وهو لا يقيم حبلاً سزياً غامصاً مع شيء في داخله،

والحب الذي يتبادلته اتان يعني أن كل واحدٍ منهما محتسب في تركيبة الآخر، وحبس النقاء صارت رحلة الدفنة والاسجذاب إليه هي رحلة الكهرباء من ذات الإنسان فيه إلى ذاته في الآخر. الحب هو حاجتنا إلىنا في الآخرين، إنها المنفعة والحاجة السحرية، ودرءاً للوقوع في الدجل ونسوي وهمي لدى غيري أقول إن معنى أن أحدد (عندي) في بداية الكلام هو أنني ألقى كلمتي فحسب، نتيجتي الوهمية التي تلذ لي، وقد تكون قبيحاً عند غيري.. هذا ما لا يهم بحال!

• إنني متعصب لأجل بلدي، لا أترقب اتصالاً من مدير مكتب محم ليلمي الشكر والتقدير، فالذي يشكر على حب كهذا يشمني، يتهمني في ما لا يقبل التهمة عندي، إنه يقول شكراً إنك إنسان حققي، وسأجيبه لست أنت الوطن لشكركي، ولست المحمول بالتعبير عن كل هذه المسافات، وأيضاً عليك ألا تعتبرني شيئاً آخر غير الإنسان تيسم وتشكركي إذا نجحت مرة وكنت إنساناً!

إنني أحب وطني بجنوبيتي، بمسيرتي، برائحة أرضي وبيت أبي وأمي، أحبها بشبابي وبساتين عائلتي وبشرها، أحبها بالأغنام التي رعيته، وبالوديان التي عشت في مياهها، أحبها بهويتي التي فهمتها أخيراً، أحبها من هنا من قلب جبالنا في صبرا!

لم أجد بحاجة إلى أية هوية أخرى لأشعر بأنني جرة من هذا الوطن، إنني لا أعاني أمراض الدهول بأحد، ولا آبه لأية مشاهر اتشائية أو ولائية أخرى نجاه بلادي لا تولد من جذري، إنني حين أكون صورة من جبلي وأرضي ورائحة شجري وطعم غلواني

سأكون سعودياً حقيقياً لا يمانع أن يكس شوارع هذه الأقاليم كلها!

كل من لا جدر له تجاه تربته الأولى، كل من لا مشيمة يبه وبس مهد الطبيعة لن يكون سوى متاجر بورقة لا تأتي إلا بالمكاسب، تلك الورقة التي اسمها الوطنية . . علينا أن نحب النقاط التي أتينا منها لنكون صادقين!

• إنني أنا، ابن شرعي لهذه الحبرة، رفضت كل التبعيات وكهرت كل من يؤذي الإنسان، وبكيت كثيراً على قتلى الإجابات الحفيرة هناك في فلسطين وهناك في أميركا، وهناك في أفغانستان، وهناك في العراق، وبكيت أكثر فأكثر على قتلاها هنا في بلدي، في السعودية، ولم أكتب حرفاً واحداً إلا لأحتج عليكم جميعاً كيف تقبلون هذا، ثم إذا قبلتموه فكيف نحمدون النار بالرماس والقنابل والشر!

• نبأ، وملبون تباً لكل الدين يرددون كلمات الله ليسرقوا بها حيوات الناس ويجيروها لمصلحتهم مرةً ويخرجوها من حقها، ويقتلوها مرةً أخرى، وتباً لكل الدين يضطرون على الأنبياء الطيبين . . وسحقاً، وملبون سحقاً لكل الدين يحنصمون على التراب ويرفعون في وجوه بعضهم السادق لأجل الصوتي . . واللعنة، ملبون لعنة على كل شيء يمكن أن يسرق الإنسان من الإنسان، اللعنة عليه في أرض أو في سماء. إنني مشارل عن جميع الأفكار والمبادئ، التي تعرض حصاراً على الآخرين أو تضطرمهم إلى ما لا يريدونه، وعلى البقية أن يتارلوا عن أية مبادئ وأفكار تهدف إلى اختلاسي مني!

آخر ما يعيبي من أي أحد هو أفكاره، وأول ما يعيبي من أي أحد هو إنسانيته التي أقتسمها وإياه، بالرغم عنه . . وعني!

قلمت كل محالب الموروثات هي، وحلعت أنياب القوة والسياسة، وقبلت أن أعيش هكذا منحاراً لمصلحة الحياة، مؤمناً بالحرية والفايون، ومؤمناً قل كل شيء بالإنسان، ولن أحتكم إلى غيره!

• لا شيء يمكن أن توصف به قصايا البشرية كلها لمجرد الارتفاع عنها إلا أنها ساذجة وسخيفة، ولو كان ذلك الارتفاع عنها عبر ركوب المصعد الكهربائي في عمارة من عشرة طوابق فقط أو غيرها، من كل ما يسامر إلى الهلام الأعلى، لا شيء يمكن أن توصف به هذه القضايا من أماكن عالية كذلك إلا أنها فعلاً ناهية . . فكيف لو كانت هذه التشابكات على بعد ثلاثين ألف قدم إلى الأسفل . . ستكون الجبال الصخرة حيث مجرد علامات ترقيم عبة في هذا اللغز الكبير/الصغير . . الطبيعة!

• لأنني عمو لا اكراني في هذه البشرية فإنني أحب العلو قدر ما يمكن ثم استدعاه هستيريني حتى أبلغ الكشف، فأرفع شعر رأسي الأبيض الطويل عن وجهي، ثم أبصق بعناية . . على كل المرممين والمزودين ومتحلي زمن في زمن!

• باتت بكهتي الخاصة هي السحرية المعرطة في اللعنة والعلو واللعب والتطرف، كما أنا دوماً، مثل أن أواجه خمر وفاة قريب بلعب مباراة بلايستيش بيرشلونة، لعبي وثيني رومالديهو المحتوه، وربما فعلت بمتنح إنجلترا (بالقمصان الحمراء)، ليس نصاماً مع الإنجليز فأنا لا أعرفهم، لكنه انسياقاً لتسميتهم

بالشباطين الحمر، سمعتها من فم معلق معربي، مع انسجام خاص
آخر مع بيكهام وأوين!

• إلى كل السفلة الساهرين على أحلام بقاؤهم آخر، ينتظرون
فيه القنان والأعشاب والأعقاب، وإلى كل المستبطين خصوصاً أو
كتباً صفراء، وإلى كل الراضين بدقوبهم على لوحات المفاتيح.

إلى السوالي والرقيق والمحتومين، المسومين على أرواحهم
كالعمال، إلى كل النعابات/الفرايب، الملوية على رقابهم الصلحة
حبال الأوثان والسادة: هكذا عفواً أخبر عن فردائتي المحرقة دوماً،
ليس استجابةً للسانليس عسي من أكون، وكيف كنت، وكيف
صرت، وكيف أصبح فعصب، بل أفضل لمن لم يحدثوا أنفسهم
بهذا أصلاً. وللأجدية: عاسي لا أكرر في أحد حين أكتب، ولا
يحرصني أحد، ولا ثمة من استدعيه لأعرف من أنا، أو ماذا أقول!

• إسي إعصارٌ وظيمته أن يشير العبار أو يدقر أو يخرق عين
الطبيعة لتمطر إسي موجودٌ لتأجيج الحياة، فأنا كرون مهروم
بداته، يخلق تصاريق من فيه، وليتمرن الطماحون للحلاصات
الجماعية، أولئك الحمقى، ليعتبروني مستمحمًا أو حقيراً أو
ليعتبروني جباراً ومستبدًا، فأنا لم أكن لأكثر بظرة من ذي قبل،
لاسيما في الستين الأخيرين، لأنني أهاني كبرياء شاهقة جداً،
واعتماداً بالدات أعلى وأعلى، والذي سيقول إنني جميل لن يكون
أكثر خيراً من الذي قال إنني قبيح، فكلاهما حقيقة يحدث نفسه،
لا يحدثني!

• حقاً، مثيّر جداً حين أتذكرني تلك الأيام، مثلاً للسك
والتصوف والدروشة، رواراً للمقابر، متمدداً بين اللحد، سجاداً

في الشعاب والأودية، بكاء في الحلوات، هائماً حاسر الرأس
تحت الأمطار وألف ألف حميد جاد والله لثلك التجارب، لقد
ركرت في لاوعي تداخلاً وشعافية وإحساساً عالياً بالكون
والآخرين!

• أبي: أيها العملاق الضخم، أيها التابو الذي لن يكسر،
حشرتني بجنيات البار التي لا تهدأ بك، فلا تلمني واطمئن . ولا
يذهبن بك القلق بشأن ابك. لا تكثر لهم، ولك العهد أن أكبر
أكبر حتى تناديني: «أيها العملاق الضخم»!

• أمي . . تخصين دوماً لأسى لا أجمع المال. يرمعك
اقتراحي لكل هذا التشرد وهذه الأسعار! تحشين أن تموتي فأجوع
وأهري بعدك . . أليس كذلك؟ لا، فمعد كنت أقف أمامك كسمار
وأنت تدخلين يديك إلى الثور لتخرجي الخير المعجون بالسمن
والسكر وفي باطن باطني أحلف أنني سأتمرن جيداً لأدخل يدي في
الثور مثلك لأنزع الخير المعجون بالسمن والسكر. صدقي لقد
علمني الحروق أكثر مما نظيت، عسي لي: «عسى ونوم هاني.
يدب لك ديانتي، دب انفسم وامضاتي» . .

تلويح

حدثها : لطالما يا () جمعت أشرطة الألعاب الإلكترونية ، وارتديت العائلات المحططة ، ورسمت العاريات ، وقلت إن الشبق خلق ليصبح سناجة المجرة !
وماذا بعد !

هذا التمايل هذه الجدوع والببت الأصفر والأبدي التي تلوح ، تعني أن أرواحاً خرجت نواً وسكت هذه الأصابع التي تشير إلى القوة ، تمجدها . . وتشتتها !

وحدثت نفسه تأملت كثيراً هذا الحطب المشتعل كيف يمكن أن يكون متعة السامرين ويكون عذاب الحريق في اللحظة ذاتها إنها حماقات الجبر ، التي أتذكرها كلما رأيت صورتك ، ولعلت كل شيء أنني لم أكن ، على الأقل ، شعيرة دم يا حدى شعيتك !
وماذا بعد !

الملاعق المهرية التي لا تتصام مع هذا الأرق في المعتقل ، فإنها مهما كانت ثمينة فليست سوى معدن ، تماماً كهذه الحداثد العمودية بباعلة الباب . . كلها قصبان !

حدثها . مرةً يا () حملت النهاية ووجهتها إلى رأسي ،

وأحدثت أفكر : ما قبعة الشر ؟ ما معنى أن يكون فقير عاشقاً لعصائر الصحاح والخوخ ؟ وما معنى أن يكون قذر الحوح والتفاح بقم غول !
مرة لعمت زبدي الواحد على الآخر ، وفكرت كيف أمد يدي لها ، وأنا هكذا أنظر إلى وهم يعجبه أن يرى المراوح تدور ، يبدلها من صفحتها إلى وسط هذه الجموع المحتشدة في زبراته كان يهرق في ضحكته ، والمروحة تعصف برؤوس هذه الدمى ، تتطاير كحبات الليرة حين تلامس النار !

وماذا بعد !

أدور أدور . . ترساً في معدة ديناصورا

وماذا بعد !

كم أحب وأحب كل شيء الآن ، ثم أرفضه في الرمن الذي لا يجيء إلا خيالاً ، كطريق قريني الذي نسيت مد حاولوا مسحي صندوق يردد على حائط بيت أحد الأثرياء ، في هذا الحين المملوء بأعمدة الضوء !

وماذا بعد !

هذا المدار يا (. . .) صغير يفكر بطريقة الكبار ، تمتس العثاة فيه بعض أنجبها ، مصطمة العفوية لنحللم بالرجل الإيطالي ، والمارسية هناك تحيل لو أن العمائم ابتكرت إحدى رقصات ما يكل جاكسون بياة عنه . . كيف سيكون مصيرها !

حدثها ذلك المتجر ، الذي أرسلتني أمي إليه لأجيء لها ببعض المكسرات ، كان الطريق إليه ومنه يساوي عمراً كاملاً ، حدثت فقط أنني كنت أحمل طملاً أبيض ، وألملم تفاصيله إلى جيمي .

لقيبي صديقي، الذي ركلت وإياه الكرة كثيراً، ليركل هذه المرة صدري، فتصيب قدمه نصمي، ونصف الطفل الأبيض. منذ تلك اللحظة، وأنا أعرف ما معنى أن نهرب إلى الوسائد البيضاء بالذات!

سألتي: لماذا لا نكره أمها، ولماذا يجب عليها أن تحبها رغم أنها قروت مصيرها لتلد تلك اللعنة!

قلت: ما معنى، يا (...)، أن تسبحي في حوض بيشكم، ورجلاك مخنومتان بحوية لا نهاية له لعابت ملعون. ملعون! وماذا بعد!

كم الأمر متشابه. هناك الفتيات يصعن الأحمر على شعاهن ليصلن بجمالهن إلى قلوب الآخرين، وهما يضمن السواد على أجسادهن ليصل الآخرون إلى أرحامهن. كلهن يفعلن في صمت! وماذا بعد!

ألم تكن لعنة أن يشكر الإنسان الرقص!
ألم تكن لعنة أن تكون هناك موسيقى!
أجل. لأننا حين احترصاها احترصا معها فأساً وساطوراً ومقصلة، وكلاماً للدجل!

حدثها: مرة سهرت في بيت ساحر، لأحاول فقط أن أتحمس هل يمكن لكأس الليل أن تصير فولاداً كانت مجموعة من الفتيات معي. وقلت شعراً رومانتيكياً. كان منطري كالمنفذ الكادح، وكانت إحداهن تفرك أشياءها بسباتها!

قلت لهن هذه هي القصة كلها، على الرجل أن يتكلم، وللمرأة أن تهرب إلى المكان الذي نطق أنها خلقت منه!

حدثها: كان الأجنر يا (...). أن يلبسوا اللون الأحمر مع القمصان الداخلية لسبب بسيط، أنني حين سقطت من فوق بيت جارنا، وعرفت أمي بهذا قالت: أربي جروحك. كشفت لها عن الحدوش البالغة في خارطة جسدي، وكل ما فعلته أنها شذت أدني وشتمتني، وحذرتني من اعتلاء الجدران! وماذا بعد!

وحدثها: تأملت هذه الصدور كثيراً، ولم أكن مستعداً للإيمان أن المرأة تكون بهذه الحلقة لأجل آخر، ليستمتع بها رجل يبعثر شهوته عليها، أو ليرضعها طفل يعض فتيامباتها. العقيمة خارج المعادلة. أكثر اكتمالاً!

حدثها أيضاً لا أحد يعرف، يا (...). أن فتية قال لي. «نعال إلى اليمن كثيراً» وقتل بعدها بأسبوعين، ولا أحد يعرف أن أدونيس قدم لي سيجارة فرسية، وتباً أنه سيقتل، لأنه أخذ الناك، ولا أحد يعرف أن فتاة اعتصمتي وأنا في العاشرة من عمري. لا أعرف ما معنى أن تتركب فوق فتاة وتتاوه. كنت أبكي، وكانت تدخل لسانها في فمي!

وماذا بعد!
حقاً. كانت النكتة في منتهى السخرية والله. أربع إناث رشيقات برقصن ويرقصن، وبعد عشرين سنة تتوقف دوراتهن الشهرية، وتتوقف معها أشياء وأشياء. سيشتري بعض المصنعات ليمارسن الانتقام من الطبيعة!

حدثها: ليلة، يا (...). تمنيت أن لي سيارة سوداء طويلة

جداً، لا لأفودها، بل لأزور بها المواسم العربية، كاشف الرأس والناس يصفرون لي!

وأيضاً.. حديقة خضراء رأيتها، وأنت تتكلمين السارحة، وقبل أن أنام قلت، لا شك أن الحظ يلبس ربطة العنق الآن، وأنه يبكي مع كل أناقته تلك، لأنه عاجز عن أن يلقي بأحدنا في حفص الآخر!

قال: سأحكى لك شيئاً كثيراً كثيراً، في سطر لا تحمله سماعة هاتف، ولا يمكن أن يقال على ناصية شارع أو تحت لوحة إعلانات، يجب أن يلتقي عدد شخص، وظيفته أن يسبح القهوة التركية، لأقول لك إنك تشبهين هذا السهر!

قال: لا لا.. لن أحكي لك، من يدري، ربما تنفع الطبيعة في صدرك بإحدى هرموناتها، فتصبحين غداً شيئاً إلكتروبياً مهمته أن يفتك بك.. ويفتك بي!

حدثها: هل أحكي؟

قال: في الليلة التي ولدت فيها استدعوا ساحراً، ولينهم جالوا بعبد الوهاب الدوكالي، ليعني مرسول الحب. استدعوا ساحراً ليسألوه عني، فقال «سنوه زاهي، واعلموا أنه ذو شيمة، مسلط، محروس، ومز»، وفي الخامسة من عمري أئيت لي أحي الأكبر كيف يمكن أن يكون هذا العالم احتمالاً موصوياً، وفي السابعة من عمري رأيت شيئاً بصرب الطفل الشامي حتى عشي عليه، لأنه يرتدي البطلان في المدرسة القرآنية، وفي العشرين، يا (...)، تخرجت في الثانوية، وعائلتي يجمع ريفه في صم ليصق

بوجهي، ثم أصيب هو نفسه بأزمة قلبية. كان في مدينته وأنا أشرب الشاي وأكل البسكويت المالح على شاطئ مدينة أخرى! وعافا بعداً

أخيراً.. لو أن أحي تأخر بعض الوقت، وأنا أعرف في البئر أسفل الحي، لما كتبت شيئاً من اعتراض: أن الحياة ليست سوى سيجارة، ويا له من تشبه أخرج. إذاً فالحياة صغيران الثقب في طائر كبير، قالا كلاماً عابراً.. ثم مضيا!

حدثها: سأقف هناك يا (...)، وأنا الذي لا يوقعه شيء، فعليك أن تبكي، وعني أن أقول شعراً، يشبه قنوات الشونابم! أنا أتبخر، يا (...)، فاستنشقني! وليس الحفر الأخير..

وحدث نفسه بأشياء أخرى:

«أصانع ميل جيبسون يوماً، وقبل أن تعرفي يدانا سأسأله: ميل جيبسون والمسيح، أيهما يحمل آلام الآخر؟ ماذا لو كان الفيلم عن آلام ميل جيبسون، فمن أين له بمن يمثل آلامه؟ صدقي، يا جيبسون، الفرق مجهول الحجم بين أن يبكي أو يتألم أحد، وبين أن يمثل الآخرون بكاءه وآلامه!

وأيضاً يا (...) بعد عشاء يوم طويل يعود الكادحون إلى مرشهم، يتمددون باتجاه معاكس ليستندوا أقدامهم إلى الجدار، وكان لبناته تقاسمهم التعب..

قال لها ورجلاه إلى الجدار «من يألم السير حافية لن يكثرث للماركات الإيطالية العالمية، ومن يستنشق هواء الطبيعة لن

تأنيبه الحكيمات المركزية بغير العطاس، ومن يخلق ثوبه الوحيد
ميعرف أن العري اعترافاً خطيراً!.

فرك الجدار بباطن قدمه... «من يقول الكلمة السيئة في ثوانٍ
عابرة، يلزمه العيش عمراً ليعتذر عنها، حتى إن هذه التي تسمرت
عينها على ثوب الحداد، هذا الذي ابتكرته من الزجاج، تصقله
بعنايه لتصمم منه خنجراً أنيقاً ولتترافق به على طريقة أهل
الجبال، يعجبها لمعانه، ويفريها بريق الشمس على جانيه، لكنها
لن تستطيع أن تسمح به غطيتها!.

ولحظة رفع رجليه وصارتا عموديتين. التفت إليها وهمس:
«اللجنة على الوقت الخطأ... ماذا لو لم تخلق المرايا! ماذا لو لم
تخلق صفحات المياه! وماذا لو لم تخلق أمين الآخرين! لكنت
الجميلة لا تستطيع أن ترى بقايا يدها على الصدغ الذي انتشى بها
ولها!.

حدثها أيضاً: فرقعت أصابعي قبل أن أسجل أنني مهما
حييت... فإني أحب أن تطوف بي الأشياء وأن اطوف بها. أجول
بها في شوارع مدينتي المختصرة وحيداً، أتأمل كيف تفعل بحة
صوتي في حنجرتها! كيف مستخرج فمي من أوردتها، وهل حقاً
ستغرفه هكذا!

وكلما توقفت مركبتي، للضوء الأحمر، ضجت أبواب
السيارات: «ملعونة كل الأحلام!.

كتب كثيراً أن الوقت الذي تصل فيه طائرة مدنية، ويفتح
الباب للناس المتساوين أن يهبطوا منها فإن أول من يخرج منها

ويراه المستقبلون سيكون أكثر البشر حباً للحياة، وأكثرهم حرماناً
منها!

والرجل الذي وقف بباب بيتها، وكان الزمن صباحاً، وهو
يرتب شغتيه ليقبلها، انتظر حتى غلبه اليأس فمضى، وأخبرها أن
يديه فركتا هذا المقود من الفجر حتى سحرت الشمس منه، وهو
ينتظر خروجها... ليعود مثل تلويحة مسافر لم يجبها أحد!

وحدثها أيضاً أن لاعب منتخب إنجلترا، ديفيد بيكهام، حين
سئل عني قال: ليتذكر هدفي الذي حملنا إلى كأس العالم، وعليه
أن يعرف دوماً... أن الخريشات، مهما تأنقت، فإنها لا تنجب غير
اليفطات... ولن تحرز هدفاً مقوساً. ضحكت كثيراً... وقلت: يا
إلهي، فلتعطني قلعه، وأعطيه عقلي!

قال: «صديقني يا (...). محمد عبده، وكاظم الساهر،
وفروز، وأتريكة إيفلسياس، وشانيا لم يفكروا في الكثير من المال
ليقتنوا بعض قصائدي، لكنهم كانوا يأملون لو أنني دللتهم على
الساحرة التي تحب رائحة المطر على الجدران الطينية، وتتعزى
قبل أن تعقد السحر لأحد. يأملون هذا كي يقفوا على المسرح
ويعلنوا أنهم يفتنون شعري... عرفت مرة ثلاث جميلات،
وحدثني كل واحدة على انفراد أنهن أجرين اختباراً علنياً على
صدورهن، أيها سيكون أجمل، فأخذن قلماً ووضعته كل واحدة
منهن تحت نهديها، وحتى يكون الصدر فاتناً والنهد مشدوداً فعلى
هذا القلم أن يسقط.

كانت كل واحدة تحدثني على انفراد، وبعد أن تدفع بصدرها
إلى الأمام ترثي لفشل نهود صديقتها. ثلاث فتيات بستة نهود!

وثلاث فتيات ينزفن خمسة أيام ولا يستطيع الموت الوصول
إليهن!

التقيت الكثير ممن يحبون أن يكونوا أول الذكور وآخر
الرجال، والتقيت أكثر اللواتي يحبين أن يكن أول النساء وآخر
الإناث. . . وكانت الرقصات الإسبانية واللبناية فقط هي التي تجعل
الجميع يتنازل عن التثبيت بدوره، ويستسلم للإيقاع فقط. . . وقلت
لها: إذا لعن الله جملة قذح برأسها التفكير!

جيسكا، القمر، هذه النجمة القلعية العالية، كل شيء يدعوها
لتكون ذات أنياب ومخالب، وكل شيء يغريها بنشوة الفتك، وهي
تتمسك بمناديل أمها، وتنام بتياب بسيطة، وتضلي للرب أن يتركها
وشأنها، ولأجل قوتها هذه فقد فححت لها مكاناً له نكهة نباتاتنا
الجبليّة، النعناع والريحان والبرك والحب، وطلبت إليها أن تنض
بما يكفي لثلاثة، (أنا وهي وشيطاننا الأنيق!).

روى: الجنابة التي لم يقاضها أحد: الحلم المضحك يروق
القدر أكثر من آمياتنا البسيطة، ألا نتمنى أن نمتلك شقة صغيرة
وزجاجة ويسكي وأن نسهر مرة واحدة في الأسبوع دون أن يهدد
مشتتنا أحد، ونعيش عمراً في هذا المكان لا نملك غير متابعة
قنوات الموسيقى، والرقص على أغنيات راشد الماجد!

وأيضاً فيا (. . .) علينا أن نتنظر وقتاً لنحصل على مقعد في
طائرة محتملة الوقوع، وهناك نركب خيول الأثرياء وكلابهم في
طائرات خاصة وربما حصلت على سجاثر وموسيقى و«مساج»
وبعض الحلويات أثناء الرحلة، وماذا لو ذهب أحد الشجعان إلى

سيد الطائرة الخاصة، وقال له اعتبرني أحد كلابك، فإنه لن
يحصل حتى على شرف أن يكون كلباً!

سألته عن التراتيل التي ألفها للإنسان: «هل أنهيتها؟»،
وأجابها: «أجل. . . لكن عليّ أن أطلب قلعةً أسكنها في أصقاع
كثيرة، وأن أتعرف إلى أشخاص طيبين، عليّ أن أترك كل عناويني
للأقوياء الذين لا تزعمهم تراثيلي، ليحموني من الأقوياء الذين
يشعرون بالخجل مما كتبت، وسأوصي امرأة جميلة في هذا العالم
أن تنحت لي تمثالاً من الرخام وتنصبه على سطح بيتها، ولتكتب
عليه أراد أن يكون إنساناً، وأن يمضي للإنسان فحسب!«.

ابتسم. . . «لا أنا أنتم، ولا أنا أولئك. . . أنا هنا في هذه
النقطة، هذه النقطة التي لا أمل بها أحداً، ولا تمثل أحداً معي!«.

مختار

شبكة روايتي الثقافية

www.rewity.com



«هذا كتاب اجتهدت ألا أضلّه، قصدت منه أن تعرفوا إلهي الجبالي،
هذا الذي كان احتمالاً أكيداً لتمام الـ ١٩ فاتلاً في سبتمبر أميركا،
فهو الإرهابي الـ ٢٠. وكان احتمالاً لوثق لتمام قالمة الـ ٢٦، فهو
الإرهابي الـ ٢٧. في السعودية، واحترت كثيراً في الطريقة التي أقدم
بها هذين الاحتمالين، وأخيراً رأيت أن بحضي العمل هكذا عفواً،
فَسَحَنَ لإلهي، يتحدث عن نفسه، على طريقته، التي لا أسبّحها!»

«... لا أبعد دليلاً بقود إلى أعماق الظاهرة أفضل من
الكتاب النادر جداً «الإرهابي الـ ٢٠» للإنسان النادر
جداً عبد الله ثابت.»

حازي القصبي

«... ليتنا نقرأ هذا النص كما هو عليه. فهذا الشاب لم
يمض شعره لأنه طاعن في السن بل لأنه طاعن
في تجربة كنا نحسبها خاصة بأبطال
الأعمال التراجيدية الكبرى.»

معجب الزهراني

عبد الله ثابت شاعر وقاص سعودي. من مؤلفاته «الهنك»،
«التوبات...» تألف بمضغ عصبه»، «CV حرام»، «كتاب الوحشة».
ترجمت روايته «الإرهابي الـ ٢٠» إلى الفرنسية.